الهروب من الهاوية

قصة تحول حياة زعيم أكبر
عصابات المراهقين فى نيويورك

RUN
BABY
RUN

نيكى كروز
Nicky Cruz

الهروب من الهاوية

بقلم

نيكى كروز

ترجمة

چين محى لبيب

اسم الكتاب : **الهروب من الهاوية**
الكاتب : نيكى كروز
الناشر : دار النشر الأسقفية - تليفون: ٥٧٩٠٨٤٨ ـ ٥٧٥٥٣١٦
المترجم : چين محى لبيب
المراجع : خلود كمال العيد
رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٠٠٣/٢٠٩٧٢
الترقيم الدولى : 977-5884-54-3
المطبعة : ام. دى. جرافيكس تليفون: ٣٤١٨٨٦١
الجمع التصويرى والإخراج الفنى: چى سى سنتر ـ مصر الجديدة ـ تليفون: ٦٣٣٧١٢٤

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر
(فلا يجوز أن يستخدم اقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب
أو أى جزء منه بدون إذن الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)

الفهـــرس

صفحة

المقدمة ٥

الفصل الأول : لا أحد يهتم ١٣

الفصل الثانى : غابة السبورات ٢٧

الفصل الثالث : وحـــدى ٣٥

الفصل الرابع : انضمام بالدم ٤٧

الفصل الخامس : مشاجرات الشوارع ٥٩

الفصل السادس : الذين أحرقوا الجحيم ٧٣

الفصل السابع : أبن لوسيفير ٨٣

الفصل الثامن : ضحكة إبليس ٩٣

الفصل التاسع : فى الحفرة ١٠١

الفصل العاشر : المواجهة ١١٣

الفصل الحادى عشر : بعيداً عن البرية ١٣٩

الفصل الثانى عشر : الأيام الدراسية ١٦١

الفصل الثالث عشر : حيث تخاف أن تطأ الملائكة ١٧٣

الفصل الرابع عشر : جلـوريـا ١٨٩

الفصل الخامس عشر : رحلة إلى الجحيم ٢٠٧

الفصل السادس عشر : مع المسيح فى «هارلم» ٢١٩

الفصل السابع عشر : فى وادى ظل الموت ٢٢٩

الفصل الثامن عشر : التقدم فى منطقة نفوذ الله ٢٤٣

الخـاتـــمـة ٢٥٣

مقدمة الطبعة الجديدة

لماذا يتصرف أبناءنا معنا أحيانا كما لو كانوا يكرهوننا؟

هذا سؤال كنت أسمعه يتردد إلي درجة كبيرة بين الآباء والأمهات. وهنا أقول: لماذا نسأل مثل هذا السؤال، إن كنا كآباء غالباً ما تكون ردود أفعالنا الأولي تجاه أولادنا هى ردود حادة وقاسية؟

أفلا تكمن فى ردود أفعالنا من نحوهم أية خطورة؟ هل ننتظر منهم أن يأتوا إلينا طالبين منا المساعدة؟ أم أننا نبادر بها إليهم.

فى الحقيقة إذا ما انتظرنا أن يطلب أولادنا منا المساعدة فغالباً ما سيكون الأوان قد فات. وبالتالى سنري بأن هذا الجيل، هو جيل «مهمل» أو بمعني آخر «جيل متروك لنفسه»، متروك لطرقه دون أدني شعور بالأمان أو حتي بالسلام.

وبالتالى فقد ينضم الكثير منهم إلي «عصابات» أو «شلل» مختلفة يحاول من خلالها الحصول علي التعويض عن ما فقدوه من عائلاتهم المضطربة.

وهو جيل نراه أمام أعيننا وهو يسير برجليه نحو الهاوية. ينجب أطفالاً من دون زواج، يتعاطي المخدرات، وأصحابه يدمرون أنفسهم ويقتلون بعضهم بعضاً.

جيل نراه وقد اختفي من دون أثر، بلا أى تراث أو قدوة يمكن أن تُصنع فى حياتهم.

أو بمعني آخر هو جيل يعيش لا هدف له وبلا هدف يحيا لأجله.

وكأنه قد تبني المبدأ الذى ـ عاش عليه وقبله فى حياته ـ الملك «حزقيا» ملك اليهود منذ ٢,٥٠٠ سنة، مضت حين جرت هذه المحادثة بينه وبين النبى إشعياء.

قال يومها «إشعياء» لـ «حزقيا»:

اسمع قول الرب ستأتى أيام يؤخذ فيها إلي بابل كل ما فى قصرك مما ادّخره آباؤك إلي هذا اليوم ولا يبقي شيء. ومن بنيك يؤخذ الذين تلدهم من صلبك فيكونون خصياناً فى قصر ملك بابل. فقال حزقيا لإشعياء: أقبل حكم الرب الذى أعلنت. وأضاف: «ما دام لى سلام وأمن فى أيامى». (٢ ملوك ٢٠ : ١٦ـ ١).

قابلت ذات يوم رجل اعتقدت بأنّه مصاب بالجنون الحاد، فأهنته كثيراً. وأسئت إليه أما هو فقد ظلّ يلاحقنى. و فى كل مرة كنت ألتفت فيها حولى كنت أجده أمامى، يقول لى: «يسوع يحبك وسيبقي يتتبعك حتي تدرك مدي حبه لك».

لقد كان هذا الرجل مبشراً يجول الشوارع اسمه «دافيد ويلكرسون». نعم ولقد كان علي حق. فمنذ ذلك اليوم وحتي الآن علي مدي أربعين عاماً لا يزال حب يسوع المسيح يخترق قلبى القاسى.

وقصة اختراق حب يسوع لقلبى هى قصة ذلك التغيير اللحظى والمفاجئ لحياتى والمدونة فى هذا الكتاب الذى بيدك. فأرجو أن تقرأها بذهن و قلب مفتوحين .لكن إن كان قد سبق لك قراءتها من قبل– أى منذ خلال ثلاثين عاماً خلت – يوم طُبعت لأول مرة، فأشجعك اليوم علي أن تعود لقراءتها ثانية. إذ ستكتشف وأنت تقرأها ثانية حقيقة تلك المخاطر التى كان يواجهها شاب صغير و خائف مثلى، من «بورتوريكان» حين اقتحم شوارع نيويورك الخطرة «نيويورك الخمسينات» والتى كانت تشبه تماماً الأماكن البشعة التى عادة ما تحتوى علي أناس مخضرمين فى الشر يحاولون دائماً إرعاب الشباب الصغير والقلق، فى كل قرية قد تعيش فيها أو فى المدينة القريبة من مسكنك.

نعم من الممكن جداً أن تتغير الملابس واللغة، لكن قبضة الشر علي حياة الصغار والمراهقين هى، هى . ولا تختلف اليوم كثيراً عما كانت عليه بالأمس.

دعنى أخبرك عمّا يحدث اليوم فى مدن أمريكا. فهذه الموضة، الحركات والتقاليع والعادات المرعبة صارت تجوب العالم كله. اقرأ الإحصائيات التى غالباً هى ليست بدقيقة ، لكن أرجوك وأنت تقرأها تخيل من فضلك وجوه أولئك الصغار والمراهقين الذين تعرفهم. فكّر فى أطفالك أو أحفادك أو حتي أولاد جيرانك.

إذ أنّ واحداً من كل أربعة ضحايا فى العالم هم ضحايا لجرائم بشرية وحشية ، تتراوح أعمارهم من ١٢ إلي ١٧ سنة. و بين عامى ١٩٨٥ و ١٩٩٢ تضاعفت هذه الأرقام بشدة، وزادت معدلات جرائم القتل التى يرتكبها الأحداث، كذلك زادت معدلات جرائم القتل التى يرتكبها أحداث مسلحين، ومعدلات حالات القبض علي الأحداث من غير البيض بجرائم المخدرات.

أما ما بين عامى ١٩٨٤ و ١٩٩٤ فقد تضاعفت عدد جرائم القتل التى ارتكبها أحداث مستخدمين أسلحة نارية أربعة مرات.

و فى عام ١٩٩٥ أبلغ ٤٨ ٪ من مسئولى المدارس الثانوية اعترافاتهم بتعاطى المخدرات ولو لمرة واحدة فى حياتهم. كذلك فى نفس الإحصائية أبلغ ٣٩ ٪ منهم عن تعاطيهم للمخدرات خلال السنة الماضية. وقال ٢٤ ٪ منهم : بأنهم قد تعاطوها خلال الشهر الماضى.

كذلك تنشط عصابات الشوارع والتى تتميز بالعنف فى ٩٤ ٪ من بين كل المدن المتوسطة أو الكبيرة الحجم فى الولايات المتحدة الأمريكية. وفى عام ١٩٨٠ بلّغت حوالى ٢٨٦ دائرة شرطة عن ما يزيد علي ٢٠٠٠ إصابة من الأحداث تضم أكثر من ١٠٠٠٠٠ عضو. وفى عام ١٩٩٥ بلّغت حوالى ٢٠٠٠ دائرة شرطة عن أكثر من ٢٣ ألف عصابة تضم ما لا يقل عن ٦,٥٠ ألف عضو من الأحداث.

إضافة إلي أنَ الغالبية العظمي من قضايا هذه العصابات والتى حققت فيها المباحث الفيدرالية كشفت عن أنَ تجارة المخدرات كانت تشكّل مصدر الدخل الرئيسى للإنفاق عليها.

أما بالنسبة لمعظم المراهقين فإن فكرة الإحساس أو الشعور بالقبول من الآخرين والتى غالباً ما تسيطر علي أذهانهم قد جعلتهم فريسة سهلة لضغط الثقافة السائدة داخل «الشلة» لممارسة السلوكيات الملتوية التى ربما تتحول فى النهاية إلي سلوكيات إجرامية.

إذ عندما ينخرط المراهقون فى ثقافة المخدرات هذه، فإنهم عادة ما يصبحون جزءاً من مجتمع يدور حول العنف والجريمة وتعاطى المخدرات.

ويصبح الطريق الوحيد للخروج من هذه الحياة هو إما بالسجن أو بالموت. إن حياة مراهقينا الغالية فى خطر وهذا الخطر يتزايد يوماً بعد يوم وليلة بعد ليلة. وفى مواجهتنا لكل هذه الإحصائيات

المحبطة هناك أمل. أمل واحد مشرق لعالمنا هذا. وهذا الأمل هو من السماء وهو الذى استطاع تغيير حياة الكثيرين كباراً وصغاراً. يجب أن يحصل أولادنا علي الخلاص، الذى يعمل من الداخل إلي الخارج بقوة المسيح المغيرة.

خلال السنوات العديدة منذ نشر هذا الكتاب لأول مرة، استمر فريق الخدمة المكرس الذى أقوده تحت اسم «إرسالية نيكى كروز». فى قيادة الشباب والمراهقين من أفراد عصابات وسط المدينة، قساة القلوب، كى يغيروا طريق حياتهم ويتجهوا نحو المسيح. ولا يزال اليوم هؤلاء الصغار ينقذون من «عائلات» الشوارع المزيفة ويستردوا إلي عائلة الله الحقيقية.

أصبحنا مؤخراً نستخدم طرقاً أكثر اختراقاً وأقل تقليدية، مما أعطانا سبق الوصول إلي المدن الداخلية لأمريكا الشمالية. ففى سبتمبر ١٩٩٧، وبعد ستة أشهر من التخطيط والإعداد المكثف قامت منظمة «ولاد» والتى هدفها الوصول لطفل المدينة دوماً. باختراق مدينة «برونكس» التى كانت قد تفشت فيها مثل هذه العصابات. وقد لقى هذا الحدث كل المساندة والمساعدة من وسائل الإعلام المحلية، والمنظمات المدنية. ونظم تحت رعاية ومسئولية الحكومة. بمن فيهم رئيس مجلس مدينة «برونكس» «فرديناند فرير».

لكن قبل أن يحدث هذا الاختراق الكبير بفترة، قامت مجموعة من المتطوعين تضم بعضاً من أعضاء العصابات السابقين بالتجول فى أسوء شوارع المدينة. بمصاحبة الشرطة، متبعة سياسة واستراتيجية «الكر والفر»، والتدفق من السيارات وعربات المترو لبناء مسارح مكشوفة تقدم عليها موسيقي صاخبة لاجتذاب الجمهور. وقد أبلغ بعض الضباط المصاحبين لهذه الفرق عن أنّ بعض من المقيمين بهذه المناطق مسلحين بأسلحة آلية. وكانت نتائج هذا النوع الجسور من كرازة الشوارع مبهرة حقاً، فقد تقدم للأمام للصلاة عدد كبير من الناس وانتشرت الأخبار بسرعة عن ذلك «الغزو» القادم.

وفى يوم الحدث الفعلى، تقاطر الجميع قبل العرض بساعات فى طوابير بلغ طولها ثمانية مبان تقريباً. وقال أحد ضباط الشرطة الذى كان منفعلاً بما يحدث: «إن ما يحدث فى برونكس» قد حقق فعلاً أكبر توافد حدث فى هذه المنطقة، باستثناء مباراة فريق «اليانكيز ١» التى لم يتح لى بسبب الزحام أن أشاهدها فى حياتى.

وهكذا بدأ الحفل بعزف حى للموسيقي، تبعه عرض درامى لقصة «الهروب من الهاوية»

وهى قصة حياتى المروية فى هذا الكتاب. كان رد فعل الجمهور قوياً وغامراً فقد بكي بحرارة أعداداً كبيرة من أفراد العصابات وتجار المخدرات والعاهرات. واضطررنا لتكرار هذا العرض أكثر من مرة بسبب الجماهير الغفيرة.

كان هذا هو «الغزو» الذى أهدي السلام إلي هذه العصابات بدلاً من الغزوات التى كانت تؤدى إلي حروب العصابات. إذ أكثر من تسعة آلاف شخص سمعوا عن محبة الله وعن الطريق الجديدة فى الحياة. وكانت النتائج أكبر من أى مقاييس فأكثر من ٢٥٠٠ شخص تقدموا للأمام ندماً بعد أن قمت بتحديهم فى أن يسلموا حياتهم للمسيح. ومنذ ذلك الحين والأحداث الخاصة بخدمة «ولاد» تتم إقامتها فى كل مكان بأمريكا. وفيما يلى اقتباسات من ردود أفعال الأشخاص الذين نالوا الحرية والحق والحياة.

«تسلمت كتاباً مقدساً، لكنى لم أصرف وقتاً فى الصلاة. أمى لم تكن تسمح لى بأن يكون لى أى دين. لذلك سوف أقوم بإخفاء كتابى وسأقرأ به فى منزل صديقى». (مايكل)

«لقد كان عرضاً جيداً جداً، وقد فتحت قلبى أكثر لله. إننى أحبكم، ليكن الله مع الجميع». (كارولينا)

«لقد كنت مسيحياً قوياً من قبل، ولكنى تركت المسيح. لكن انتهت حياتى الآن مع العالم وسأعود للمسيح». (مجهول)

«أثناء وبعد الدراما لاحظت كم كانت العصابات والمخدرات قادرة علي أن تؤثر علي الحياة. لقد بكيت، ثم ضحكت وفى النهاية بكيت مرة أخري. فقد لمستنى بعمق، فى أعماق قلبى». (كلوديا).

وهكذا صديقى، كيف يمكننا أن نبارك أطفالنا اليوم كى يكونوا هم بدورهم بركة لآخرين فى المستقبل؟

إنى أتحداك، بأن لا تتخل عنهم. بل كن قوياً مثابراً. كن قوياً فى الإيمان، ولا تتراجع. كن مثابراً فى الاجتهاد بإنقاذ الأطفال. تذكر دائماً بأننا أبعد ما نكون عن الكمال، ولسوف يذكرنا أطفالنا هكذا. ولكننا نعلم بمن نؤمن به ونعلم بأنه لن يتركنا ونحن نربى أطفالنا ومراهقينا.

نيكى كروز ١٩٩٩

مقدمة

عندما هممت بالقيام بمشروع كتابة هذا الكتاب، علقت كاثرين مارشال قائلة: إن كتابة مثل هذا النوع من الكتب هو بمثابة ولادة لطفل جديد. إذ كان على أن أتعايش معه منذ البداية حتي يولد. ولم أكن أنا الوحيدة التى عليها دور هذا التعايش. بل كانت عائلتى أيضاً وشعب كنيستى، كنيسة «تابرناكل» المعمدانية التى أنا راعية لها. فقد عانوا وعاشوا معى كل آلام الولادة. وكان لدينا شعور دائم بالإعياء المستمر حتي أننا أصبنا بإنذارين كاذبين للولادة. كانت عائلتى و كنيستى مقتنعتان تماماً بأن هذا الكتاب قد حُبِلَ به من الروح القدس و كُتِبَ بالصلوات الحارة و الدموع و طُبِعَ لمجد الله. فقد كان «جون» و «تيبى شيريل» محررا مجلة «GUIDE POSTS» بمثابة أبوين روحيين لهذا الكتاب. و تزكية «جون» وثقته هى التى سارعت ببدء العمل به، و نقد «شيريل» هو الذى أعطي النظرة الأخيرة لهذه القصة المثيرة والجميلة لحياة «نيكى كروز».

يرجع الفضل فى كتابة هذا الكتاب الذى يعتبر حركة روحية لمجد الله، إلي «باستى هيجينز» التى تطوعت بتقديم خدماتها لمجد الله. وهى عايشت وتنفست نسخة الكتاب الأصلية كناقدة وناسخة ومحررة تمارس موهبتها فى إعادة التحرير والكتابة بقوة لا تأتى إلا من خلال الله.

الكتاب نفسه كان يناقض أحد أهم القوانين الأساسية للكتابة الأدبية، حيث أنه ينتهى بنهاية مفتوحة. فليس هناك ختام فلسفى أنيق. وفى كل مرة كنت أتحدث مع «نيكى كروز» كان يحكى لى عن خبرة جديدة تحدث الآن فى حياته خبرة تفوق الخيال لذا فالاختبارات لم تنتهى.

لا بل لهذه المادة جزءٌ ثان أو ربما أجزاء عديدة و متتالية. لذلك فإن قصة «الهروب من الهاوية» هى قصة حقيقية مروية بأدق صورة وتفاصيل ممكنة، للتسعة والعشرين سنة الأولي من حياة شاب لا تزال أيامه العظيمة قادمة.

جايمى باكنجهام

Eau Gallie, Florida

إهـــداء

هذه القصة، «الهروب من الهاوية» قصة «نيكى كروز» هى قصة جديرة بالاهتمام بها. فى كل ما تحمله من عناصر الدراما من مأساة وعنف وتشويق - إضافة إلي أعظم المكونات التى فيها وهى قصة قوة إنجيل يسوع المسيح.

الفصل الأول منها يشكل خلفية مظلمة مليئة بالترقب، استعداداً لذروة هذه القصة الغير عادية لذلك لا يمكنك أن تشعر بالملل بالرغم من الجو الدموى المرعب الذى تلحظه فى النصف الأول من هذه الرواية.

تقديم

تعتبر قصة «الهروب من الهاوية» «لنيكى كروز» قصة رائعة وجديرة بالملاحظة حيث تتوافر فيها كل مقومات المأساة والعنف والمكائد ، إضافة إلي ما هو أعظم من كل هذا قوة انجيل يسوع المسيح المغيرة.

تحتوى الفصول الأولي منها على خلفية مظلمة مليئة بالشر، لكنها تقود إلي نهاية مثيرة. لذلك لا تحبط من عدم وجود ما يجذب انتباهك روحياً فى النصف الأول من القصة.

فالشاب «نيكى» كان شاباً له تأثير قوى علي أكبر مناطق تجمع للشباب فى الولايات المتحدة. فى وقت صار فيه الآباء غير قادرين علي تجاهل المشاكل التى يصارع فيها شباب القرن العشرين. الباحثين عن معني لحياتهم. وبالطبع المتمردين علي العادات الاجتماعية القديمة. فهم يبحثون عن الصدق فى الدين والأمانة فى السياسة والعدل الاجتماعى للمظلومين. ولكن الشيء الوحيد المشوق عن ملايين«الشباب الصاعد» - الذين بحلول عام ١٩٧٠ سيتفوقون عدداً فى النمو السكانى كبالغين- هو بحثهم المستمر عن إجابة. ففى احتكاكى بمئات من طلبة المخيمات الجامعية أذهلت من رغبتهم فى معرفة الحق و الحقيقة والأمانة والصدق والبحث عن إجابات لها. فبعض هؤلاء الشباب فى المناطق التى تضم الأقليات بالمدينة لا يهدأون إلا إذا

حصلوا علي عدالة اجتماعية.

أيضاً البعض منهم بدأ يتأثر جداً بمن يؤيدون العنف ومن يحكم العصابات، وبالتالى صاروا ينساقون بسهولة إلي دوامة التخريب والسلب والنهب. لذا كان «نيكى كروز» مثالاً جيداً لمثل هذا الشباب المضطرب الذى يبحث عن معني و إجابة لحياته، فهو استطاع أن يجد ما يبحث عنه فى المسيح يسوع.

إن أكثر من نصف الحاضرين فى حملاتنا الكرازية هم دون سن العشرين. وهم لم يأتوا للتسلية، بل جاؤوا للبحث عن الحق والهدف وبالتالى فمئات من هؤلاء الناس يتجاوبون مع دعوة المسيح.

قصة «الهروب من الهاوية» هى قصة شيقة للغاية، ورجائى هو أن يقرأها الكثير ويتقابل مع شخص المسيح الذى يملأ الفراغ الداخلى وعدم الراحة الذى عاني منه «نيكى كروز» فصارت حياته أسطورة مسيحية فى عصره.

بيلى جراهام.

تعادل شهرة هذا الفريق شهرة فريقى الأهلى والزمالك، بكرة القدم فى مصر.

الفصل الأول
لا أحد يهتم

صرخ أحدهم قائلا «أوقف هذا الولد المجنون» !

عندما فُتح باب الطائرة «كونستيليشان بان آم Pan Am Constellation» انطلقت بقوة السهم نحو مدرج مطار «ايدلوايلد» بنيويورك. حدث ذلك فى الرابع من فبراير عام ١٩٥٥. كان الهواء آنذاك شديد البرودة، يندفع من باب الطائرة و يلسعنى فى وجهى.

كنت أنا يومها طفلاً متمرداً مرير النفس يبلغ من العمر الخامسة عشر، حين أرسلنى والدى علي متن الطائرة الذاهبة إلي سان جوان لأول مرة. وتحت وصاية قائد الطائرة الذى طلب منى المكوث بالطائرة إلي أن يسلمنى لأخى فرانك يداً بيد، لكن ما أن فُتح الباب، حتي كنت أول من خرج ركضاً بسرعة شديدة عبر ساحة المطار الضيقة.

كان قد جمع حولى نحو ثلاثة أرتال من الأشخاص الذين كانوا يرافقونى علي الطائرة حيث ألصقونى نحو سلسلة السياج بالقرب من الباب. والهواء البارد الذى يمر عبر ملابسى الخفيفة يضايقنى وأنا أحاول الهرب منهم .لكن استطاع أخيراً واحد من رجال الشرطة ـ وقد كان وقفاً بجوار الباب ـ أن يجذبنى بقوة من يدى، ثم انصرف بعدها كل إلي عمله. لقد كان هذا الاختبار بمثابة لعبة بالنسبة لى وبعد أن انتهي نظرت إلي رجل الشرطة وابتسمت.

«أنت فعلاً مجنون يا برتوريكان !بحق الجحيم ، ما هذا الذى تفعله؟» قال رجل الشرطة. فتلاشت الابتسامة من علي وجهى بسرعة، حيث شعرت بكراهيته الشديدة لى فى نبرة صوته. كان وجهه محمراً من شدة البرد وعيناه تدمعان من قوة الريح. وقد وضع عود سيجارٍ مقضوم وغير مشتعلٍ بين شفتيه الغليظتين.

كره شديد! هذا هو كل ما شعرت به من مشاعر تجيش فى جسدى. لقد كانت نفس مشاعر الكره الذى شعرت به ذات يوم نحو أبى وأمى ومدرسىّ فى المدرسة، وحتي رجال الشرطة فى

بورتوريكو الذين حاولت الهروب منهم، لكن أحدهم أمسك بيدى كقبضة من حديد.

«تعال إلي هنا أيها الولد هيا لنرجع إلي الطائرة». نظرت إليه ثم بصقت عليه. فزمجر فيّ قائلاً «خنزير، قذر» بعدها فك قبضته من علي يدى وجذبنى بقوة من خلف رقبتى. فانزلقتُ من تحت يده، ثم اندفعت بسرعة من الباب المفتوح الذى كان يقود إلي صالة المطار.

بدأ يجرى ورائى صارخاً ضارباً برجليه الأرض .لكنى ركضت بسرعة عبر الصالة بين الركاب الواقفين المنتظرين ركوب الطائرة. وفجأة وجدت نفسى داخل صالة أخري كبيرة جداً ثم رأيت باباً للخروج ، فهرولت منه مسرعاً إلي الخارج.

شاهدت أتوبيساً كبيراً ينتظر علي ناصية الشارع، بابه مفتوح ومحركه دائر. والناس يصعدون إليه فانثنيت ودخلت بينهم ووقفت فى الطابور. حينئذ أمسكنى السائق بقوة من كتفى وسألنى عن تذكرتى. رفعت يده من علي كتفى ورددت علي سؤاله بالأسبانية، فطردنى خارج الطابور قائلاً لى: بأنه لا يملك الوقت ليضيعه مع طفل غبى مثلى، لا يستطيع حتي فهم الإنجليزية. عندها التفت إلىّ امرأةٌ وفتحت حقيبتها لتدفع عنى ثمن التذكرة ،فانحنيت وانزلقت من خلفها عبر الباب إلي داخل الأتوبيس المزدحم. ثم نظرت بطرف عينى لأتأكد من أنه لم يرنى أحد، بعدها وجدت طريقى إلي آخر الأتوبيس فجلست بجانب النافذة.

عندما بدأ الأتوبيس يتحرك، رأيت الحارس الضخم يخرج من باب صالة المطار ومعه حارسين آخرين كانا ينظران فى كل الاتجاهات بحثاً عنى، وأنا لم استطع مقاومة فكرة أن اقرع لهم علي النافذة وأن ألوّح لهم بيدى. لقد نجحت.

جلست فى مقعدى واضعاً ركبتى علي ظهر المقعد الذى أمامى وضغطت بوجهى علي النافذة المتسخة الباردة. فانطلق الأتوبيس فى طريقه إلي داخل المدينة حيث كان الزحام شديداً. والثلج والجليد فى الخارج يملآن الأرصفة والشوارع.

كنت دائما أتخيل الثلج، وأتصوره جميلاً فى ذهنى و نظيفاً جداً وناصع البياض وشديد الجمال حيث يغطى الأراضى الخضراء. لكن لم تكن هذه هى الحقيقة فهذا الثلج الذى سار عليه الأتوبيس كان ثلجاً قذراً ومتسخاً للغاية.

وفجأة لاحظت بأنّ أنفاسى تصنع بخار ماء علي النافذة فانتصبت وبدأت أكتب عليها بإصبعى.

لقد كان هذا العالم، عالماً مختلفاً جداً عن ذلك الذى تركته هناك، تذكرت الأمس حين كنت

واقفاً علي التل الصغير أمام منزلى. تذكرت الحشائش الخضراء تحت قدمىّ تنبت منها بعض الزهور البرية الصغيرة.

كان هذا التل ينحدر برفق نحو البلدة الصغيرة فى أسفل. تذكرت النسيم الرقيق الذى كان يمر ويداعب وجهى كذلك الشمس التى كانت تدفئ ظهرى الأسمر العريان.

اعتبرت بورتوريكو دائماً من أجمل الأراضى، حيث الشمس الدافئة والأطفال الذين يلعبون وهم حفاة الأقدام .لقد كانت الأرض الذى لا يرتدى فيها رجالها القمصان ونساءها كانت تمشى بتراخى تحت أشعة الشمس .أما صوت الطبول والجيتارات فقد كانت تسمع ليلاً و نهاراً فقط . لقد كانت أرض الغناء والزهور والأطفال الضاحكين والماء المترقرق فى البحيرات.

لكنها كانت أيضا أرض العرافة والسحر، وديانة الخرافات والجهل الشديد .ففى الليل كثيراً ما يمكنك أن تسمع صوت طبول السحرة ينساب عبر النخيل الذى يملئ الجبال حيث الأطباء السحرة يمارسون مهنتهم ويقدمون ذبائحهم ويرقصون مع الثعابين علي ضوء النار.

ووالدىّ كذلك، أبى وأمى كانا يتعاملان مع الأرواح يكسبون رزقهم بانتهار أرواح الشر والتواصل مع أرواح الموتي. والدى كان من أكثر الناس مهابة فى البلدة. فضخامة حجمه وطوله الذى يبلغ حوالى ستة أقدام، جعل أهل البلدة يلقبونه «بالرجل العظيم» فهو من المحاربين الذين شاركوا فى الحرب العالمية الثانية، لقد أصيب يومها فى هذه الحرب ثم حصل بعدها علي معاش تقاعدى من الحكومة. فقد كان لديه سبعة عشر ولد، ذكور وإناث لذلك اتجه إلي السحر ليكسب رزقه و يقوت عائلته. ووالدتى أيضاً كانت تعمل معه كوسيطة روحية. فمنزلنا اعتبر المركز الرئيسى لكل أنواع السحر والشعوذة. حيث لجأ إليه مئات الناس من كل أنحاء العالم المحيط بنا فى جلسات الوساطة الروحية هذه.

منزلنا الكبير هذا كان يقبع فوق التل الذى سبق وتحدثت عنه، وكانت له طريق ملتوية تقود السائر فيها إلي البلدة الصغيرة النائمة «للاس بيادرس» والواقعة فى حضن الوادى فى الأسفل.

ولقد اعتاد أهل البلدة علي تسلق هذه الطريق إلي أعلي التل، فى أى وقت من النهار أو الليل إلي أن يصلوا إلي منزل «السحرة».

فقد كانوا يحاولون التحدث مع أرواح موتاهم، وكانوا يشاركون فى ممارسة الشعوذة و يسألون أبى أن يحررهم من الأرواح الشريرة.

وأبى كان هو المدير لكل ما يحدث. إضافة إلي الكثير من الوسطاء الروحيين البورتوريكان الذين ما فتئوا يأتون إلي منزلنا ليستخدموه فى قيادتهم المركزية. بعضاً منهم كان يمكث عندنا لعدة أسابيع ليستحضروا الأرواح الشريرة وليطردوا الشياطين.

حول منضدة طويلة موجودة فى الغرفة الأمامية ، يلتف الناس ليبدأوا التواصل مع الأرواح. أبى كان يتميز بكونه من أكثر المطّلعين والضليعين فى هذا الموضوع ، فهو يملك مكتبة ضخمة وكاملة عن السحر و الشعوذة والتى لا مثيل لها فى كل قريتنا.

ذات صباح باكر، أحضر رجلان امرأة مريضة للمنزل. فتركنا أنا وأخى «جين» فراشنا وأسرعنا لننظر من طرف الباب ولنري ما يحدث. رأيناها ممدة علي المنضدة الطويلة.

كان جسدها ينتفض بسرعة، وتتأوه بصوت عال، أما الرجلان اللذان كانا قد جاءا بها فقد وقفا علي جانبى المنضدة يحاولون قدر الإمكان التمسك.

ووالدتى وقفت فى آخر المنضدة عند قدمى المرأة ، تحملق فى السقف وتتمتم بكلمات غريبة. بعدها ذهب والدى إلي المطبخ ، ثم عاد حاملاً مبخرة مملوءة برائحة البخور. و ضفدعاً أخضراً كبيراً، وضعه علي بطن المرأة المنتفضة. ثم مرر البخور من فوق رأسها بسلسلة قصيرة، ونثر مسحوقاً علي جسدها المنتفض.

وقفنا أنا وأخى وراء الباب والخوف يكاد يقتلنا، ونحن نراه يأمر الأرواح الشريرة بالخروج من المرأة لتدخل إلي الضفدعة. فجأة ألقت المرأة برأسها إلي الخلف وصرخت صرخة قوية.

فقفزت الضفدعة واندفعت بسرعة نحو الباب .بدأت المرأة ترفس برجليها بعنف محاولة الإفلات من قبضة الرجلين وهكذا حتي تدحرجت من فوق المنضدة وسقطت علي الأرض سقطة قوية. كان لعابها يسيل ممتزجاً بدمها بعد أن قضمت لسانها وجرحت شفتيها.

فى آخر الأمر بدأت تهدأ حيث جلست بلا حراك. حينئذ أعلن أبى عن شفائها فقام الرجلان بإعطائه مالاً، ومن ثم حملاها عائدين بها وهى فاقدة الوعى. قد شكروا أبى مراراً وتكراراً ودعوه «بصانع المعجزات العظيم».

هذه هى طفولتى المبكرة، المليئة بالخوف والرفض. فالعائلة الكبيرة كانت دائما تعنى بالنسبة لى الاهتمام الفردى القليل بكل واحد منا سواء أنا أو أخوتى.

لقد كنت فى داخلى أرفض أبى وأمى إلي جانب خوفى الشديد من السحر والشعوذة اللذان

كان يمارسان فى منزلنا دائماً وفى كل ليلة.

فى الصيف قبل بدء العام الدراسى حبسنى والدى فى خُم الحمام، فقد ضبطنى وأنا أسرق مالاً من حافظة والدتى. حاولت أن أجرى منه لكنه استطاع الإمساك بى وجذبنى بشدة من خلف رقبتى قائلا: «لا يمكنك الهرب يا صغيرى. عليك أن تدفع ثمن السرقة». «فصرخت فى وجهه أنا أكرهك».

لكنه جذبنى بقوة من علي الأرض وصار يهزنى بشدة مردداً: «سأعلمك كيف تتكلم مع أبيك». وهكذا سار بى بخطوات واسعة نحو المكان المظلم، بيت الحمام. لقد حملنى كسلة من الحبوب تحت ذراعيه ثم فتح قفل الباب صارخاً: «ادخل، ستمكث هنا مع هذه الطيور حتي تتعلم الدرس جيداً».

دفعنى إلي الداخل، ثم أغلق الباب بعنف ورائى تاركا إياى فى ظلام دامس. سمعت صوت القفل وهو يعود إلي مكانه يرافقه صوت أبى المبتعد قادماً من الجدران المشققة يحدثنى: «لن تأخذ عشاءك اليوم»، وهكذا استمر صوت أقدامه يتباعد باتجاه المنزل.

كنت ملآن خوفاً ورعباً، بدأت أضرب بكفى علي الباب وأركله برجلى صارخاً وصائحا. فجأة امتلئ الكوخ بأصوات رفرفة أجنحة الحمام الهائج والمندفع بعنف نحوى. فوضعت يدى علي وجهى، وصرخت بهستيرية شديدة فانطلق الحمام ينقرنى ويهاجمنى من كل جانب بقوة فى رقبتى ووجهى. فارتميت علي الأرض القذرة مغطياً وجهى ورأسى بيدى، محاولاً حماية عينى كى لا أسمع صوت رفرفة أجنحتهما التى كانت تحلق فوقى.

مر هذا الوقت كدهر علىّ، حتي عاد أبى أخيراً وفتح الباب لى وأوقفنى علي قدمى، وقادنى للفناء الخارجى قائلا لى بكل قسوة: «فى المرة القادمة ستتذكر بأن لا تسرق وأن لا تجاوبنى بوقاحة عندما أضبطك، والآن اغتسل واذهب إلي فراشك».

بكيت حتي نمت فى ذلك اليوم ولم أكن أحلم إلا برفرفة أجنحة الحمام العنيفة من حولى، والتى كانت تخبطنى فى جسدى. كبر رفضى لأبى ولأمى عاماً آخر، خاصة عندما بدأت الذهاب إلي المدرسة فى العام الدراسى الجديد.

كرهت كل من هم فى سلطة. وعندما وصلت إلي سن الثامنة تحولت تماماً إلي شخص متمرد علي والدىّ. كان صيف تلك السنة حاراً جداً، وكانت أمى تجلس مع وسيطات أخريات تحتسى القهوة حول تلك المنضدة الطويلة فى غرفة المعيشة. كنت قد مللت اللعب مع أخى، وكرهت

قذف الكرة ومن العودة لتلقيها ثانية .فجأة قالت إحدي الوسيطات لأمى: «ابنك نيكى ولد لطيف جداً ، فهو يشبهك إلي حد كبير، لابد بأنك فخورة به كثيراً».

لكن أمى نظرت إلىّ بغضب وبدأت تنحنى فى كرسيها وتهزه. بعدها لفت عينيها إلي فوق حتي لم أعد أري سوي بياض عينيها فقط. ومدت يدها أمامها علي المنضدة.

وفجأة تصلبت أصابعها وارتعشت، عندها حاولت رفع ذراعها ببطء من علي المنضدة إلي رأسها وبدأت تتكلم بصوت غنائى: « ...لا هذا ليس ابنى. لا ليس نيكى. هو لم يكن لى أبداً، فهو ابن أعظم السحرة. لوسيفير، لا هذا ليس ابنى ... هو ابن إبليس، ابن الشيطان».

سقطت منى الكرة وتدحرجت إلي داخل الغرفة. فعدت ببطء إلي الخلف واستندت علي الحائط، كانت والدتى لا تزال مغشيا عليها وصوتها يعلو تارة وينخفض طوراً ، ثم بدأت تغنى: «لا ليس ابنى ليس هذا ابنى.. فيد لوسيفير هى التى علي حياته.... إصبع الشيطان هى التى تلمس روحه.... علامة الوحش مختومة علي قلبه.... لا ليس هذا ابنى.... ليس ابنى».

راقبتها والدموع تنساب علي وجهها. وفجأة التفتت إلىّ وقالت وهى تحملق فىّ وتصرخ بصوت عالى: «اخرج من هنا أيها الشيطان !اغرب عن وجهى. اذهب عنى يا شيطان اذهب، اذهب، اذهب».

تسمرت فى البداية من شدة الخوف ثم ركضت إلي غرفتى وارتميت علي فراشى. لقد ظلت أفكاراً عديدة تلاحقنى تباعاً مثل الأنهار المتدفقة فى قناة ضيقة. «أنا لست ابنها.... أنا ابن الشيطان.... هى لا تحبنى... لا أحد يهتم، لا أحد يهتم».

وهكذا انسكبت دموعى وبدأت اصرخ وانتحب. كل ما اشعر به هو ألم شديد فى صدرى، يكاد لا يحتمل حتي أنى ظللت أضرب الفراش بيدى حتي تعبت أخيرا.

وبدأت الكراهية القديمة لوالدىّ تملئنى من جديد. وفجأة امتلكت نفسى فكرة قوية كانت كموجة بحر تضرب بعنف شطاً صخرياً. «أه كم أكرهك يا أمى، آه يا الهى كم أنا أكرهها. وأريد أن أؤذيها، و انتقم منها». قمت، فتحت الباب بقوة وخرجت وأنا أجرى وأصرخ متوجهاً إلي غرفة المعيشة حيث كانت الوسيطات لا تزال جالسات مع أمى.

ضربت يدى بقوة علي المنضدة وظللت أصرخ. كنت محبطاً جداً من شدة الكراهية، وكنت ألهث بكلمات لم أكن أستطيع إخراجها بسهولة، كنت أقول: «أنا، أنا.. أنا أكرهك. «ثم رفعت

إصبعى المهتز نحوها صارخا فى وجهها أنا، أنا.. أنا سأجعلك تدفعين الثمن، ستدفعين الثمن».

كان اثنين من أخوتى الصغار واقفين بالقرب من الباب، حين اندفعت بقوة وسطهما إلي الخارج. ثم نزلت السلم التففت وزحفت أسفل الشرفة إلي مكان هادئ مظلم وبارد، كنت قد اعتدت اللجوء إليه سابقاً، هارباً مما كان يضايقنى. وبينما كنت أزحف تحت درجات السلم علي التراب الناعم ترامت إلي سمعى أصوات النساء وهن يضحكن ومن بين أصواتهن استطعت تميز كل شىء صوت أمى يكاد يخترق أرضية المبني وهى تصرخ: «لقد قلت لكم، بأنه ابن الشيطان نفسه».

آه، كم كنت أشعر بالكراهية لها آنذاك! كنت أريد تدميرها لكنى لم أكن أعرف كيف. لقد بدأت أخبط بيدى علي التراب بعنف شاعراً باليأس محبطاً متعباً، كان جسمى كله يرتعش وأنا أصرخ بعويل قائلاً: أنا أكرهك، أكرهك، أكرهك. «لكن لم يسمعنى أو يهتم بى أحد. ومن شدة غضبى ملأت كفىّ من التراب الناعم وقذفته بعنف فى كل اتجاه. حتي استقر علي وجهى أخيراً وتحول إلي طينٍ عندما امتزج بدموعى».

وأخيراً توقفت عن البكاء وجلست صامتاً. فى الجانب الآخر من الفناء حيث كنت أسمع أصوات الأولاد وهم يلعبون .كان أحدهم يغنى أغنيةً عن الفراشات والطيور. لكنى شعرت بالعزلة والوحدة وأنا معذبٌ من الكراهية والاضطهاد وقلبى ممتلئ بالخوف. حينئذ سمعت صوت الباب الخاص ببيت الحمام يغلق كذلك صوت وقع خطوات أقدام أبى الثقيلة تقترب وهو يصعد درجات السلم. توقف للحظة ثم نظر إلى عبر ظلال تشققات السلم الخشبى وقال لى «ما الذى تفعله هنا». لكنى ظللت صامتاً راجياً أن لا يرانى. فأندفع وأغلق الباب وراءه بشدة.

تذكرت فجأة بأنه لا يوجد حقاً من يهتم. لقد كنت أسمع مزيداً من الضحك حيث أنضم أبى إليهم فأمتزج صوت ضحكته العميقة بضحكات الآخرين. كنت أعرف تماماً بأنهم لا يزالوا يضحكون على.

وهنا عادت أمواج الكراهية لتغمرنى من جديد. لقد كانت الدموع تنهمر من عينيى وبدأت أصرخ ثانية: «أنا أكرهك يا أمى، أكرهك، أكرهك». دوي صوتى هذه المرة فى فراغ المنزل السفلى.

وعندما بلغت مشاعرى ذروتها، انهرت تماماً ونمت علي ظهرى فى الطين. كنت قد تمرغت فيه كثيراً حتي كسى جسدى كله. لكن بعد أن أصبت بالإرهاق أغمضت عينيى وبكيت حتي غلبنى النوم.

نظرت حولى فإذ بالشمس قد غربت تماماً عندما استيقظت من نومى. فزحفت وخرجت من تحت السلم. كانت الرمال والأتربة لا تزال بين أسنانى محدثة صريراً. إضافة إلي الطين الذى كان يكسو جسدى كله. وهكذا كنت أسير والضفادع والصراصير تقفز من حولى وأنا أشعر بالندي الرطب والبارد تحت قدمى.

فتح أبى الباب الخلفى فوجدت شعاعاً من الضوء مسلطاً علىّ وأنا واقفاً علي عتبة الباب. فصرخ بى قائلا: «يا خنزير. ما الذى كنت تفعله فى أسفل المنزل كل هذا الوقت؟ أنظر لنفسك، نحن لا نريد خنازير معنا. اذهب واغتسل ثم تعال لتأكل».

أطعت كلامه. ولكنى وأنا اغتسل كنت أدرك تماماً بأنى سأظل أكرههم للأبد. فأنا لن أحب مرة أخري.... أى شخص. لقد قررت يومها بأن لا أبكى ثانية أبداً، فالخوف والكراهية والقذارة هم لأبن الشيطان. وهكذا سارت حياتى.

اعتاد الكثير من أهل بورتوريكو، إرسال أولادهم إلي نيويورك عندما يكون فى استطاعتهم الاعتناء بأنفسهم. فقبل الآن غادر ستة من أخوتى الكبار البلدة مسافرين إلي نيويورك. وكان قد تزوج جميعهم وبدءوا بحياة جديدة هناك.

لكنى كنت أصغرهم جميعاً ولذلك لم أكن قادراً علي الذهاب إلي نيويورك. لكن فى الخمس سنوات التى تلت تلك أدرك والدىّ بأنه لا يجب لى أن أمكث أكثر من هذا فى بورتوريكو. إذ قد أصبحت متمرداً فى المدرسة. فقد كنت دائم الشجار خاصة مع الأطفال الأصغر منى سناً. حتي أنى ذات يوم، أصبت فتاةً صغيرةً بحجر فى رأسها. فوقفتُ ومشاعر الدفء تملئ كيانى وأنا أشاهد منظر الدماء تسيل من رأسها علي شعرها ووجهها .كانت هذه الفتاة تصرخ باكية وأنا واقف هناك أضحك. فى تلك الليلة صفعنى والدى علي وجهى حتي سال الدم من فمى صائحاً فىّ: «دم فى نظير دم».

حينئذ اشتريت مسدساً رشاشاً أستطيع به قتل الطيور. لكنى لم أكن أكتفى بقتلهم فقط بل كنت أتلذذ بالتمثيل فى أجسادهم .كان أخوتى يتجنبونى طبعاً بسب معرفتهم بحبى الغير طبيعى للدم.

عندما كنت فى الصف الثامن تشاجرت مع مدرس حرفة النجارة. كان رجلاً طويلاً ونحيلاً. ويحب مغازلة النساء. ذات يوم دعوته فى الفصل بـ «الزنجى». فجأة ساد الغرفة هدوء شامل وعاد الأولاد إلي الوراء ملتصقين بماكينات الورشة، فى تلك اللحظة شعرت بتوتر فى الجو.

اقترب منى المدرس حيث كنت واقفاً بجانب المخرطة، ثم قال : «أتعلم شيئاً يا غلام؟ أنت

وقح» . فخاطبته بوقاحة أكثر قائلا: «أنا آسف يا زنجى لم أكن أ قصد أن أكون وقحاً معك بهذه الطريقة . وقبل أن أستطيع التحرك صفعنى بقوة بيديه النحيلتين علي وجهى بقوة فشعرت وكأنّ شفتاى قد تحطمت فى أسنانى بهذه الضربة الوحشية .تذوقت الدم المتدفق خارجاً من فمى والمنساب علي ذقنى.

وهكذا بدأت أضربه بكلتا يدى، لكن كيف مع رجل ، وأنا صغير لا أزن أكثر من مئة رطل إلا أنى كنت ممتلئاً كراهية وكان الدم هو الفتيل الذى أشعلنى. فدفعنى بيديه من جبهتى وأمسكنى بقوة وأنا أحاول ضربه بيدى، لكنى كنت أضرب الهواء.

كنت مدركاً لضعفى فى هذا الموقف فتراجعت. فصحت فيه قائلا: «لقد نلت منك يا زنجى فسوف أذهب إلي الشرطة الآن. انتظر وستري». وخرجت أجرى من الفصل خارجاً.

حاول اللحاق بى وهو يقول: «انتظر أنا آسف» لكنى كنت قد اختفيت. لم أذهب إلي الشرطة بل ذهبت إلي والدى لأقول له بأن المدرس كان يحاول قتلى.

فغضب وسار بى إلي المنزل ثم أتي بمسدس كبير، وضعه فى جيبه وقال لى: «هيا بنا لنذهب إليه يا بنى، اليوم سوف أقتل هذا الأخرق».

عدنا ثانية إلي المدرسة. لم أستطع اللحاق بأبى فخطواته واسعة جداً وأنا فقط أجرى خلفه كى أستطيع علي الأقل السير بجانبه. هكذا ظل قلبى يخفق من شدة الإثارة، وأنا أتخيل هذا المدرس الطويل القامة ينكمش خوفاً أمام غضب أبى الشديد.

لكنّ المدرّس لم يكن بالفصل حين عدنا فقال أبى لى: «نتظرنى هنا ,أنا ذاهب لأري المدير ولأعرف حقيقة ما حدث». فخفت وقلقت منتظراً معرفة ما الذى سيحدث، مكث أبى فى غرفة الناظر مدة طويلة وما أن خرج حتي اقترب منى بسرعة وجذبنى من يدى قائلا: «حسنا يا بُنى عليك الآن إعطائى إيضاحا أكبر لما قد حدث هيا بنا لنعود للمنزل».

سرنا متجهين إلي القرية سالكين طريق المنزل. كان طوال الطريق يجذبنى خلفه ماسكاً يدى. وعند وصولنا للمنزل قال لى: «أيها الكاذب القذر». ثم رفع يده ليصفعنى ، لكنى انحنيت وهربت بعيداً عنه. فصرخ بى قائلا: «حسناً، اجرى، اجرى يا صغيرى، فلسوف تعود إلي المنزل وعندها سأصفعك كما أريد».

وبالفعل رجعت لمنزلى، لكن بعد مرور ثلاثة أيام. عندما وجدتنى الشرطة أسير بجانب

الطريق متجها نحو المراعى وسط الجبال.

رجوتهم، لكنهم أعادونى إلي أبى. وهو بالتالى قد وفي بوعده لى. وكنت أعرف بأنى سأترك المنزل ذات يوم وسأجرى بعيداً عنه حتي ابتعد ولن يستطيع أى شخص بعدها إعادتى إلي المنزل مرة أخري، إذ كنت قد هربت خلال السنتين السابقتين خمس مرات. وفى كل مرة كانت الشرطة تعثر على وتعيدنى إلي أبى. لكن أخيراً وبعد أن يأس أبواى منى مررا إرسالى إلي أخى «فرانك» وهكذا بعثوا إليه جواباً يسألونه فيه إن كان بإمكانى الذهاب إليه والعيش معه. فوافق فرانك واستعد الجميع لرحيلى.

فى هذا الصباح صباح رحيلى كان الوقت باكراً عندما اصطف الأولاد لوداعى فى الشرفة الأمامية. حضنتنى أمى وقربتنى إليها كانت الدموع تملئ عينيها وحاولت التكلم ، لكنها لم تنطق بكلمة. وأنا لم أكن أشعر بأى شيء. حملت حقيبتى الصغيرة وتوجهت إلي العربة القديمة حيث كان أبى ينتظرنى ولم انظر أبداً إلي الوراء.

استغرق الطريق منا خمسة وأربعون دقيقة حتي وصلنا إلي مطار سان جوان حيث أعطانى أبى تذكرة الطائرة وألصق بيدى عشرة دولارات. وقال لى: «اطلب فرانك حالما تصل إلي نيويورك، قائد الطائرة سوف يعتنى بك حتي يأتى أخوك ليأخذك».

وهكذا وقف أبى ونظر إلىّ لأكثر من دقيقة وكان أطولاً منى وشعره الرمادى المموج يحركه النسيم الدافئ. من المؤكد بأنه أشفق علىّ حين رآنى صغيراً واقفاً بجانب البوابة حاملاً حقيبة سفرى فى يدى. ارتعش فمه وهو يرفع يده ليلوح لى. وفجأة جذبنى إليه بكلتا يديه إلي حضنه، ومن ثم سمعته يبكى ويقول: «ابنى، ابنى». بعدها تركنى قائلاً لى بسرعة: «كن ولداً مطيعاً يا عصفورى الصغير».

استدرت وابتعدت عنه، ركضت إلي سلم الطائرة ، جلست فى مقعدى بجانب النافذة. أنظر إلي أبى ذلك «الرجل العظيم» وهو وحيد وكئيب ، الواقف بجانب بوابة المطار. رفع يده ليلوح لى ثانية ، لكنه عاد ليتماسك ثم أسرع إلي خارج المطار باتجاه سيارته.

ما هذا الذى قاله لى؟ «عصفورى الصغير». نعم ، أنا أتذكر تلك المرات القليلة التى نادانى بها بهذه الكلمات ، فقد كانت منذ سنوات بعيدة يومها كنت جالساً علي عتبة الباب، ويومها جلس أبى أيضاً علي كرسيه الهزاز ، يدخن سيجاراً فى الشرفة. لقد حكي لى يومذاك قصة طائر صارت أسطورة فى «بورتوريكو» فيما بعد. قال: «لم يكن لهذا الطائر رجلين فقد كانت يعتمد

علي جناحيه فقط» . ثم نظر إلى فى حزن مكملاً حديثه: «هذا أنت يا نيكى ، فأنت قلق دائماً، مثل هذا الطائر الصغير، لن تكون مثل جميعنا أبداً» . ثم هز رأسه ببطء ونظر إلي السماء وهو ينفخ الدخان فوقه نحو نبات الكرمة الذى تدلت عناقيده أعلي سطح الشرفة .

«كان هذا الطائر طائراً ضئيلاً وخفيفاً. فهو لم يكن يزن أكثر من ريشه . كذلك كان يعيش علي ما يلتقطه مما تحمله له الريح .كان ينام أيضاً فى الريح . إذ هو طائر دائم الهرب، يهرب من الصقور والنسور والبوم، ومن كل الطيور التى يمكن أن تصطاده . فيختبئ بينهم بين الهواء والشمس . فإذا ارتفعوا عنه ونظروا للأسفل كانوا يرونه كنقطة فى الأرض المظلمة . وذلك لأنّ أجنحته كانت شفافة مثل الماء المترقرق فى البحيرات. كذلك إن ارتفع هو فى السماء فهم لا يرونه إذ هو لا يهدأ أبدا» .

كان أبى مسترخياً علي كرسيه، يراقب الدخان الأزرق وهو يتلاشي فى الهواء . فسألته: «ولكن كيف يمكنه أن يأكل؟» .

فأجابنى: «هو يأكل ما يتساقط علي أجنحته فقط» . قال هذا ببطء شديد و كأنه رأي هذا المخلوق الضئيل فعلاً ذات يوم . «وهو يصطاد الديدان والفراش . ليس له قائمتين لذا هو دائم الحركة وإلي الأبد» .

كانت هذه القصة قد جذبتنى إلي درجة بعيدة فسألته: «لكن ما الذى كان يحدث له فى العواصف؟» «أو عندما لا تشرق الشمس» «هل كان يستطيع الهرب من أعدائه ؟ كيف؟ » .

«فى العواصف يا نيكى كان يطير فى أعلي ارتفاع له حتي لا يتمكن أحد من رؤيته . والوقت الوحيد الذى يستطيع فيه التوقف عن الطيران هو ذلك الوقت الذى سيتوقف فيه عن الهروب وهذا ستكون له المرة الأولي التى سينزل فيها إلي الأرض وهى عندما يموت . لأنه فى اللحظة التى سيلمس فيها الأرض لن يستطيع الهرب أو الطيران ثانية، لذلك اجرى الآن يا طائرى الصغير وحلق وسينادى أبوك عليك عندما يحين وقت التوقف عن الجرى» .

فركضت وسط الحدائق الخضراء ، فتحت ذراعى مثل الطائر محاولاً التحليق فى السماء . ولكن لسبب ما لم أكن قادراً علي أن أكون سريعاً بشكل أكبر كى أطير .

لكن ها قد تحرك محرك الطائرة أخيراً مدوياً ومخرجاً دخانه الأسود، ليعلن لى عن أنه قد آن الأوان الآن لى للطيران . وأنا كنت فى طريقى لذلك .

توقف الأتوبيس فى المحطة التى ملأتها أنوار كثيرة ساطعة وإعلانات وعلامات متعددة الألوان تارة تطفئ وتارة تضئ. لكن فى داخل الأتوبيس حيث الظلام والبرد وقف أحد الركاب فى الممر، يستعد للرحيل فتبعته إلي الباب الخلفى ونزلت معه. أُغلق الباب من خلفى وتحرك الأتوبيس تاركاً المحطة ، وهكذا تُركت وحدى وسط ثمانية ملايين من البشر.

التقطت بعضاً من الثلج القذر، لكنى مسحت وجهه الخارجى من التراب والوحل فظهر نقياً متلألئاً فى بياضه. كنت أريد أن أضع بعضاً منه فى فمى لآكله لكنى ما نظرت إليه ملياً حتى وجدت بعض النقاط السوداء التى بدأت تظهر علي السطح. أدركت معها بأنّ الهواء كان يحمل الكثير من غبار المداخن الأسود الذى كان يتناثر جاعلاً الثلج يأخذ شكل كعكة الجبن المرشوش بالفلفل الأسود.

لذلك رميت الثلج من يدى مع أن الفرق كان واضحاً بينه وبين ذلك الذى كان يملئ الأرض. لقد أصبحت الآن حرا. فصرت أتجول فى المدينة لمدة يومين. كنت قد وجدت معطفاً قديماً ملقي علي الأرض بجانب صندوق القمامة فى ممر خلفى من ممرات المدينة، فأخذته وارتديته.

كان كبيراً علىّ لدرجة واضحة ، فقد تدلت أكمامه من يدى، كذلك كان طويلا يكاد يغطى كامل قدمى. وكان منزوع الجيوب والأزرار. لكنه كان يدفئنى.

فى الليلة الأولي نمت بمحاذاة طريق جانبى حيث وجدت كرسى، فكورت جسدى عليه ونمت، لكن فى نهاية اليومين لم أعد أشعر بأية إثارة. لقد كنت جائعاً وبرداناً .حاولت مرتين أن أقف لأكلم الناس وأطلب منهم المساعدة. كانت المرة الأولي، عندما هممت بالتحدث مع أحد الرجال فتجاهلنى وسار بعيداً عنى وكأنى لم أكن موجوداً. وفى المرة الثانية قام رجل بدفعى للخلف نحو الحائط قائلاً لى: «أحذر أيها الغلام من أن تلمسنى، إياك وأن تضع يديك الوسختين علىّ». كنت خائفاً والرعب يملأنى. حاولت جاهداً التماسك والسيطرة علي خوفى محاولاً منعه من أن يخرج من جوفى ويصل إلي حنجرتى.

مشيت فى الشوارع طويلاً ، كان معطفى الكبير يتدلي من كلا الجانبين، كنت أحمل حقيبتى الصغيرة بيدى. والناس يسيرون فى الشارع بجانبى وهم ينظرون إلىّ بدهشة ولكن لم يكن أحد يهتم بى. كانوا فقط ينظرون إلىّ ويتابعون سيرهم.

فى هذه الليلة أنفقت العشرة دولارات التى أعطانى إياها أبى. كنت قد توقفت بجانب أحد المطاعم وطلبت من البائع سندوتش سجق، مشيراً إلي الصورة التى كانت موجودة فوق الآلة

الحاسبة القابعة أمامه.

وما أن التهمته حتي أشرت إليه ثانية ليعطينى واحداً آخر. فهز البائع رأسه من وراء الآلة الحاسبة إلىّ بيده ليطالبنى بثمن ما أكلت فوضعت يدى فى جيبى وأعطيته النقود فقدم لى فاتورة الحساب مطبقة وأمسك بالنقود بعد أن مسح يديه بالفوطة. فتح العشر دولارات ونظر إليها مرتين ثم طبقها وضعها فى جيب بنطلونه القذر. بعد ذلك قدم لى السجق مرة أخري مع طبق ملىء بالفلفل الحار. وقبل أن انهى طعامى كان قد اختفي تماماً فى المطبخ.

فأخذت حقيبتى وخرجت ثانية إلي الشارع حيث البرد القارص. كانت هذه هى المرة الأولي فى حياتى والتى أتعامل فيها مع محل تجارى أمريكى. ولذلك لم أكن أعرف بأنّ السجق الأمريكى يكلف خمسة دولارات للسندوتش الواحد.

وأنا أسير فى الشارع توقفت أمام كنيسة ضخمة ، كانت مغلقة بباب حديد كبير أبوابها الأمامية محكمة الإغلاق بسلسلة وقفل من الحديد .وقفت أمام هذا المبني الرمادى الحجرى أنظر إلي تمثال جميل يشير إلي السماء. كان حائط الكنيسة الحجرى والزجاج الذى يعلوه الصدأ يختبأ وراء هذا السياج الحديدى المرتفع. كان وراء السياج أيضاً تمثال لرجل جميل الملامح له وجه مريح ونظرة حزينة تخترق هذا الباب المغلق.

كانت ذراعاه ممتدة إلي الأمام ومغطاة بالثلج. كان محبوساً وراء السياج وأنا محبوساً خارجاً. جررت رجلى وسرت فى الشارع وأنا أتحرك ببطء شديد، كان الألم يعاودنى بين فترة وأخري. وكان الوقت يقترب من منتصف الليل تقريباً عندما كنت أرتعش ليس فقط من البرد ولكن من الخوف أيضاً .كنت أفكر هل يمكن أن يتوقف أحد المارة ليسألنى إن كنت أحتاج لمساعدة أم لا. حتي وإن عرض علىّ أحدهم المساعدة، لم أكن أعرف بماذا سأجيبه.

وهكذا كنت وحيداً وخائفاً وأشعر بالضياع، وكان المارة يتحركون بسرعة من حولى. لم أكن أعرف بأنه من الممكن أن يوجد إنسان يشعر بالوحدة وسط ملايين من البشر .فبالنسبة لى كانت الوحدة تعنى الضياع وسط غابة أو صحراء شاسعة، لكن كان الضياع وهذه الوحدة هى من أسوء ما شعرت به من وحدة فى حياتى.

رأيت أناساً يرتدون أفضل الأزياء ، عائدون من المسرح إلي منازلهم..... كذلك رأيت رجلاً عجوزاً يبيع القليل من الجرائد والفاكهة طوال الليل.... إضافة إلي رجلين من الشرطة كان يقومان بالدوريات بعمل دوريات منتظمة... كانت الأرصفة ممتلئة بالناس الرائحة والغادية

ذهاباً وإياباً. ولكنى عندما كنت أنظر إلي وجوههم كنت أشعر أيضاً بتلك الوحدة التى يعانون منها. لم يكن أحد يضحك أو حتي يبتسم، كان الكل فى عجلة من أمره.

جلست علي حاجز حجرى ورائى، فتحت حقيبتى حيث كنت قد وضعت بها ورقة صغيرة ملفوفة، كتب فيها رقم أخى فرانك بخط أمى. وفجأة شعرت بخيال قادم من خلفى نظرت إلي الوراء فإذا به كلب صغير أشعث يقف ورائى يتشمم رائحة معطفى الكبير المحتوى لجسدى الصغير .فوضعت يدى حول رقبته وجذبته نحوى. فبدأ يلعق وجهى ويدىّ، وأنا أحاول تخبئة رأسى فى شعره الأجرب.

لم أكن أعلم كم قضيت من الوقت وأنا أرتجف من البرد وأحتضن ذلك الكلب. ولكن عندما رفعت رأسى حتي رأيت أقدام رجلى الشرطة، كان جلد أحذيتهم مبللاً وقذراً، شعر الكلب بالخطر فهرب بعيداً فى الزقاق.

وكزنى واحد من الرجلين بعصاه فى كتفى قائلا: «ماذا تفعل هنا فى منتصف الليل؟» كان وجهه بعيداً عنى مئات الأميال. حاولت بكل قوتى أن أشرح له بلغتى الإنجليزية الضعيفة بأنى كنت تائهاً. لكنه همهم ببعض الكلمات إلي صديقه الآخر، ثم تركنى ومضي بعيداً عنى. ركع الآخر بجانبى علي الرصيف المتسخ قائلا لى: «هل أستطيع مساعدتك يا فتي؟».

فأومأت إليه برأسى وأعطيته الورقة الصغيرة التى بها رقم فرانك. وقلت: «إنه أخى». فهز رأسه وهو ينظر إلي الورقة وسألنى: «هل تعيش فى هذا العنوان أيها الفتي؟»

فلم أعرف كيف أجاوبه وقلت له: «إنه أخى». فهز رأسه ، أوقفنى علي قدمى وسار بى إلي كابينة التليفون الكامنة وراء مسندٍ للجرائد. ظل يبحث طويلاً عن أى عملة فى جيبه حتي يتمكن من استخدم الهاتف ثم طلب الرقم. وعندما رفع فرانك سماعة التليفون كان واضحاً بأنه كان نائما، أعطانى الشرطى السماعة وفى أقل من ساعة كنت أجلس آمناً فى منزل فرانك.

كانت الشوربة ساخنة ولذيذة والسرير نظيف وجميل. فى الصباح الباكر قال لى فرانك بأنه على أن أمكث معه وهو سيرعانى وسيبحث لى عن مدرسة. ولكن شيئاً ما كان فى قلبى يحدثنى بأنى لن أبقى معه أبداً .لقد بدأت سلسلة الهروب والجرى وعلي ما يبدو لن يكون هناك من يستطيع إيقافى.

الفصل الثانى
غابة السبورات

مكثت مع فرانك مدة شهرين محاولاً تعلم اللغة الإنجليزية، ولكنى لم أكن سعيداً فقد كان داخلى مليئاً بالصراعات التى كانت تجذبنى بعيداً عن الدراسة.

ألحقنى فرانك منذ الأسبوع الأول بالصف العاشر، كانت المدرسة مليئة بالزنوج وأبناء «بورتوريكو» لذلك كانت أقرب إلي الإصلاحية من كونها مدرسة حكومية .فقد كان المدرسون والنظّار يمضون معظم وقتهم فى الحفاظ علي الانضباط وليس علي التعليم .فالمكان هنا كان يرحب بكل أنواع المشاجرات والأعمال المنافية للأخلاق، إضافة إلي التمرد الدائم علي السلطة.

لقد كان فى كل مدرسة ثانوية فى مدينة «بروكلين» ممثلين عن عصابتين أو أكثر من عصابات الشوارع. كل هذه العصابات كانت تتشكل من أولاد وبنات يسكنون فى مناطق معينة.

وكثيراً ما كانت هذه العصابات تكن لبعضها العداء ، لذا كانت تقوم بينهم مشاجرات عديدة خاصة فى حال وضعوا فى فصل واحد.

هذه المدرسة كانت بمثابة تجربة جديدة بالنسبة لى .إذ كنت أشهد فى اليوم الواحد عدة مشاجرات فى الطرقات بين الفصول أو فى الفصول نفسها، حيث كنت أتقهقر إلي الوراء وألتصق بجانب الحائط لئلا يضربنى أحدهم . وعادة ما كانت تقوم أغلب المشاجرات بعد انتهاء اليوم الدراسى فى فناء المدرسة، حيث كانت تنتج دائماً شخصاً جريحاً علي الأقل .كانوا أحياناً يتركونه ينزف حتي الموت وحيداً بلا أية مساعدة. لذلك كان فرانك يحذرنى دائماً من السير فى الطريق ليلاً قائلا: «العصابات يا نيكى كثيرة هنا ، هم يستطيعون قتلك بسهولة فهم مثل الذئاب التى تجرى فى الظلام باحثة عن أى غريب فى الشوارع لتقتله».

أيضاً يشجعنى علي العودة إلي المنزل مباشرة بعد الانتهاء من المدرسة والبقاء فى المنزل بعيداً عن هذه العصابات .بعد ذلك اكتشفت بأنه ليس فقط العصابات هى التى يجب أن أهابها،

لكن على أيضاً الحذر من «الأولاد الصغار» لذين تتراوح أعمارهم بين التسع و العشر سنوات. فهم يجوبون الشوارع من بعد الظهيرة حتي المساء. أو قد يلعبون أمام مساكنهم العشوائية.

خلال هذا الأسبوع اختبرت لأول مرة معني التعرض لهؤلاء الصغار. فقد كنت عائداً إلي منزلى بعد المدرسة حيث تدفقت علىّ فجأة ومن حيث لا أدرى، من باب جانبى عصابة تتكون من عشرة أولاد تتراوح أعمارهم بين ثمانية إلي عشر سنوات.

اعترضت هذه العصابة طريقى، فقلت لهم: «ها، حسناً، أيها أولاد انتبهوا إلي ما تفعلونه». فرد علىّ واحد منهم قائلا: «اذهب إلي الجحيم».

ثم زحف ولد آخر من خلفى، وقبل أن أدرك كنت قد ارتميت علي ظهرى فى الأرض علي جانب الطريق. حاولت الوقوف لكن ولداً آخر أمسكنى من رجلىّ وبدأ يجرنى. كانوا يصيحون ويضحكون معظم الوقت. حينئذ فقدت السيطرة علي أعصابى وأمسكت بأحدهم وضربته حتي وقع علي الأرض .وفجأة سمعت امرأة تصرخ فوقى فنظرت إليها ورأيتها تتدلي من الشرفة التى ترتفع بمسافة طابقين وقالت لى: «ابتعد عن ابنى أيها القذر وإلا سأقتلك».

فى تلك اللحظة بالذات لم أكن أرغب إلا فى شيء واحد وهو الابتعاد عن ابنها هذا. ولكن للأسف التف حولى بقية الأولاد ورمانى أحدهم بزجاجة كوكاكولا ، فارتطمت بطرف كتفى وانسكبت علي وجهى كله.

ظلت المرأة تصرخ بأعلي صوتها قائلة: «اترك أولادى وأذهب، النجدة، النجدة إنه سيقتل طفلى». وفجأة ظهرت امرأة أخري تحمل بيدها عصا كبيرة. كان جسدها ممتلئاً جداً، تتأرجح وهى تجرى. كانت علامات الشر مرسومة علي وجهها بطريقة لم أعهدها من قبل.

دخلت هذه المرأة وسط عصابة الأولاد وهى تلوح بالعصا التى بيدها فحاولت الهرب منها إلا أنها ضربتنى بها علي ظهرى. فالتفت لأنظر إليها فضربتنى ثانية علي رأسى. كانت المرأة الأولي لا تزال تصرخ فنظرت ورأيت نساءً أخريات يقفن فى شرفاتهن يستغثن ويطلبن الشرطة. عادت فضربتنى هذه المرأة للمرة الثالثة، قبل أن أستطيع الهرب منها. وسمعتها تصرخ و تصيح: «إن اقتربت من هؤلاء الأولاد ثانية فسأقتلك».

فى مساء اليوم التالى عدت من المدرسة مستخدماً طريقاً آخر. لكن بعد أسبوع كانت لى نفس الخبرة مع عصابة أخري .ففى يوم كنت عائداً فيه من المدرسة أتلكئ فى المسير، شاهدت رجلاً

يحمل ببغاءً تتكلم فوقفت لأشاهده . كنت أرقص حوله وأضحك وأتكلم معه، لكنه سكت فجأة وأمسك بالببغاء نحو صدره واستدار وذهب بعيداً عنى . فالتفت فإذا بعصابة تتألف من خمسة عشر رجل واقفين حولى مشكلين نصف دائرة .لم يكونوا من الأولاد الصغار بل كانوا رجالاً ومعظمهم يكبرنى سنا .

قال أحدهم: «حسنا أيها الولد ما الذى تضحك عليه؟» فأشرت إلي الببغاء والرجل الذى كان يهرول خارج الحديقة . وقلت: «كنت أضحك علي هذا الطائر المجنون» .

فسألنى أحدهم بسخرية، حقاً، هل تعيش بالقرب من هذا المكان؟

أحسست فى داخلى بأنَ شيئاً ما غريباً قد يحدث، فبدأت أتلعثم فى الكلام وقلت: «أنا، أنا ..أنا أعيش مع أخى فى آخر الشارع» .

فقال: «هل تظن بأنه ولأنك تعيش فى نهاية الشارع لك الحق فى أن تدخل حديقتنا وتضحك هكذا كالمعتوه ؟ ها؟ هل هذا ما تعتقده ؟ ألا تعرف أنها منطقة نفوذنا؟ يا غلام ألا تعرف بأننا لا نسمح للغرباء بالدخول إلي منطقتنا هذه . وخاصة من هم مثلك أيها المعتوه» .

نظرت حولى وعلمت بأنهم سيفعلون ما هو أخطر ، وبالفعل فقبل حتي أن أجيبهم علي السؤال أخرج رجل منهم تملأ وجهه نظرات السخرية مطواة ، وبلمسة صغيرة من يديه فتحت وخرج منها سكين حاد طوله حوالى سبعة سنتيمترات .

ثم قال لى: «أتعلم ماالذى سأفعله بك ؟ سأقطع رقبتك هذه وسأتركك تنزف مثل الحيوان الذى تشبهه» . فجاوبته وأنا أتلعثم قائلا: «حقا، يا رجل؟ ما الذى حدث لك؟ كيف تجرؤ أن تقتلنى هكذا؟»

فأجابنى: «لأنى لا أحب نظرتك هذا هو السبب» . ثم وجه السكين إلي بطنى وحاول أن يطعننى .

فأوقفه آخر قائلا له: «إن هذا الفتي قد جاء لتوه من «بورتوريكو» . لذا فهو لا يعلم ماذا يحدث هنا» .

فأبتعد عنى حينئذ وقال بسخرية: «حقا !إذا سيعلم خلال هذه الأيام ما الذى يحدث هنا . ومن الأفضل له أن يبتعد عن منطقتنا هذه» .

تركتنى العصابة أخيراً، فأسرعت إلي المنزل وأمضيت الليل كله أفكر .ثم ذهبت فى اليوم التالى إلى المدرسة، فوجدت بأن معظم الأولاد كانوا قد علموا بما سبق وأن حدث فى الحديقة فى الليلة الماضية .علمت كذلك بأنّ الولد الذى كان يكلمنى بسخرية يدعي « روبرتو» .

لذلك فبعد ظهر هذا اليوم وأثناء حصة الألعاب الرياضية، كنا نلعب البيسبول فجأة جاء إلى روبرتو وطرحنى أرضاً، فسمعت بقية الأولاد يصرخون اضربه يا نيكى اضربه اطرحه أرضا أنت تستطيع أن تنتصر عليه اجعله يري إمكانياته الحقيقية فهو لا يملك سكيناً .هيا يا نيكى هيا سنساندك .اضربه.. اضربه.

نهضت ونفضت عنى التراب وقلت له: «حسنا لنري مدي قوة قبضتك» .

وهكذا وقف الأولاد حولنا كدائرة ونحن نواجه بعضنا البعض. أسمع صياحهم اضربه ... اضربه. فى كل لحظة كان عدد المتفرجين يتزايد من حولى.

عندما رفعت يدى أمام وجهى مستعداً لملاكمته فوجئ « روبرتو » قد سبق لى وتعلمت دروساً فى الملاكمة التقليدية. فض من أمامى ثم رفع يده أمامه بطريقة غريبة. كان واضحاً بأنه لم يكن معتاداً علي المشاجرة بهذه الطريقة. ترقصت حوله متجهاً لملاكمته ودون أن يدرى لكمته فى وجهه بقبضتى الشمال. فنزف من أنفه وتراجع وهو ينظر إلىّ بدهشة فاقتربت منه أكثر.لكنه فجأة خفض رأسه واندفع نحوى وطرحنى أرضاً. حاولت الوقوف ولكنه لكمنى بحذائه إلي الأرض.تمرغت علي الأرض فانقض علي ظهرى وجذب رأسى إلي الخلف ووضع أصابعه بعينى.

ظننت أن بقية الأولاد سينضمون إلى ويساعدونى و لكنهم ظلوا واقفين فى أماكنهم يصيحون. ولم أكن أعلم كيف أتشاجر بهذه الطريقة فكل مشاجراتى كانت طبقاً لقواعد الملاكمة. ولكنى كنت أشعر بأن هذا الفتى سوف يقتلنى إذا لم أفعل شيئا. لذا قمت وجذبت يديه بعيداً عن عينى وأمسكت أصابعه بأسنانى فصرخ وتدحرج من علي ظهرى متألماً.

فقفزت علي رجلى واستعديت إلي جولة أخري من الملاكمة . وقام هو من علي الأرض ببطء حاملاً يديه المجروحتين. تحركت نحوه ولكمته مرتين على جانب من وجهه. تألم كثيراً فتحركت وضربته ثانية عندما كان يحاول الإمساك بى من وسطى ويحاول لوى ذراعى جانباً استخدم رأسه وضربنى مرتين مثل المطرقة المدببة. فنزفت من أنفى ولم أعد أستطيع الرؤية من شدة الألم .أخيراً تركنى وضربنى بقبضته مرتين حتي سقطت تماماً علي أرض الفناء فى المدرسة .شعرت به وهو يركلنى لآخر مرة قبل أن تأتى إدارة المدرسة وتجذبه بعيداً عنى.

فى هذه الليلة ذهبت إلي المنزل فصرخ فىّ فرانك قائلا: «سوف يقتلونك يا نيكى. لقد قلت لك بأن تبتعد عن هؤلاء. صدقنى سوف يقتلونك». كان وجهى مجروحاً كثيراً وكنت أشعر بأن أنفى قد انكسر. ولكنى قررت فى هذا اليوم بأنى لن أدع أحد يغلبنى بعد الآن. لسوف أتشاجر بنفس الأساليب القذرة التى كانوا يستخدمونها بل وأكثر. فى المرة القادمة سأكون مستعداً لذلك.

عيدت هذه المرة بعد عدة أسابيع. كان ذلك بعد انتهاء اليوم الدراسى حيث كنت أمشى فى ممر المدرسة متوجها إلي الباب. وكنت أعلم بأنّ بعض الأولاد كانوا يتبعونى. فنظرت بطرف عينى ورائى فوجدت خمسة أولاد زنوج وفتاة. وكنت قد علمت بمشاجرة كانت بين أولاد من برتوريكان وبعض الزنوج. فسرت بأقصي سرعة ولكنى شعرت بهم وهم يسرعون أيضاً

وعندما كنت متوجهاً نحو الباب الخارجى بدأت أسير فى ممر أخرجنى إلي الشارع. حينئذ تشابك معى بعض الأولاد الملونين وكان واحد منهم ولد ضخم صفعنى علي وجهى فدفعت نحو الحائط. وقعت من يدى الكتب جاء ولد آخر وقذفهم بعيداً عنى فى ممر جانبى إلي الخارج حيث كانت هناك بركة مياه قذرة.

نظرت حولى ولم أجد أحداً استنجد به. فسألنى الولد الضخم: « ماذا تفعل فى منطقتنا؟ » «ألا تعلم بأن هذه هى منطقة نفوذنا؟»

«ألا تعلم أيها الفتي بأن هذه المدرسة الثانوية هى منطقة نفوذ أيضاً».

« هذه المنطقة لا تنتمى إلي أية عصابة، هكذا قلت لهم ».

« لا تتذاكى معى أيها الغلام و أنا لا أحبك ».ثم وضع يده علي صدرى ودفعنى إلي الحائط. وحينئذ سمعت « صوت معدنى حاد » وأدركت بأنه صوت مطواة.

كان كل المراهقين تقريبا يحملون السكاكين وبشكل خاص كانوا يفضلون المطواة. كانت السكين تحتوى علي طرف حاد .فما أن يضغطوا علي زر موجود بجانب السكين يخرج منه نصل حاد يستقر فى مكانه.

كان الولد الكبير بالقرب منى موجهاً طرف السكين الحاد نحو صدرى قاطعا أزر ر قميصى واحداً بعد الآخر.

قال لى: «هل تعلم ما الذى سأفعله معك أيها الولد الذكى. فأنت جديد فى هذه المدرسة ولأننا نجبر كل المستجدين الحصول علي حماية لأنفسهم فبالتالى عليك أن تشتريها منّا .فهذه صفقة

ناجحة. فأدفع لنا خمسة وعشرون سنتا فى اليوم وسوف تتأكد من أنه لا يمسك أحدك».

فضحك واحد منهم نصف ضحكة مجنونة وقال: «نعم، بالطبع وسوف تتأكد بأنه لن يؤذيك أحد منا أيضاً». فضحك باقى الأولاد.

فقلت: «حسنا،وما الذى يضمن لى بأننى بعد أن أعطيكم الخمسة وعشرون سنتا أن لا تتعرضوا لى بعد ذلك؟»

فجاوبنى قائلا: «لا يوجد برهان علي ذلك يا ذكى. فسوف تعطينا هذا المال فى كل الأحوال. وإذا لم تفعل فسوف نقتلك».

فقلت لهم: «حسنا يا رجل، أدركت بأنه عليك أن تقتلنى الآن .لأنك إن لم تفعل هذا فسوف أرجع إليكم وأقتلكم جميعاً». وهنا لاحظت بأن باقى الأولاد قد بدءوا يخافون. ظن الولد الذى كان يوجه السكين نحو صدرى بأنى استخدم يدى اليمني. لذا لم يخطر بباله بأنى أستطيع إمساكه بيدى الشمال. فلويت يده من فوق صدرى إلي خلف ظهره.

فوقع السكين من يده فأخذته من علي الأرض .كان شعوراً قد بدأ يمتلكنى وهى فى يدى. فوضعت طرف السكين الحاد فى رقبته وأنا اضغط دون أن أصيبه.ثم دفعته نحو الحائط وأنا أغرز السكين فى طرف رقبته تحت أذنه قليلاً.. بدأت الفتاة تصرخ خائفة من أن أقتله. فالتفت إليها وقلت لها، «يا جميلتى، أنا أعرفك، وأعرف أين تعيشين، لذلك سآتى الليلة إلي منزلك وسأقتلك. ما رأيك فى هذا؟»

صرخت بأعلي صوتها وأمسكت أحد الأولاد الآخرين ودفعتهم بعيداً قائلة: «اجروا ,اجروا, هذا الولد مجنون. اهربوا»!

فركضوا كلهم ومعهم أيضا الولد الكبير الذى كنت قد دفعته نحو الحائط .فتركته يهرب وأنا أعلم جيداً بأنه كان من الممكن لهم أن يقتلونى إذا حاولوا.

سرت نحو المكان الذى كانت كتبى ملقاة فيه فرفعتها من الأرض ومسحت الماء من عليها. كانت السكين لا تزال بيدى. فوقفت هناك لفترة طويلة أفتح وأغلق المطواة. كانت هذه أول مطواة أحملها فى حياتى. أحببت شعور الإمساك بها ثم وضعتها فى جيب سترتى ورجعت إلي المنزل. وفكرت بأنه من الآن فصاعداً يجب أن يفكروا مائة مرة قبل أن يتعرضوا لى ثانية، أنا نيكى.

وصدرت منى قرار يومها بأننى يجب أن أكون مرهباً منذ ذلك الحين مما قد يعدنى نفسياً لمواجهة أى شخص يحاول التعرض لى. وفجأة أدركت بأنها مسالة وقت إلي أن تحدث مأساة أخري. لكنى كنت مستعداً لمواجهتها بغض النظر عن ما سوف يحدث.

وقد حدث الانفجار الأخير بعد شهرين من وجودى فى المدرسة. كانت المدرّسة تحاول ترتيب الفصل وتنادى علي كل واحد باسمه. فتأخر صبى زنجى عن الفصل. دخل وهو يترنح ويضحك. كانت هناك فتاة من «بورتوريكو» جالسة فى آخر الفصل. انحني نحوها وقبلها فى رقبتها.

فابتعدت عنه وجلست منتصبة علي مكتبها. فظل يراودها محاولاً تقبيلها فى فمها فى الوقت الذى كان يمسك فيه بصدرها، فقفزت من كرسيها وبدأت تصرخ.

كان بقية الأولاد فى الفصل يضحكون ويصيحون، «هيا قبلها يا فتى قبلها».

نظرت إلي المدرّسة التى بدأت تسير باتجاه الممر،لكن اعترض طريقها أحد الأولاد الكبار وقال: «والآن أيتها المدرّسة أنت لا تريدين حقاً أن تفسدى علينا هذه الإثارة أليس كذلك؟» فنظرت إليه المدرّسة حيث كان أطول منها بكثير ثم عادت إلي الخلف وجلست علي مكتبها وكان الفصل كله مملوءا بالإثارة مما يحدث.

فى هذا الوقت الصق الولد الفتاة بالحائط وهو يجرى يده علي جسدها كله محاولا تقبيلها. والفتاة كانت تصرخ محاولة إبعاده عنها.

وأخيراً يأس منها وجلس فى كرسيه قائلا: «لا أريد المحاربة من أجل هذا الأمر .فسوف أنال منك الليلة وسوف تترجى منى أن أعاود الكرّة معك مرة ثانية».

ولكنى لا أريد أن أراك هنا فى هذه المدرسة مرة أخري. لا يعنينى إلي أين تذهب، اذهب للجحيم ولكن لا تدعنى أري وجهك هنا مرة أخري. أفهمت؟ أريدك أن تغادر هذا المكان جرياً ولا تتوقف حتي تختفى عن نظرى تماماً

فهمت وغادرت المكان ..... جرياً.

الفصل الثالث

وحـــــدى

الحياة التى تحركها الكراهية والخوف ليس لها مكان سوي فى النفس. بت أكره كل الناس حتي فرانك أخى. فهو الآن يمثل بالنسبة لى السلطة التى طالما كرهتها. وعندما بدأ فى مناقشتى عن أسباب تأخرى ليلاً وعدم ذهابى إلي المدرسة قررت فى داخلى بأن أترك له المنزل.

«نيكى»، نيويورك هذه هى بمثابة غابة كبيرة. فكل الناس الذين يعيشون هنا يعيشون طبقاً لقانون الغابة. إذ البقاء دائماً للأقوي. فأنت لا تعلم شيئا يا نيكى عن هذه الحياة. أنا عشت هنا خمس سنوات وأعرف أموراً كثيرة لا تعرفها أنت. فالمكان هنا مكتظ بالعاهرات والقتلة وتجار المخدرات ومدمنى الكحول. وهؤلاء موجودين بالخارج ويمكنهم قتلك. ولن يكتشف أحد موتك إلا إذا تعثر فى جسدك المتعفن الذى غطاه الرماد شخص مخمور منهم.

كان فرانك على حق ولكنى لم أعد أستطيع البقاء معه أكثر من ذلك .فقد أصر علي عودتى إلي المدرسة وأنا أعلم جيداً بأنه على الآن اتخاذ طريقى الخاص.

«نيكى لا أستطيع أن أجبرك علي العودة إلي المدرسة، ولكن إذا لم تعد إليها فستفقد مستقبلك».

فقلت له: «ولكن الناظر طردنى، وقال لى أن لا أعود إليها ثانية».

فقال: «أنا لا يهمنى ما قاله لك الناظر، يجب عليك أن تعاود الانتظام فى أى مدرسة أخري إذا أردت فعلاً البقاء معى».

«إن كنت تعتقد بأنك بإمكانك إجبارى علي الذهاب للمدرسة فأنت مجنون، فلا تحاول .وإذا ما حاولت فسوف أقتلك».

«نيكى أنت أخى وما تقوله سأعتبره هذياناً. أمى وأبى أوصونى أن أرعاك. وأنا لن أسمح لك بأن تكلمنى هكذا. فإما أن تذهب إلي المدرسة أو تترك المنزل .هيا اهرب إذا كنت تريد ذلك.

ولكنك ستعود لأنه لا يوجد لديك مكان آخر تذهب إليه. لكنك إن أردت البقاء فستذهب إلي المدرسة وهذا كلامى النهائى معك».

حدثت هذه المناقشة صباح يوم الجمعة قبل أن يذهب فرانك إلي عمله .فى ذلك المساء تركت له رسالة قصيرة علي المنضدة فى المطبخ قائلاً له: «بأن بعض أصدقائى دعونى لأمكث معهم أسبوعاً». فى الحقيقة لم يكن لدى أى أصدقاء ولكنى لم أعد أستطيع البقاء مع فرانك أكثر من ذلك.

لذلك بقيت أتجول الليل كله فى حى «بيدفورد ستايفيسانت» فى بروكلين باحثاً عن مكان يأوينى. توجهت إلي مجموعة من الشباب كانوا واقفين فى زاوية الشارع ، قلت لهم: «هل يعرف أحدكم أين أستطيع أن أجد غرفة أمكث فيها».

نظر إلىّ أحدهم، كان يدخن سيجاراً. فنفث دخانه قائلا: «نعم» كان يشير بإصبعه من فوق كتفه فى اتجاه «مدرسة بروكلين الفنية الثانوية» «سوف تجد هناك رجلاً عجوزاً هو المسئول عن الشقق التى تراها عبر الشارع، تكلم معه وهو سيوفر لك مكاناً لتعيش فيه .ها هو هناك جالساً علي السلم يلعب الكوتشينة مع الشباب، فهو هذا الشخص المخمور هناك، فضحك باقى الأولاد.

وكان هذا الشاب صادقاً لكن الشقة التى أرشدنى إليها ذلك الرجل كانت تقع فى مكان يدعي «فت -جرين» وهو يوجد فى قلب إحدي أكبر المشاريع السكنية فى العالم. إذ أنّ أكثر من ثلاثين ألف شخص يعيشون فى هذه الأبراج السكنية، معظمهم من الزنوج و«لبرتوريكان». فمشروع «فت -جرين» يمتد من «بارك أفينو» إلي « لافييت أفينو» ويحيط بحديقة واشنطن الكبيرة.

توجهت إلي الرجال الجالسين فى الشارع ، وسألتهم عن المسئول منهم عن مكان لأسكن فيه. فنظر إلى وقال، «نعم، عندى مسكن لك .لماذا؟ »

فترددت بعض الوقت ثم قلت: «فى الحقيقة أنا أريد مكاناً أعيش فيه».

فسألنى وهو يقذف من فمه عصارة التبغ عند قدمىّ: «هل معك خمسون دولاراً؟»

فقلت له: «فى الحقيقة ليس معى الآن ولكن... ».

فقاطعنى قائلا: «إذا ليس لدىَ أية شقق سكنية لك». وعاد إلي لعب الورق ولم ينظر حتي إلي بقية الرجال».

فتوسلت إليه قائلاً: «ولكن ليس لدى كل هذا المال الآن».

فقال لى: «انظر يا فتي عندما تعطينى الخمسون دولاراً مقدماً، عندئذ سأجهز لك الغرفة. فأنا لا يهمنى كيف ستأتى بها. أسرق أى من السيدات العجائز إن أردت. ولكن ابتعد عنى الآن لأنك تضايقنى وعد عندما تستطيع أن تأتى بالمال لى».

فعدت أتجول فى لافييت وعبرت «بابا جون وبيت هاريس للحوم، وباراديس بار، وشيرى اسكوير، وفالا بار ولينكولن رندفوا». ثم توقفت قليلاً بجانب آخر مكان ثم انحدرت إلي زقاق جانبى أفكر وأسأل نفسى: كيف لى أن أحصل علي المال؟

كنت أعلم جيداً بأنى إن حاولت سرقة أحد ما وقبض على فسوف ألقي فى السجن. ولكنى كنت قد قلت لفرانك بأنى لن أعود قبل أسبوع. والغرفة ستكلفنى أموالاً كثيرة وأنا لم أكن املك حتي قرشاً واحداً. كانت الساعة قد بدأت تقترب من العاشرة ورياح الشتاء تشتد برودة من حولى. فانكمشت فى ظلال الزقاق وبقيت أشاهد الناس وهم يتحركون ذهاباً وإياباً علي رصيف للمشاة أمامى. جذبت من جيبى المطواة وضغط علي الزر ففتحت بسهولة. وضغط بطرف السكين علي كف يدى .كانت يداى ترتجفان وأنا أفكر كيف سأقوم بالسرقة لأول مرة فى حياتى. هل سيكون من الأفضل لى أن أقودهم إلي الزقاق؟ أم أذهب لأطعن أحدهم؟ هل أخيفهم فقط؟ ماذا لو صاحوا؟

قوطعت أفكارى باثنين كانوا يتحادثون داخل الزقاق .فقد أوقف رجل مخمور شاباً صغيراً كان يحمل حقيبة مشتريات كبيرة. وبدأ يتوسل إليه كى يعطيه بعض المال ليحتسى به القهوة. بقيت صامتاً فى مكانى وأنا أنصت للشاب الصغير وهو يبتعد عن طريق الرجل المخمور ويؤكد له بأنه لا يملك أية أموال.

ثم خطرت بذهنى فكرة ، من الممكن بأن جيب هذا الرجل العجوز ملىء بالمال . فهو دائم التسول والسرقة. وفكرت بأنى إن قمت بسرقته فهو لن يستطيع حتي التفكير فى طلب النجدة ولو فى الصباح لذلك قلت لنفسى: عندما يبتعد هذا الشاب سوف اجذبه إلي داخل الزقاق وآخذ منه المال.

كان الشاب قد وضع حقيبة مشترياته علي الرصيف. ليبحث فى جيبه عن أى عملة يمكن أن يعطيها للرجل العجوز. والرجل العجوز يغمغم ويمشى بعيداً.

«اللعنة» ـ هكذا قلت لنفسى «والآن ماذا سأفعل؟»

حينئذ أخذ الشاب حقيبة مشترياته ومشي فى طريقه .فسقطت منه تفاحتان علي الرصيف.

فركع ليأخذهم فاندفعت إليه وجذبته بقوة إلي الحائط فى الزقاق. وكان كل منا مرتعب من الآخر ولكنى كنت أتميز عنه بعنصر المفاجأة. صار يرتعب بشدة عندما رفعت المطواة أمام وجهه.

«أنا لا أريد أن أؤذيك ولكنى أريد مالا فقط، أنا يائس، أعطنى إياه الآن. بسرعة.. هيا.. كل ما لديك قبل أن أقتلك .كانت يداى ترتجفان بشدة فقد كنت خائفاً من أن تقع المطواة من يدى».

فتوسل إلىّ قائلاً: «أرجوك. خذ كل ما لى، لكن لا تقتلنى، أرجوك». ثم أخرج حافظته وكان يحاول أن يسلمها لى، فوقعت منه علي الأرض فرفستها إلي أسفل الزقاق. صحت فيه «أغرب عن وجهى بسرعة». «اهرب أيها الرجل اهرب فإذا توقفت عن الجرى لمسافة مبنيين قد تصبح رجلاً ميتاً».

فنظر إلى بعينيه الممتلئتين رعباً، وبدأ يجرى. فقفز من علي حقيبة مشترياته وجري مهرولا علي الرصيف إلي خارج الزقاق. ثم عاد ووقف قليلاً ثم عاود الجرى مرة أخري وهو يلهث يقف قليلاً ويجرى قليلاً علي الرصيف. وما أن وصل هو إلي نهاية الشارع حتي أسرعت أنا آخذاً المحفظة من علي الأرض ثم عدوت بسرعة إلي داخل الزقاق.

وعندما وصلت إلي حديقة «دى كالب» فى الظلام الدامس قفزت من فوق السلسلة التى كانت علي السياج المحيط بالحديقة وهرولت فوق العشب الأخضر إلي الأشجار. فجثمت هناك خلف جسر لآخذ أنفاسى وأهدأ قليلاً .فتحت الحافظة فوجدت تسعة عشر دولاراً. كان شعوراً جميلا قد بدأ يتدفق إلى وأنا أحمل أوراق النقود بيدى. ألقيت الحافظة بعيداً عنى فى العشب الأخضر وبدأت أعد المال مرة أخرى قبل أن أضعه فى جيبى.

«ليس سيئا» هكذا كنت أفكر. فالعصابات تقتل المتشردين من أجل أقل من دولار ولكنى حصلت علي تسعة عشر دولاراً فى أول تجربة لى. إذاً لن يكون الأمر صعبا بعد الآن.

«مع أنى بت أمتلك كل هذه الثقة إلا أننى لم استطع التغلب علي مخاوفى فبقيت مختبئ فى الحديقة إلي ما بعد منتصف الليل. وعندما أحسست بأن الوقت كان قد تأخر جداً لأحصل علي الغرفة عدت ثانية إلي المكان الذى ارتكبت فيه سرقتى. فوجدت بأن شخصا ما كان قد أخذ كل المشتريات التى كانت علي الأرض فيما عدا علبة البسكويت الهش الذى صار عبارة عن فتات. فأخذت العلبة وهزتها فوقع منها بعض الفتات علي الرصيف. فعدت بذاكرتى واسترجعت ما كان قد حدث وابتسمت. قلت لنفسى » كان يجب علي أن أقطعه إربا حتي أعرف ما الذى كنت

سأشعر به. فى المرة القادمة سأفعل هذا.

مشيت إلي النفق عند مدخل «بابا جون» واستقليت أول قطار جاء. فأمضيت هذه الليلة فى النفق وقمت فى الصباح الباكر وعدت إلي المكان الذى يدعي «فت -جرين» حتي أستطيع تأجير الغرفة.

فصحبنى هذا الضخم وصعد بى مسافة ثلاث أدوار. ثم فتح الغرفة ، كانت تطل علي شارع بار «بروكلين». صغيرة وسقفها مشقق. قال لى: بأنّ هناك حمام عام فى الطابق الثانى و يمكننى أن اضبط لنفسى تدفئة المكان بتحريك اليد الحديدية لجهاز التدفئة. ثم سلمنى المفتاح ونبهنى بأن الإيجار يجب أن يسدد كل سبت أسبوعياً مقدماً. أغلق الباب خلفه وسمعت صوت أقدامه وهى تنزل السلم.

استدرت ونظرت إلي الغرفة .كان هناك سريرين منفصلين مع كرسى وطاولة صغيرة وحوض لغسل الأيدى أيضاً كانت هناك خزانة صغيرة للملابس. مشيت إلي النافذة وشاهدت الشارع من أسفل. كان الشارع يبدأ فى الازدحام عند نهاية كتلة «لافاييت» التى حجبت عنى أى منظر أمامى وكان هناك اختلاف صغير بينى وبين هذا الشارع. لقد كنت وحدى.

فى الصباح قمت بأول جولة لى فى المنطقة المجاورة. وعندما كنت أنزل السلم من خارجاً من غرفتى رأيت شاباً يخرج من بئر السلم. كان بياضه ناصعاً وعيناه واقعتان تحت جفونه. كان معطفه يتدلي من علي كتفه وأزرار بنطاله مفتوحة فقد كان يتبول بجوار المدفأة. لم أستطع أن أميز إن كان هذا الشاب مخمورا أم أنه متعاطى للمخدرات. وقفت لأراه وهو يخرج من الباب إلي السلالم الخارجية. انحني علي جانب من السلم وظل يلهث ويتقيأ علي الرصيف الجانبى.فجأة فتح الباب فاندفعت شلة من الشباب الصغير إلي الخارج هابطة من الطابق الأول دون أن أى شخص منها وجود هذا الرجل. وهكذا انتهي هذا الرجل من قيئه ثم نظر نظرة لا معني لها نحو الشارع.

فعبرت من جانبه إلي الخارج. لكنى سمعت فوقى صوت شباك يُفتح فنظرت إلي فوق فى الوقت المناسب، قبل أن يسقط وابل من القمامة من الدور الثالث علي الرصيف خلفى. فجأة لمحت من الباب الجانبى لهذه العمارة شباباً صغيراً، كان يستخدم مدخل سرداب مهجور كمرحاض. ارتعدت ، لكنى عدت وقلت لنفسى بأنى سوف أعتاد علي مثل هذه الأمور.

كانت توجد خلف المبني قطعة أرض صغيرة مفتوحة، محاطة بنباتات ،نارة وأعشاب

كثيرة. بعض شجيراتها استطالت أغصانها الفارغة إلي درجة كبيرة باتجاه السماء الرمادية.

كان الربيع قد بدأ ، لكن الأشجار علي ما يبدو لم تكن راغبة بأن تضع براعم زهور، ولم تكن مستعدة أصلاً لمواجهة صيف جديد فى حى الأقليات فى هذه المدينة. رفست علبة بيرة فارغة، كان المكان ممتلئاً بمثل هذه العلب، إضافة أيضاً إلي علب ورقية قديمة، جرائد، وصفائح عفنة تكسوها الأعشاب الطويلة. كان هناك سياج مقطوع ممتد عبر هذه القطعة من الأرض ومبني سكنى آخر مفتوح علي شارع «سانت إدوارد».

نظرت مرة أخري إلي المبني الذى كنت أقيم فيه ورأيت بأن نوافذ الطابق الأول كانت مغلقة وقد وُضع علي بعضها ألواحاً معدنية. حتي يحمى أصحابها أنفسهم من الرياح الباردة. شاهدت أيضاً طفلين زنجيين صغيرين يراقبانى من وراء نافذتهم المتسخة وأنا أرفس الحمامة والعلب.

لقد ذكرانى بالحيوانات الصغيرة المحبوسة، التائقة إلي الحرية الخائفة من الهرب لئلا تُجرح أو تقتل. كان جزءاً من هذه النافذة مكسوراً وقد حلت مكانه قطعة كبيرة من الورق السميك المضغوط ، كانت مبللة بالماء .استطعت أن أعد خمس وجوه خائفة. لقد كان من الممكن أن يكون هناك خمس آخرون فى هذه الشقة الصغيرة المكونة من ثلاثة غرف فقط.

عدت ثانية إلي مقدمة المبني . كانت الشقة القابعة فى القبو العفن أسفل السلم فارغة وكانت تحمل رقم ٥٤. كان الباب الحديدى غير مغلق بل مرخياً مستنداً علي مفاصله. فرفسته لأفتحه. كانت رائحة التبول والقاذورات والفضلات والكحول مقرفة أكثر مما كنت احتمل فخرجت مهرولا. إذ مهما يكن من أمر هذا المكان فأنا فى النهاية قد حصلت عل غرفة بالطابق الثالث.

خرجت إلي الشارع ، مشيت علي الرصيف. رأيت العاهرات واقفات فى الشارع تعرض أنفسهن ومنظرهم يثير الشفقة. كانت الفتيات البيض منهن تحتل الجانب الأيمن من الشارع وتستغل الشقق فى المبني المجاور لى أما الفتيات الملونات فقد كانت قد احتلت الجانب الآخر من الشارع وكنا يعشن بجانب مدخل نفق المشاة. كلهن كن مدمنات. كن يقفن حول المصابين بالجذام ويلبسن المعاطف المتسخة. بعضهن كن يتثاءبن من شدة المرض أو لأنهن كن محتاجات للاستيقاظ باكراً كى يأخذن حقنة الجرعة الصباحية للهروين حتي يستطعن مواصلة اليوم.

حتي بعد مرور شهرين لم أكن قد اعتدت بعد علي نيويورك. ففى «برتوريكو» كنت أري صوراً لتمثال الحرية ومبني الأمم المتحدة. لكن هنا فى هذا الحى الشعبى أنا لا أري سوي الشقق السكنية الممتلئة بلحم من البشر. فكل نافذة تمثل عائلة مسجونة داخل شقة صغيرة الحجم جداً،

يحتالون علي وجودهم البائس. تذكرت حديقة الحيوان فى «سان جوان» حيث الدببة تتسابق والقرود تثرثر خلف قضبانها. فهم يتمرغون فى قذارتهم. يأكلون لحم بشع المذاق وخس ذابل. يصارعون بعضهم بعضاً، والوقت الوحيد الذى يتحدون فيه بعضهم هو فى ذلك الوقت الذى يهاجمون دخيلاً .فالحيوانات أيضاً لم تخلق لتعيش بهذه الطريقة فى هذه الغابة المرسومة علي مؤخرة أقفاصهم لتذكرهم بحقيقتهم.

توقفت للحظة علي زاوية حاجز «ميرتل افينيو» منتظراً تغيير الإشارة. كان فوقى قطاراً صاخباً ، يقعقع ويمطر علي المارة الذين فى الأسفل بوابل من السخام. أما الشوارع فقد كان الثلج والملح والقازورات تكسوها وكان الناس يتعثرون ويعبرون بصعوبة الشارع عندما تتغير الإشارة.

وخلف الشقق، كنت تري الكثير من حبال الغسيل ممتدة من إحدي الشرف القذرة أو مربوطة بشكل عشوائى علي منفذ هروب للحرائق. كانت القمصان الزرقاء والبنطلونات الكاكى تتدلي فى هذا الصقيع. والملابس الداخلية التى من المفترض لها أن تكون ناصعة البياض قد أصبحت رمادية اللون من كثرة تعرضها للهواء المملوء بالقاذورات.

هذا اليوم كان يوم السبت وأصحاب المحلات يغلقون بالبوابات الحديدية محلاتهم. كانت كل المحال عبر هذه المبانى السكنية تضع البوابات الحديد هذه لحماية محلاتها من العصابات التى تجول ليلا.

لكن الشقق السكنية هى التى أحبطتنى جداً. فقد كانت هناك بقايا بعض المشاهد لمحاولات من بعض المحتالين للوصول من الغابة الحقيقية والوادى الحجرى الضيق إلي ماهية وجودهم الحقيقى. لكنها كانت محاولات فاشلة. فهى تشبه محاولات رجل غارق فى بحر من الرمال يحاول مد أصابعه للإمساك بقشة علي الحافة، يجذبها بيئس فى الوقت الذى يُبتلع فيه من الرمال. فقد كنت تري مثلا قدرة فخارية قذرة بها طين أحمر، تعلوها زهور جميلة، خلف نافذة وسخة جزء كبير منها مغطي بالسخام. إضافة إلي نبات ضامر يتدلي ناحية النافذة.

أحيانا كانت إحدي هذه الشقق تكسوها ألوان مشرقة. تعلو حوائط السلالم أو عتبة النوافذ فتظهر بلونها المبهج المريح وسط حجر المبني الرمادى الكئيب. وقد تجد فى نافذة أخري علبة صفيح خشنة بها ورد مصنوع من أشياء مختلفة، لا يوجد بينها أى تشابه. فهى غير كاملة مقرفة ومتسخة ومعلقة علي عتبة النافذة.رأيت هناك أيضاً بعض الزهور الصناعية التى تثير

الشفقة، فهى صامدة أمام رياح الشتاء . والمغطاة بغبار المداخن التى تعلو المدينة .

ذهبت إلي نهاية شارع «سانت إدوارد» وتوقفت للحظة أمام مكتبة «والت وايت مان» . ثم عبرت الشارع حيث كان هناك مبني سكنى ضخم يتكون من اثنى عشر طابقاً. كانت هناك ستمائة نافذة تنظر إلي الشارع و كل واحدة منها تمثل إحدي العائلات البائسة التى ترتجف من البرد وراء نوافذها. واحدة من النوافذ كانت قد علقت بها ستارة رثة ربما كان لها فى يوم ما ألوان فاتحة، ولكن الآن بهتت ألوانها وتمزقت من عوامل الطبيعة. معظم النوافذ كانت خالية من الستائر أو حتي مما كان يحجب النور عنها كانت تشبه إلي حد كبير عينان عاريتان فى جثة مجمدة متروكة أسفل بالشارع.

رجعت واقتفيت أثر خطواتى عائدا إلي حديقة واشنطن ثانية. سألت نفسى: ما الذى أصاب الناس فى هذا المكان القذر؟ لماذا يعيشون هكذا؟ لا فناء، لا عشب، لا حدائق مفتوحة، لا أشجار.

ولم أكن أعلم يومها بأنه طالما انتقلت إلي إحدي هذه الأماكن فإنى سأصبح سجيناً فى أقفصتها. إذ لا يوجد أى مخرج لترك هذه الغابة الإسفلتية. فى المساء مشيت ثانية أعبر نفس الشارع. شاهدت لأول مرة فى حياتى كرنفالاً تقام به عروضاً فنية فى الساحة الخلفية لكنيسة «سانت مايكل و سانت إدوارد الكاثوليكية» علي ناصية شارع «برن و سانت ادوارد» .

وصلت هناك حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر، كانت الموسيقى تعلو وتملئ الشارع. كان لدى بعض المال المتبقى من السرقة وفكرة الكرنفال كانت تثيرنى .شاهدت أمام البوابة مجموعة من الأطفال ملتفة حول عازف أرغن إيطالى.

كانت هذه المجموعة ترتدى سترات سوداء مطرز عليها من الخلف حرف «م» أحمر قرمزى. كانت أصوات الأطفال تطغي علي صوت الأرغن وهم يصفقون ويصيحون ويلعبون علي الرصيف.

فى وسط المجموعة رأيت ولداً وسيماً شعره أسود، نحيف البنية ، سنه يقارب سنى. كانت تعلو وجهه الوسيم ابتسامة وهو يرقص بحركات سريعة علي نغمات الجاز. أما يداه فقد كانت حول وسطه ، كان يستدير ويرقص مع الموسيقي. فجأة التقت عينانا فتوقف عن الرقص واستبدل ابتسامته بنظرة قاسية باردة.

قال لى: «أنت يا ولد ماذا تفعل فى هذه المنطقة؟ هذا احتفال خاص بنا. نحن لا نريد

شحاذين وسطنا».

نظرت إليه ، ثم لاحظت بأن الأولاد الآخرين يلتفون من حولنا. فاقترب منى وقال: «إلي أى طبقة أنت تنتمى يا فتي؟ »

فقلت: «أنا لا أنتمى لأى طبقة، أنا جئت إلي هنا فقط لأشارك فى الكرنفال. فهل هذه جريمة؟».

فتقدم إلى ولد آخر من وسط الزحام وقال: «يا فتي هل تعلم ما هذا؟» وهو يشهر سكينا فى وجهى «هذه سكين و سوف أقطعك إرباً .فما الذى ستفعله معى إذا؟ أنا لست هشاً مثل إسرائيل».

أما الفتي إسرائيل، الذى أشار إليه فقد تقدم من وسط الجمع وقال. «هل تعلم بأنّ شحاذاً مثلك من الممكن أن يقتل بهذه الطريقة؟ ربما سأقتلك، ولكن إن كنت تريد أن تعيش فمن الأفضل أن تهرب».

كنت غاضبا جداً ، تحسست فى جيبى سكينى، لكنى فكرت فى النهاية بأن الجمع كبير جداً أمامى. لم أرغب فى أن أظهر جباناً ولكنى كنت أعلم بأنه ستكون فرصة أخري لأثبت فيها شجاعتى. فهززت رأسى ودلفت راجعاً نحو حديقة «واشنطن» عائدا إلي شقتى. سمعت خلفى تلك الشلة وهى تضحك وتسخر منى. وأحدهم يقول: «هذا يثبت بأنى إسرائيل يا فتي .فهذا الشحاذ قد فهم الدرس جيداً .والجحيم لربما سيصبح بارداً جداً، قبل أن يفكر فى الدخول وسطنا ثانية».

كنت غاضباً ومحبطاً .وأنا أسير أسفل نفق القطار فى «ميرتل» ثم دخلت إلي الحديقة وجلست علي المقعد. ولم أكن أعلم بوجود ولد صغير يبلغ الثالثة عشر من عمره كان يتبعنى. فالتفت ونظرت إليه. ابتسم وجلس علي المقعد بجانبى، ثم قال: «كان هذا وقتاً قاسياً معهم أليس كذلك؟»

فسألته: «ماذا تعنى؟» «كان من الممكن لى أن اقتل أحدهم، لكنى فكرت بأنه لمن السذاجة مصارعة كل هؤلاء».

فقال لى: «يا رجل هذه العصابات قاسية جداً، أخرج لى من قميصه سيجارة مصنوعة يدوياً، ثم تابع حديثه قائلاً: «سوف يقتلوك إن لم تطاوعهم».

أشعل السيجار وكان ينظر إلى وأنا أراقبه، سألنى «هل تدخن؟» فهززت رأسى وأنا أعلم عما يتكلم عنه. قال لى: «هل تريد أن تجرب واحدة .فلدى المزيد منهم هيا انضم إلى».

قلت له: «بالتأكيد لقد دخنت واحدة بعد الظهر ولا أريد المزيد».

فصار يبحث داخل قميصه وأخرج سيجارة ملتوية ومكسورة. كانت ملفوفة ومغلقة من نهايتيها فلعق جانبها بفمه حتي يلصقه.

ثم قال لى: «عليك أن تدخنها. وإذا لم تفعل فسوف أرميها». ثم أشعل السيجار لى فبدأت أدخن.

فضحك وقال لى: «لا ليس هكذا بل انظر هكذا».

أخذ نفساً طويلاً من السيجارة ، ملىء بها رئتيه ببطء. «آه... كم... هذا جميل. كل ما كنت تفعله فقط هو قذف الدخان خارجاً، فتحترق السيجارة وأنت لا تأخذ منها شيئاً. دخن يا رجل دخن».

فدخنت. وكان طعمها لذيذ ورائحتها قوية. فسألته: «ما الذى تفعله هذه السيجارة؟ وكنت فعلاً قد بدأت أشعر بالغثيان وبأنى خفيف كالقشة».

فجاوبنى قائلاً: «يا رجل إنها تجعلك تشغل دماغك أكثر. تجعلك تضحك. وتشعر بأنك أفضل راقص، أو عاشق ، أو أقوي مصارع. هل تعرف كل هؤلاء الأولاد الذين كانوا فى الكرنفال كانوا يدخنونها .ألم تري كيف كانت أعينهم حمراء؟ يمكنك أن تعرف إن كانوا قد دخنوا الحشيش من عيونهم اللامعة».

فسألته: «من أين تأتى بهذه الأشياء»؟

قال لى: «آه، هذا فى منتهي السهولة. لدينا مئات الموزعين هنا فى المنطقة. وأى من الأولاد الكبار يستطيع أن يشتريها لك .فهم يجلبوها من خلال اتصالاتهم العليا .كوبا .المكسيك. أنا؟ فرئيسى مثلاً يزرعها فى فناء منزله الخلفى. ونحن أيضاً قمنا بزرع مجموعة من هذه البذور فى فنائنا الخلفى. إذ لا يوجد أى إنسان يمكنه أن يذهب للخلف حيث يزرعها أبى وسط الحشائش فى منزله .فأنا لست أفضل من الباقين، لكنها لا تكلفنا شيئاً».

سألته: «إذا اشتريتها من التاجر كم ستكلفك ؟ » كنت أحاول التعلم طريقته فى الحوار فأنا محرج جداً من أن ولداً فى الثالثة عشر من عمره كان يعرف أكثر منى.

قال لى: «بعضهم يبيعها بدولار للعود. وأحيانا يمكنك أن تشتريها بخمس وسبعون سنتا لكن من الأفضل لك أن تشترى علبة كاملة . هل تعرف علبة» الأمير ألبرت. أيضاً يمكنك أن

تزرعها لتكون خاصة بك وهذا قد يكلفك فقط حوالى أربعين سنتاً .لكن عليك أن تكون حريصاً إذ أن بعض التجار يمكن أن يغشوك .إذ من الممكن أن يمزجوا البانجو بالزعتر وبالتالى لن تحصل علي بضاعة نقية دائما يجب أن تختبرها قبل شرائها، ودفع ثمنها لأنه من الممكن جداً أن يغشوك» .

انتهيت من السيجارة ومددت رجلى إلي الأمام، استرخيت علي المقعد .ولم ألحظ شدة برودة الجو بسبب الغثيان الذى كنت أشعر به .فأنا الآن أحس بأنى ريشة فى الهواء، أطير حالماً علي السحاب.

وأدرت رأسى لأري الصبى حيث كان يجلس علي المقعد بجانبى كان يضع يديه علي رأسه .فقلت له: «توقعت أن تجعلك هذه السيجارة تشعر بالسعادة .فكيف لا تضحك» .

فأجابنى: «يا رجل علي ماذا سأضحك؟» أبى مدمن خمر .وهو ليس فى الحقيقة أبى .لقد انتقل فقط ليعيش مع أمى فى السنة الماضية .وأنا حقا لا أعلم من هو أبى الحقيقى .هذا الرجل يضرب أمى طوال الوقت .فى الأسبوع الفائت حاولت أن أدفعه بعيداً عنها، لكنه ضربنى بزجاجة وكسر لى اثنين من أسنانى .فرميت ساعة كبيرة عليه.عندها وجدت أمى تشتمنى وتطردنى خارجاً .. لأننى لا أملك أى سبب أؤذى به رجلها.

وأنا الآن أعيش فى الشوارع منتظراً اليوم الذى سأكبر فيه ، ويصبح هذا الرجل وحده عندها سوف اقتله .أنا لا أنتمى لأى عصابة ولا لأى أحد .فأنا لم أعد أحب أمى .فما الذى سأضحك عليه؟

لم يرفع رأسه أبداً وهو يتكلم، فسألته: «هل هذا هو نفس الرجل الذى يزرع الماريجوانا فى الفناء الخلفى؟»

فقال: «نعم فهو تاجر أيضاً .انتظرنى وستري ما الذى سأفعل به عندما أمسك به منفرداً. فسوف أدفعه للخلف وأغرز سكيناً فى بطنه» . قال هذا ثم نظر إلى، كان وجهه متعباً مثل وجه قرد عجوز، لم يكن أبداً وجه ولد فى الثالثة عشر من عمره . «ماذا عن أبيك أنت، هل هو مدمن خمر أيضا ؟» سألنى.

فقلت له: «لا فأنا محظوظ لم يكن لى أى أب أو أم» كنت اعرف بأنى أكذب «أنا أعيش لوحدى» .

نظر إلى الولد وهتف قائلا: «رائع و أنا صرت كذلك أيضاً علي ما أعتقد» . قال لى ذلك وهو

مشرق الوجه «إذا انظر حولك .واحذر العصابات .فسوف يقتلونك إذا عثروا عليك فى الشارع ليلاً».

«قل لى، ماذا عن هذه العصابات؟» كم عددها؟

فأجابنى: «مئات منهم، فعددهم لا يحصي».

«ماذا يفعلون»؟

«يتشاجرون، يا رجل ماذا سيفعلون غير ذلك؟» إما أن يذهبوا ليتشاجروا مع عصابة أخري أو يظلوا فى أماكنهم ليحموا منطقة نفوذهم من أى دخيل.وهم لا يتشاجرون مع بعضهم فقط، لكنهم أيضاً يتشاجرون مع البوليس. فهم دائماً يبحثون عما يتشاجرون من أجله. فهم يحملون كل أنواع السكاكين والمسدسات والبنادق والزجاجات المكسورة والطوب والصخور وجنازير العجلات أيضاً .كل ما يمكنك أن تتخيله هم يستخدمونه للقتل. فهم دائماً يملئون جيوبهم بهذه الأسلحة، ويملئون أحذيتهم. كذلك بعض هذه العصابات يحملون الموس ويضعونه بين أصابع يدهم. وكلما مكثت هنا أكثر فستعرف المزيد. لذلك أنا لا أنضم إليهم. أنا فقط أتمشي فى الأزقة والشوارع المظلمة، وأبتعد عن طريقهم تماماً. سوف تتعلم كل شيء، لاحظ فقط ما يحدث وستتعلم.

وقف ومضي وعاد راجعاً مجتازاً الحديقة، ثم اختفي فى الظلام. أما أنا فقد سرت عائداً إلي شارع «فت جرين» حيث كان الظلام يملئ المكان.

الفصل الرابـع
انضمام بالـدم

بعد عدة أسابيع غادرت شقتى حوالى الساعة الثامنة متوجهاً إلي «بابا جون» بشارع «لافاييت» . فشاهدت ولداً من «برتوريكو» يدعي «تيكو» كان واقفاً مستنداً علي جانب المبني يدخن سيجاراً.

كنت أعرفه فقد سبق لى وأن قابلته مرة أو مرتين علي الأقل، كنت أعرف بأنه خبير فى أنواع عديدة ومختلفة من المطاوى .نظر إلىّ وقال: «ها نيكى» ، هل تريد أن تذهب معى إلي حفل دعارة ؟ أريدك أن تقابل رئيس العصابة «كارلوس» .

فى الحقيقة كنت قد سمعت كثيراً عن هذه الحفلات لكنى لم أكن قد حضرت أياً منها لذلك قبلت الدعوة سريعاً .وتبعته إلي شارع جانبى ثم نزلنا إلي مدخل قبو تحت السلم فى مبني سكنى قريب.

لم تكن عينايا معتادة علي الضوء الخافت .كانت هناك لمبة وحيدة صغيرة مضاءة فى ركن بعيد، لكن كان بعض النور الداخل من النوافذ وعبر الباب من ضوء الشارع.

عندما دخلت شاهدت وجوه بعض الناس الملتصقين ببعضهم البعض، كانوا يتراقصون علي الموسيقى الهادئة .كان رأس كل واحد منهم علي كتف الآخر وأرجلهم تتحرك علي نغمات الموسيقى الهادئة .وكان أحد الأولاد يمسك بزجاجة نبيذ فى يده وهو يلف بذراعه واحدة من الفتيات و يأخذ رشفة كبيرة من الزجاجة .

كان هناك أولاد كثر يجلسون علي منضدة صغيرة يلعبون الورق ويدخنون الماريجوانا والبانجو. وكانت فى الوسط تقف زجاجة نبيذ كبير.

وفى آخر الغرفة فى واحدة من الزوايا شاهدت أربعة أشخاص يستلقون علي سجادة،

اثنان منهم كانوا علي ما يبدو نائمين فى حضن بعضهم الآخر .والآخران كانا يمارسان الجنس .لكنهما ما أن لاحظا فجأة وجودى ومراقبتى إياهم، وقفا علي أرجلهما وأيديهم لا تزال متشابكة و شفاهما ملتصقة فى قبلة حارة، لقد كانا يتعثران وهما يسيران إلي خارج الباب الجانبى.

نظر إلي تيكو وغمز لى بعينيه قائلاً: «هناك سرير بالداخل، نحن نوفره لكل من يريد أن يمارس الجنس عليه» . كانت ملقاة علي الأرض عند قدمى كومة من الورق الخشن ملصوقاً عليها صور نساء عارية أو نصف عارية .فقلت: «إذا هذه هى الحفلة» .

فجذب تيكو يدى ودفعنى إلي غرفة مكتظة بالناس وقال لهم: «هه، ها هو صديقى فكيف إذا سترحبون به» .

فاقتربت نحوى فتاة شقراء ثم أخذتنى من يدى من عند الباب . كانت، ترتدى سترة سوداء ضيقة وجونلة حمراء، كانت عارية القدمين .فوضعت يدى حول وسطها وقلت: «ها يا عزيزتى هل ترغبين فى الرقص معى؟»

فقالت لى: «ما اسمك؟» وقبل أن أجيب قال تيكو: «اسمه نيكى .إنه صديق لى وهو بالحق مصارع جيد .وأظن بأنه يريد الانضمام إلينا» .

فتحولت الفتاة إلىّ وألصقت جسدها بى وقالت لى: «إذا يا نيكى، إن كنت مصارعاً جيداً فدعنى أري أيضاً إن كنت راقصاً جيد» . سرت معها إلي حلبة الرقص ، عندها أحسست برجلها وهى تحتك برجلى، ونحن نجر قدمينا بخطوات بطيئة علي صوت الموسيقي.

بدأت تثيرنى بحركاتها .فقد كانت ساخنة جداً لدرجة أنى كنت أشعر بكل حركة من جسمها وهى ملتصقة بى بقوةً .لذلك فقد انزلقت يدى من تحت سترتها إلي خلف ظهرها. ثم جذبتها وألصقتها بى بشكل أكبر.

«أم ،أم، أم م م م» هكذا سمعت همهمتها .وهذا كل ما كنت ما احتاجه عندئذ أحطها بقوة أكثر بذراعىّ .فجأة، دفعتنى بيدها بقوة فى صدرى وأبعدتنى عنها .قائلة: «كف عن ذلك! ماذا تظن نفسك فاعل؟ لا تتجاوز حدودك معى .أنا ملك «لجوزيه» وإذا علم بأنك كنت تحاول أن تلمسنى فسوف يقطعنى إرباً» .

كانت يمكنها بسرعة أن تري الارتباك الذى ظهر علي وجهى، فكسرت حدة صوتها

بابتسامة ثم جذبتنى نحوها ثانية .وضعت شفتيها بالقرب من أذنى و قالت: «هذه ليست إلا المرة الأولي فقط فلا تكن متسرعاً .فإذا فزت بإعجابى فسأعطيك كل شيء بعد ذلك».

رقصنا لمدة طويلة ثم توقفنا لنشاهد ولدين وهم يلعبان لعبة «الجبان » بالمطاوى .كان أحدهم يقف إلي الحائط والآخر يقذف السكين إلي قدميه .كانت الفكرة هى أن ترمى شريكك بالسكين فى أقرب مكان منه دون أن تصبه .وإذا ابتعد خائفاً فسيكون «جباناً».

وجدت نفسى أتمنى من قلبى أن تصبه المطوي ففكرة الدماء كانت تثيرنى .كنت واقفاً هناك أضحك متمنياً أن تنزلق السكين وتصيب الولد.

هنا جذبتنى الفتاة الشقراء صاحبة السترة السوداء وقالت لى: «تعال معى .أريدك أن تقابل شخصاً مهماً».

تبعتها إلي غرفة جانبية .كان هناك رجل من «برتوريكو» جالساً علي كرسى وقدميه مرفوعة علي منضدة صغيرة أمامه .وفتاة جالسة علي قدميه ومستندة علي كتفه، وهو يدخن سيجارة وينفث دخانه فى شعرها ويضحك.

«ما هذا». صرخ صائحاً فينا. «أليس لديكم أخلاق؟ ألم تتعلموا بأنه عليكم أن تستأذنوا أولاً قبل الدخول على هكذا؟ ألم يكن من الممكن أن ترونى وأنا أفعل شيئاً لا أريد لأحد أن يراه». ضحك ومد يده وربت علي ظهر الفتاة بيديه الاثنتين.

ثم قال وهو شاخصاً إلى: «من هذا الغلام؟ » فقالت له الشقراء: «هذا صديقى نيكى .تيكو جاء به إلي هنا .ويقول تيكو بأنه مصارع جيد».

دفع الولد الطويل الهزيل الفتاة من علي قدميه ، نظر بقسوة إلى .ثم ابتسم ومد يده وقال «سلم علي يا نيكى أنا كارلوس .رئيس عصابة المومس».

فرفعت يدى نحوه برفق ثم جذبتها للوراء وكفى ينزلق نحو كفه حيث كانت هذه هى طريقة تصافح العصابات.

كنت قد سمعت سابقاً عن «المومس». لقد سموا أنفسهم هكذا خلفاً للقبائل الإفريقية المتوحشة والمتعطشة للدماء، كثيراً ما رأيتهم فى الشارع وهم يرتدون السترات السوداء وعلامة «م» باللون الأحمر القرمزى موضوعة علي ظهورهم. كانوا يرتدون القبعات العالية

المزخرفة وكان معظمها مزخرف بعيدان ثقاب خشبية .كذلك كانوا يحملون بعض العلب فى أيديهم ويرتدون أحذية لها رأس مدبب تستطيع أن ترفس رجلاً فيلقي حتفه فى ثوان.

أومئ كارلوس برأسه نحو ركن من الغرفة عندها رأيت ذلك الولد الذى كان فى الكرنفال. «هذا إسرائيل .نائب رئيس» . مومومس. «كان وجه إسرائيل خال من أى تعبير حين كان يحدق فىّ .لكن كانت عيناه الغامقتين تخترقان جدار قلبى وتشعرنى بعدم الراحة».

اكتشفت فيما بعد بأن الرئيس ونائب الرئيس دائماً هم مع بعضهم البعض .إذ كانوا يحمون بعض فيما لو تعرض أى منهم لهجوم.

سألنى كارلوس: «كم عمرك إذا؟»

فجاوبته: «ستة عشر عاماً».

هل تعرف أى شيء عن الشجار؟

قلت: «نعم بالطبع».

هل تستطيع أن تتشاجر مع أى شخص حتي ولو كان شرطياً؟

أجبته: «بالطبع».

آه وهل طعنت أحداً قبل ذلك؟

قلت، «لا» وأنا أشعر بالندم.

هل حاول أحد ما أن يطعنك من قبل؟

قلت، «نعم».

إذا؟ قال كارلوس وهو يعيرنى اهتمامه ثانية. «ما الذى فعلته عندها»؟

«لا شئ» هكذا جاوبته .« لكنى انتظر حتي أجده ثانية وعندها سأقتله».

فقاطعنى إسرائيل قائلاً : «إذا كنت تريد أن تنضم إلي عصابتنا فافعل كما نفعل نحن. نحن الأقوي، حتي البوليس يخشانا، لا نريد جبناء معنا .فإن كنت تريد الانضمام فأنت لست

جباناً أليس كذلك .ولكن إذا اكتشفنا بأنك جبانٌ فسو ف نقطعك ونقتلك» .

وكنت أعلم بأن إسرائيل يقول الحق .فقد سمعت قصصا عن أولاد قتلوا من عصاباتهم لأنهم صاروا جبناء ولم ينكروا زملاءهم فى العصابة.

قال كارلوس: «هناك أمران يا رجل .إذا انضممت إلي «المومومس» فهذا سيصبح عهداً أبدياً .لا يمكن لك قطعه ثانية.لكن فيما لو قبضت عليك الشرطة واعترفت فسنقتلك» .

بد علي وجه إسرائيل الوسيم ابتسامة صغيرة وهنا قال: «ماذا تريد الآن يا صغيرى هل مازلت راغباً بالانضمام إلينا؟»

قلت لهم، «أمهلونى ثلاثة أيام» . «فإن انضممت إلي عصابة، أريد أن أكرس نفسى لها» .

«حسناً، حسناً» ، هكذا قال كارلوس. «لك ثلاثة أيام لتفكر بها مرة أخري .وبعد هذه المهلة ستأتى إلي هنا ثانية .فأنا أريد أن أعرف قرارك» .كان يتكلم وهو لا يزال جالساً علي كرسيه ورجليه ممدودة للأمام علي المنضدة الصغيرة .ثم جذب فتاته ثانية وأجلسها علي قدميه. وضع يده اليسري تحت ملابسها والأخري علي قدميها.

فاستدرت لانسحب، فقال لى كارلوس: «يا نيكى، نسيت أن أقول لك .إذا أخبرت أى شخص عن مكاننا فسوف أقتلك قبل أن تكون لديك أية فرصة للهرب .هل فهمت؟»

فقلت: « فهمت» . وكنت أعلم تماماً ما يعنيه.

سألت تيكو ونحن خارجان «ماذا تظن يا تيكو؟ هل تري بأن أنضم إلي المو موس؟»

فالتفت تيكو بكتفه إلى قائلاً: «هى بالفعل صفقة جيدة يا رجل .فإذا ما انضممت إليهم فلسوف يعتنون بك .وإذا لم تنضم إليهم فسيقتلونك لأنك لم تنضم.إذاً ليست أمامك خيارات كثيرة هنا .إضافة إلي أنه عليك الانضمام إلي عصابة إن كنت تريد البقاء حياً» .

فسألته، «وماذا عن كارلوس؟» «ماذا عن شخصيته؟ أجابنى» : هو شخص جيد. لا يتكلم كثيراً ولكن إذا تكلم يستمع إليه الجميع .فهو المسئول عن كل شىء والكل يعرف ذلك.

فسألته، «هل حقا الرئيس هو من يختار فتاته؟»

فقال لى تيكو، «بالطبع، فنحن لدينا ما يقرب من خمسة وسبعون فتاة فى العصابة

والرئيس هو الذى يختار .كل يوم يختار واحدة مختلفة عن الأخري إذا رغب فى ذلك .وهل تعرف فالفتيات يحبون هذه الطريقة .هل تعلم بأن هذا الأمر مهم جداً عندهن، فما أن يقوم الرئيس بالاختيار حتي يتسابقون لمعرفة من التى ستفوز بمصاحبته.

فالعصابة تعتنى بالرئيس .وهو أول من يأخذ باكورة سرقتنا ودائماً يأخذ ما يكفى ليدفع بها ثمن غرفته وطعامه وملبسه .فهذه صفقة جيدة جداً أن تصبح رئيساً».

«يا تيكو، أنت بارع فى استخدام المطواة لماذا لم تصبح رئيساً؟»

«كلا يا رجل، لست أنا، الرئيس لا يتشاجر كثيراً إذ عليه أن يبقي مكانه ويخطط .أما أنا فلا أظن بأنى أريد أن أكون رئيساً».

أجبته: «هذا ما أفضله أنا أيضاً .فأنا أحب العراك .توجه تيكو إلي بابا جون وشارع فت ٥٤ جرين». أما أنا فكنت أشعر بالدم يسرى فى عروقى متخيلاً ما الذى سيحدث .الحفلات والبنات .لكن الأهم من ذلك كان عندى هو العراك، فأنا الآن لن أتشاجر لوحدى ثانية. أستطيع أؤذى من أريد بدون أن يؤذينى أى شخص .بدأ قلبى يخفق سريعاً .نعم فمن الممكن أن تتاح لى الفرصة أخيراً لأطعن أى شخص .بدأت أتخيل الدماء وهى تنساب من بين أصابعى إلي الأرض فى الشارع .وصرت أحرك يدى بحركات لولبية كأنى أحمل سكيناً وأطعن به أحداً أتخيل وجوده فى الظلام. قلت لكارلوس سوف أجيبه خلال ثلاثة أيام .لكنى قررت الآن. وكل ما كنت أريده هو أن يعطينى مطواةً ومسدساً.

بعد مضى ليلتين عدت إلي مكان تواجد العصابة. دخلت ، فقابلنى كارلوس عند الباب.

قال لى: «ها، نيكى لقد أتيت فى الوقت المحدد. أنظر لدينا هنا ولداً آخر يريد الانضمام إلي «لموموس»، هل تريد مشاهدة بدء العمل؟»

لم تكن لدى أى فكرة عن ما هى «مشاهدة بدء العمل هذه» لكنى كنت أريد أن أري. أكمل كارلوس كلامه قائلاًلى: «لكن من الممكن يا نيكى أن تكون قد أتيت لتعتذر لنا عن انضمامك إلي العصابة، هه؟»

فجاوبته قائلا: «لا، لقد أتيت كى أقول لك بأنى مستعد للانضمام إلي العصابة. فأنا أريد العراك. واعتقد بأنى عنيف وقاس مثل الباقين وربما أفضل مصارع حتي من هؤلاء».

قال كارلوس: «عظيم .تستطيع الآن المشاهدة وبعد ذلك سيأتى دورك .لدينا طريقتين لنعرف بها إن كنت جباناً أم لا .إما أن تقف ساكناً وخمسة من أقوي الأولاد لدينا سيضربونك أو أن تستند علي الحائط منتظراً أن تقذف بسكين .فإذا هربت من أى منهم لن نسمح لك بالانضمام إلي العصابة .فهذا الغلام هناك انظر إنه يقول بأنه قوى. لنري الآن مدي قوته. وبعدها سنري الحقيقة».

نظرت إلي الجانب الآخر من الغرفة فوجدت ولداً آخر .كان عمره ثلاثة عشر عاماً وجهه تكسوه الحبوب، شعره طويل أسود نازلاً علي عينيه .كان صغيراً ونحيلاً يداه معلقتان بقوة إلي جانبيه .كان يرتدى قميصاً أبيض له أكمام طويلة .تذكرت بأنى كنت قد رأيت هذا الولد ذا الوجه المحبب بالمدرسة، لكنى لم أكن متأكداً من ذلك فهو يصغرنى سناً.

رأيت هناك حوالى أربعين ولداً وبنتاً منتظرين مشاهدة العرض .كان كارلوس هو المسئول. أمرهم أن يفسحوا المجال لمشاهدة العرض فوقف الجميع صفاً واحداً بجانب الحائط .وقيل للولد أن يقف مستندا بظهره علي الحائط الفارغ من وراءه .وقف كارلوس فى المقدمة أمامه ممسكاً بمطواة مفتوحة .فتلألئ نور الموس الفضى فى النور الخافت.

قال: «سوف أستدير وأسير نحو عشرون خطوة إلي الحائط الآخر، وأنت ستظل واقفاً فى مكانك .هل قلت بأنك قوى يا غلام .إذا سنري مدي هذه القوة .فعندما أعد إلي عشرين سوف التفت واقذف السكين .فإذا تجنبتها أو بعدت عنها فحينئذ ستكون جباناً .وإذا لم تفعل ولو استقرت السكين فى جسدك فسوف تصبح ولدا قويا وحينئذ تستطيع أن تنضم إلي عصابة المومس .هل فهمت؟» أومأ الولد الصغير برأسه.

«والآن هناك شيئا آخر، هكذا قال كارلوس هو يحمل السكين فى وجه الولد الصغير». إذا ما صرت جباناً وأنا أبتعد عنك بادئاً بالعد ، كل ما عليك عمله هو أن تصيح .لكن من الأفضل لك أن تبتعد عنا نهائياً بعد ذلك .لأنك إن حاولت الاقتراب منا فيما بعد فسوف أقطع أذنيك وأجعلك تأكلهما ثم سأغمس السكين فى بطنك وأتركك تنزف حتي الموت.

بدأ الأولاد والبنات ويضحكون ويصفقون ويهتفون قائلين لكارلوس: «هيا، هيا يا رجل».

فأعطي كارلوس ظهره للولد وبدأ يسير ببطء فى الغرفة .ممسكاً بطرف السكين اللامع كانت ذراعه أمامه محنية قليلاً عند كوعه وكانت المطواة موجهة تماماً أمام وجهه.

بدأ الجمع يصرخ: «واحد..... اثنان.... ثلاث» . «اقتله يا كارلوس ، اقتله دعه ينزف دماً يا صغيرى، ينزف دماً» .

كان الولد الصغير ملتصقاً بالحائط مثل فار وقع فى شرك نمر .كان يحاول باستماتة أن يكون شجاعاً .كانت يداه متصلبة بجانبه ومغلقة فى قبضتيه الصغيرتين حيث كان لون مفاصل أصابعه الأبيض ظاهراً .هربت الدماء من وجهه أيضاً وعيناه اتسعتا من الرعب.

كان كارلوس يعد بصوت عال وهو يخطو بخطوات واسعة ويقول: « أحد عشر اثنى عشر ثلاثة عشر» . وبدأ التوتر يزيد كلما صاح الأولاد والبنات المتعطشين للدماء.

«تسعة عشر عشرون» . هكذا استدار كارلوس ببطء ممسكاً المطواة من رأسها الحامى ليستعد لقذفها .كان الجمع من الشباب فى غاية الإثارة والصياح وهم راغبين فى أن يروا دماً .لكن عندما استعد لإطلاق يده للأمام انحني الولد الصغير واضعاً يده فوق رأسه صارخاً، «لا، لا» واستقرت المطواة فى الحائط علي مسافة قريبة من رأسه.

«جبانا جباناً» . هكذا صرخ الجمع.

اشتد غيظ كارلوس .وجز علي أسنانه فامتلأ بالغضب وجهه .صرخ قائلا: «أمسكوا به» ، فتحرك نحوه صبيان كثر من جانبى الغرفة وأمسكوا به من يديه ودفعوه نحو الحائط.

كان كارلوس يتحرك فى الغرفة ثم وقف أمامه وهو يرتجف قائلا: «جبان، أنت جبان. كنت أعلم بأنك جبان من أول مرة رأيتك فيها .كدت أن أقتلك» .

وعاد الجمع مرة أخري يهتفون ويصرخون «اقتله ...اقتل هذا الجبان» .

قال له كارلوس: «هل تعلم ما الذى نفعله عادة مع الجبناء مثلك؟» نظر إليه الولد وهو يحرك فمه، ولكنه لم يستطع إخراج كلمة واحدة.

«قال له كارلوس: سوف أخبرك ماذا نفعل بالجبناء مثلك .نحن نخيط أجنحتهم، حتي لا يتمكنوا من الطيران ثانية» .

ثم جذب السكين من الحائط وقال لهم: «شدوا يديه» .

وقبل أن يتحرك هذا الصغير قام ولدان بشد ذراعيه بعيداً عن جسمه حتي صارا مفتوحتين مثل النسر .فتحرك كارلوس بسرعة شديدة إلي درجة لا يمكنك معها رؤية يده ثم رفع

السكين بسرعة ووحشية وطعن بها تقريباً إبط الولد .فصرخ وتشنج من الألم .وتدفقت الدماء منه بقوة حتي غرق قميصه الأبيض بلون قرمزى أحمر.

نزع السكين من جسد الصبى ثم طعن بها ثانية اليد الأخري، وقال: «هل تري يا رجل يمكننى أن استخدم يدى الشمال أيضاً».

ترك الصبيان الولد حيث انهار ووقع إلي الأرض ويداه علي صدره ممسكاً بجرحه الغائر .كان يصرخ ويصيح ويتمرغ علي الأرض .وكان قميصه قد تغطي تقريباً باللون الأحمر القاتم.

خاطبهم كارلوس بسرعة و حدة: « أخرجوه خارجا، هيا».

جاء الصبيان ،جذباه ، وأوقفاه علي قدميه .أحني الولد رأسه إلي الخلف وصرخ من الألم وهم ممسكين بيده . وضع كارلوس يده علي فمه فجأة، فتوقف عن الصراخ .كان الولد ينظر إلي يد كارلوس وعيناه تمتلئان بالرعب والفزع.

قال له: «عد إلي بيتك أيها الجبان ، وإن سمعت صراخك وعويلك هذا مرة أخري هنا فسأقطع لسانك أيضاً، هل فهمت؟» قال هذا وهو يمسك بالسكين الملطخة بالدماء ويحركها أمام عينيه .ثم عاد وقال: «هل فهمت؟»

أومأ الولد برأسه.

فجذبه الولدان من الأرض، ودفعاه خارجاً إلي الشارع الجانبى .وهنا صرخ أعضاء العصابة معاً «عد إلي منزلك أيها الجبان».

والتفت إلى كارلوس وقال «من التالى؟» كان ينظر إلىّ حين ساد هدوء وسكون فى الغرفة.

وفجأة أدركت بأنى لم أكن خائفاً .فى الحقيقة كنت مستغرقاً فى الطعنات والألم و كنت مستمتعاً بهما لدرجة كبيرةً .فمنظر كل هذه الدماء جعلنى أشعر بالوحشية والإثارة، كنت أحقد علي كارلوس، لكن قد جاء دورى الآن.

تذكرت حينئذ عبارات كارلوس بأنه لدى اختيارين .فشعرت فى داخلى بأن كارلوس لا يزال غاضباً جداً .فإذا ما اخترت لعبة القذف بالمطواة، فمن المؤكد بأنه سيطعننى عن عمد.

لذلك ظننت بأنه من الأحكم أن أختار الاختيار الثانى.

قال كارلوس بسخرية: «لدينا جبان آخر هنا».

فخطوت إلي وسط الغرفة ونظرت حولى .قالت إحدي الفتيات وكانت طويلة ورفيعة ترتدى سترة سوداء ضيقة: «ماذا أصابك أيها الصبى، هل أنت خائف؟ لدينا بعض الدماء هنا إن لم يكن لديك دم». صرخ الجمع وهتفوا وهم يضحكون .فقد كانت علي حق .إذ كانت الأرض المجاورة للحائط حيث كان الولد واقفاً مغطاة بالدماء.

قلت: «لست أنا، أنا لست خائفاً، جربينى يا صغيرتى .أين هم أصحابك الذين يريدون طعنى؟»

حاولت أن أظهر بمظهر القوى ، لكنى فى أعماقى كنت خائفاً.إذ كنت أعلم بأنى سأصاب .وأدركت بأن هؤلاء جميعاً كانوا يلعبون ،ولكنى كنت أفضل الموت علي أن أكون جباناً .ولذا قلت، «أنا مستعد.».

نادى كارلوس علي خمسة أسماء: «جونى» فجاء ولد قصير وسمين من بين الجمع ووقف أمامه .كان تقريباً فى مثل حجمى مرتين كانت جبهته تعلوها الخطوط ولم تكن لديه رقبة تقريباً .كانت رأسه مستقرة بين كتفيه .جاء إلي وسط الغرفة مطقطقاً أصابعه بصوت عال.

حاولت أن أقارن وزنى الذى يقرب من ١٢٠ كيلو بوزنه الذى يكاد يصل إلي ٢٠٠ كيلو. كان ينظر إلى باهتما كالقرد .حيث كان منتظراً الأمر بالهجوم.

«ماتى» ! وهو ولد آخر تقدم للأمام .كان تقريباً فى مثل حجمى ، لكن يداه كانتا طويلتين أكثر من يداى . فتقدم راقصاً وهو يرفع يده لأعلي ثم للخلف بحركة استعراضية كالمصارع. كان قد ألصق ذقنه بصدره وأخذ ينظر بعينيه من فوق. بدأ يلف الغرفة وقبضته تتحرك بسرعة البرق .والفتيات تصفر وتهلل وهو يضرب بيده للأمام والخلف من أمام أنفه ويتحرك بتراقص ويقفز قفزات قصيرة.

«جوزيه» وهو ولد ثالث انضم إلي الفريق .كانت لديه ندبة عميقة فى وجهه تمتد من تحت عينيه إلي ذقنه .بدأ يخلع قميصه ويمرن عضلاته .كان قوامه مثل قوام حامل الأثقال. كان يلتف من حولى وينظر فىّ من كل الاتجاهات.

«أوول» فهتف الأولاد من الجانب الآخر من الغرفة .كان من الواضح بأن «أوول» هو المفضل لديهم .وقد عرفت فيما بعد بأنهم يسمونه «أوول» لأنه يري فى الليل بوضوح مثلما يري فى النهار .وهم كانوا يضعونه فى مقدمة المشاجرات مع عصابات الخصم عندما يكونوا فى المواجهة .فعيناه كانتا واسعتين وأنفه ملتوية ربما لأنها قد سبق وتعرضت للكسر عدة مرات .وكانت لديه أذن نصفها مقطوع حيث كان قد ضرب مرة بسبورة معلقاً فى آخرها مسمار .وقع هذا الحادث له أثناء مشاجرة فى فناء مدرسة حيث شبك المسمار فى أذنه قاطعاً أكثر من نصفها .«أوول» هذا كان ولداً قصيراً وسميناً، ولديه نظرة وقحة لم أري مثلها من قبل.

«باكو» لم أره أبداً .سمعته ينادينى من خلف «يا نيكى» . فاستدرت ونظرت وإذ به يضربنى فوق الحزام بالضبط بقبضته .كان الألم مبرحاً جداً .شعرت وكأنه فتك بكليتى .حاولت أن آخذ نفساً ، لكنه عاود ضربى مرة ثانية . وعندما انتصبت ووضعت يدى خلفى لأمسك بأحد من الأولاد الآخرين ضربنى فى بطنى بشده مرة أخري حتي أنى كدت أفقد أنفاسى. شعرت بنفسى وأنا اقترب من الموت من شدة الألم حيث ضربنى أحدهم ثانية فى وجهى، فسمعت صوت عظام أنفى تتكسر من شدة اللكمة.

لم تكن لدى أى فرصة لأرد الضربة .شعرت وكأنى أتهاوي .وأحسست بشخصاً يمسكنى من شعرى الطويل .كان جسدى يتهاوي إلي الأرض ولكن رأسى بقيت معلقة بين يديه من شعرى. ركلنى أحدهم بالحذاء فى وجهى وشعرت بالرمل والتراب يملئ وجهى وشفتى. صرت أركل برجلى فى كل اتجاه حيث كان من قد أمسك بشعرى يضربنى علي جانبى وجهى.

ثم انطفأت الأنوار فجأة ولم أعد أتذكر أى شيء بعد ذلك .فيما بعد أدركت بأنّ شخصاً كان يلكمنى علي وجهى .وسمعت أحدهم يقول: «هه ، أنت استيقظ» .

حاولت أن أركز ببصرى ، لكنى لم أستطع أن أري شيئاً سوي السقف .وعندما كنت أمسح وجهى بيدى شعرت بالدماء علي جلدى. كان وجهى مغطي تماماً بالدماء .نظرت فوجدت الولد الذين يدعونه «أوول» . فاندفع الدم فى فصرت كالمجنون. فانقضضت فجأة عليه وضربته فى فمه. فعادت إلى قوتى مرة واحدة. كنت ملقي علي ظهرى فى بركة من الدماء وأنا أدور بسرعة حول نفسى أركل كل من أراه علي مقربة من بصرى وألعن وأصرخ

وأضرب بضراوة كل ما تمتد إليه يدى وقدماى.

أخيراً جذبنى أحدهم إليه وأوقفنى علي قدمى حتي انفض عنى هذا الغضب الشديد. ثم انحني نحوى إسرائيل وهو يضحك ويقول: «أنت من نفس نوعيتنا يا نيكى .نستطيع الآن أن نستغلك .فمن الممكن أن تكون أى شىء آخر ، لكنك لست جباناً .هذا مؤكد. ثم ووضع شيئا فى يدى».

كان مسدس عيار ٣٢ قال لى: «أنت الآن ضمن المومس يا نيكى... المومس».

الفصل الخامس
مشاجرات الشوارع

صرت أنا وإسرائيل من أقرب الأصدقاء، لا نفترق أبداً عن بعضنا البعض منذ البداية .فقد جاء إلىّ بعد ثلاثة أيام وأخبرنى بأنه ستكون هناك مشاجرة فى الشارع مع عصابة «البيشوب» . حسناً أخيراً جاءتنى الفرصة كى أستخدم فيها مسدسى الخاص .كنت أشعر بأنّ شعر رأسى يكاد يقف وإسرائيل يصف لى الخطة.

كان علي «المومومس» أن يجتمعوا فى حديقة واشنطن بالقرب من «دى كالب» . وأن يتواجدوا هناك فى الساعة التاسعة مساءً .كان مستشارنا الحربى قد قابل المستشار الحربى لـ «البيشوب» وهى عصابة من الزنوج حيث اتفقا معاً علي الموعد .وهو الساعة العاشرة مساءً فى الفناء الخلفى لشارع «السادس» ٦٧ .

قال إسرائيل: «اجلب معك مسدسك .فبقية الجمع سيأتون بمسدساتهم .بعضهم اشتري لنفسه مدفعاً خاصاً وبندقية ورشاشاً.لأننا سنلقن هؤلاء «البيشوب» درساً لن ينسوه .وإن اضطررنا للقتل فسنقتل. لكن عندما سنذهب لمقابلتهم أولاً سيكون هدفنا الشجار .نحن «المومومس» . «كالمومومس الأفارقة» الذين يشربون الدماء ويقتلون الرجال ، نحن مثلهم تماماً» .

كانت العصابة قد بدأت فى الاصطفاف عندما ذهبت فى الثامنة والنصف إلي الحديقة .كانوا قد خبئوا أسلحتهم خلف الأشجار و داخل العشب الطويل خشية أن يضبطهم البوليس .لكن فى تلك الليلة لم تكن هناك أية شرطة حيث كان كارلوس وإسرائيل يصدرون الأوامر .فى العاشرة مساءاً كان هناك أكثر من مئة من الأولاد يصطفون فى محيط الحديقة .بعضهم كانت معه مسدسات .والآخر مطاوى. لكن القليل منهم كانت معهم مضارب البيسبول، وعصيان طويلة تنتهى بمسامير، وهراوات مصنوعة بالأيدى .آخرين كان معهم الجنازير التييمكن أن تستخدم كسلاح قوى عندما تتأرجح لتصطدم بالرأس . كان كارلوس يحمل حربة برأسين، وهيكتور يحمل بندقية رشاشة .وقد كان علي بعض الأولاد الذهاب بعيداً مسافة مبنيين لقطع الطريق من فناء المدرسة فى حديقة «أفينو» حتي يتمكنوا من

منع «البيشوب» من الهروب .كان عليهم أيضاً البقاء فى أماكنهم حتي يدركوا بأن المشاجرة مازالت مستمرة، ثم بعد ذلك يبدؤون الهجوم من الجانب الآخر .أما ما تبقي منا فكان عليه أن القدوم من شارع «سانت إدوارد» الجانبى للمدرسة ومحاولة إجبار الـ «بيشوب» علي التراجع إلي منطقة الحرس الأخري حتي يتمكنوا من قتلهم.

كنا نمشى بهدوء نلتقط أسلحتنا من الأماكن المخبأة بها فى الطريق .كان تيكو بجانبى يقول: «ما الذى سوف يحدث يا نيكى، هل أنت خائف؟»

قلت له: «لا يا رجل فهذا ما كنت انتظره فعلاً» وفتحت سترتى ليتمكن من رؤية مسدسى.

قال لى: «كم عدد الرصاصات التى بهذا المسدس؟»

قلت له: «إنه ملىء يا صغيرى، فيه خمس رصاصات».

تيكو وهو يصفر: «ليس سيئاً .إذا يجب عليك أن تقتل واحد من هؤلاء السفلة اليوم بالتأكيد .أما أنا فسألتصق بسكينى».

انقسمنا إلي فرق صغيرة حتي نتمكن من الابتعاد عن قسم الشرطة فى زاوية شارع «أربورن» «سانت إدوارد». والتقينا أمام المدرسة ، ثم أعطانا كارلوس شارة البدء.

وقفنا حول المبني فى الفناء .كان «البيشوب» منتظرين .فهتفنا جميعاً ونحن نلتف حول فناء المدرسة ونجرى فى الأماكن الخالية التى تفصل بين العصابتين ونقول: اقتلوهم... اقتلوهم .. خلصوا عليهم...

خرجت من وسط المجموعة إلي المقدمة ثم أخرجت المسدس من جيبى .كان إسرائيل قد انحرف إلي جانب آخر وهو يلوّح بمضرب البيسبول .أما باقى الصبيان من حولى فقد كانوا يصرخون ويصيحون ويوجهون الانتقادات القاسية لبعضهم البعض .كان هناك حوالى مئتان صبى فى الفناء لكن من شدة الظلام لم تكن تستطع التمييز بين أعضاء العصابتين .رأيت هيكتور وهو يجرى وسط فناء ملعب كرة السلة ، كان أحدهم يجرى نحوه ممسكا غطاء علبة القمامة .وقع هيكتور علي ظهره ووقع منه المسدس مطلقا إحدي العيارات.

فسقط بالقرب منه صبى زنجى علي وجهه و الدماء تسيل من جرح فى رأسه .فجريت نحوه وركلته فى جسمه وكأنه سلة حبوب.

فجأة دفعنى أحدهم من الخلف فانبطحت علي الأرض الإسفلتية فى ملعب كرة السلة باسطاً

ذراعيا .حاولت أن أسند نفسى بيدىّ حين شعرت بجلدى يكاد يسلخ من كفى .فالتفت لأري من ذا الذى دفعنى فنظرت وإذا بمضرب بيسبول يرتطم بالأرض بجانب رأسى .وسمعت صوت المضرب وهو ينشق عند ارتطامه بالأرض .لقد كان من الممكن أن أقتل فقد كان قد صوبه نحوى مباشرة.

علت صرخة كبيرة من المومومس عندما قامت بقية عصابتنا بالهجوم فى الأماكن البعيدة.

«احرقهم يا صغيرى احرقهم» . تعثرت و أنا أقف علي قدمى وإذ «بالبيشوب» يصيبهم الارتباك ويهرولون هرباً فى الأزقة التى تنتهى عند شارع سانت إدوارد ، كان إسرائيل بجانبى يصرخ: «أقتل هذا الفتي هناك يا نيكى اقتله» .

كان يشير إلي فتي صغير جريح يحاول الهرب ولكنه كان يحجل وهو يجرى راكضاً خلف أعضاء البيشوب الهاربين .صوبت مسدسى عليه وجذبت الزناد .ولكن وقع المسدس منى واستمر هو فى الهرب .أمسكت المسدس بيدى الاثنتين وجذبت الزناد مرة أخري.

«لقد قتلته يا رجل لقد قتلته» . كان الفتي يتهاوي للأمام من وقع الرصاصة التى أصابت فخذه . وكان لا يزال يحبو عندما أمسكنى إسرائيل من يدى قائلاً: «هيا لنهرب يا صغيرى لقد جاء البوليس» . كنا نسمع صفارات وصياح رجال الشرطة وهم يقتربون من فناء المدرسة الأمامى ويحاصرون« البيشوب» وهم يحاولون الهرب إلي الأزقة للفرار .ركضنا فى الاتجاه المعاكس منتشرين فى فناء المدرسة الخلفى .كنت انظر خلفى وأنا أتسلق سياج باب مغلق بسلسلة .وعبر الظلام الدامس رأيت بعض الأولاد الذين كانوا لا يزالون مستلقين علي الأرض وآخرون كثيرون كانوا جالسين ممسكين بجراحهم .فالمعركة كلها لم تستغرق أكثر من عشر دقائق.

وهكذا جرينا لمسافة ست أو سبع أبنية حتي أصابنا التعب واضطررنا لأن نقف.ثم لحق بنا كارلوس وولد آخر وقفزنا كلنا فى مصرف مياه خلف محطة للوقود.

كان إسرائيل يحاول التقاط أنفاسه، وهو يضحك بشدة لدرجة أنه كاد أن يتقيأ .ثم قال لى وهو يضحك: «هل رأيت هذا المجنون يا نيكى؟ لقد كان يظن بأنه فيلم لراعى البقر، وكان يطلق الرصاص فى الهواء» .

كذلك كان الآخرون يلتقطون أنفاسهم ويضحكون أيضاً .فانضممت إليهم .فمكثنا علي ظهورنا فى المصرف نضحك حتي شعرنا بأن جوانبنا ستنفجر من كثرة الضحك .التقط إسرائيل أخيراً أنفاسه ووجه طرف إصبعه إلي فوق قائلا: «بانج بانج» ثم انخرط فى الضحك مرة ثانية.كنا كلنا نضحك ،

ممسكين ببطوننا متمرغين فى مياه المصرف.

شعرت بالراحة .أخيراً رأيت الدماء تسيل. و أطلقت النار علي أحدهم وربما أكون قد أصبته. ونجحنا أيضاً فى الهرب .لم أختبر من قبل مثل هذا الشعور بالانتماء كما شعرت به الليلة مع هؤلاء الأولاد فى المصرف .كان إحساسى بهم كأنهم عائلتى ، لقد شعرت ولأول مرة فى حياتى بأنه مرغوب فى وجودى.

اقترب منى إسرائيل، وضع يده علي كتفى قائلاً: «أنت ممتاز يا نيكى لقد كنت أبحث دائماً عن واحد مثلك منذ مدة طويلة .نحن من نفس النوع - فنحن الاثنان مجانين».

فانخرطنا فى الضحك مرة ثانية واعتقدت بأنه من الأفضل أن أكون مجنوناً ومرغوباً فيه علي أن أكون طبيعياً ووحيداً.

قال لنا كارلوس وهو ما يزال سعيداً: «آه ما رأيكم فى شراب الآن ؟ من لديه المال؟»

لقد كنا كلنا مفلسين .فقلت لهم: «سوف آتى ببعض المال».

قال إسرائيل، «ماذا ستفعل هل ستسرق أحداً؟»

قلت له: «هذا صحيح يا صغيرى هل تريد الانضمام إلى؟»

لكم إسرائيل يدى بقبضته وقال لى: «أنت ممتاز يا نيكى يا صغيرى .يا رجل أنت لا تمتلك لا قلباً ولا مشاعراً .. لا شيء علي الإطلاق .كل ما تريد أن تفعله هو أن تتشاجر .هيا بنا يا رجل لنذهب. نحن معك».

فألقيت بنظرة علي كارلوس الذى كان من المفترض أن يكون هو القائد .كان علي قدميه واقفاً مستعدا لتبعيتنا .وهذا كان بالنسبة لى أول دليل علي أنّ الأولاد مستعدين إتباع الأحقر بينهم، والأكثر تعطشاً للدماء والأكثر شجاعة.

خرجنا من المصرف وجرينا عبر الشارع إلي عتمة الزقاق .كان هناك نور مضاء فى الزاوية عند مطعم صغير .تقدمتهم فى الطريق إلي المطعم.

وهناك شاهدت ثلاثة أشخاص ، رجلين وامرأة، كان واحد من الرجال مع المرأة خلف الآلة الحاسبة .ورجلاً عجوزاً كان قد غادر مقعده للتو بعد أن فرغ من طعامه، واستعد ليدفع الحساب. فذهبت إليه ودفعته للخلف أمام الآلة الحاسبة .فالتفت إلىّ بدهشة وخوف ، كان فمه يرتجف وأنا افتح

المطواة أمامة وأغزها بخفة فى بطنه .قلت له وأنا أنظر للمال الذى بيده: « هيا يا رجل أعطنى إياه، ضعه هنا ».

تحرك الرجل الجالس خلف الآلة الحاسبة متوجهاً إلي التليفون الموضوع علي الحائط .نقر إسرائيل وفتح مطواه وجذب الرجل من قميصه .قائلاً له وهو يحاول جذبه بقوة ناحية الآلة الحاسبة: « يا رجل هل تريد أن تموت؟ هه؟ هه؟ » ثم سمعت المرأة وهى تحاول الصراخ فوضعت يدها فوق فمها لتكتم صرختها.

دفع إسرائيل الرجل نحو الحائط حيث التليفون وانتزع السلك منه .ثم قال: « حسناً ، هل تريد أن تطلب البوليس أيها الرجل العجوز؟ » ثم كرر سؤاله ثانية وهو يرفع السماعة ويدفعها إلي يده « هيا.. اطلبهم ». فأمسك الرجل بالسماعة بيده وهو مرتعب والسلك يتدلي أمامه.

أما أنا فصحت: « هيه ..أيها الرجل العجوز أنا لا يمكننى المكوث هنا طوال اللل ». فرفع إلىّ يديه المرتجفتين فخطفت الأموال من بين أصابعه .وقلت: « هذا كل ما أريده ».حاول أن يرد علىّ لكنه لم يستطع التفوه ولا بكلمة واحدة. ثم بدأ يتشنج مخرجاً من فمه بعض الزبد واختفت عيناه فى جفونه وسقط إلي الخلف مصدراً بعض العويل المثير للضحك.

قال أحد الأولاد: « هيا لنخرج من هنا ». خبط كارلوس الآلة الحاسبة بيده ففتحها وأخذ كل المال الذى بداخلها ، وفى الوقت الذى كنا نهرع فيه للخارج .وقع الرجل العجوز علي الأرض واضعاً يديه الاثنتين علي صدره، مصدراً بعض الأصوات المضحكة من فمه.

وهنا صاح إسرائيل قائلا: « انتظروا » قال هذا وهو يجلب بعض النقود المعدنية القليلة القيمة من الآلة الحاسب، فسقطت منه بعض السنتات علي الأرض .كان إسرائيل يضحك ويقول ساخراً: « يجب أن لا نترك أبداً أى مطعم دون ترك بعض البقشيش اللازم، ها ها ها ». فضحكنا كلنا.

كان الرجل والمرأة لا يزالان واقفين مستندين علي الحائط، أما الرجل الآخر فقد كان علي الأرض منحنياً للأسفل.

أمسكت بعلبة من السكر وقذفت بها الشباك الزجاجى.

فصاح بى كارلوس: « أنت فعلاً مجنون يا رجل » قال هذا وهو يجرى فى الشارع. « هذه الضجة ستجلب لنا شرطة بروكلين كلها .هيا بنا لنهرب من هنا ». سقط الرجل العجوز أخيراً علي وجهه ثم أسرعنا وركضنا نحو شارع مظلم متوجهين إلي المنزل ونحن نضحك ونصيح.

بعد شهرين قُبض علي كارلوس وحكم عليه بستة أشهر سجن .فى هذه الليلة كان لدينا اجتماع كبير فى قاعة بشارع ٦٧ لم يكن يُسمح لأحد بأن يدخل المدرسة بعد انتهاء اليوم الدراسى ، لكننا قمنا بعمل اتفاقية مع نائب الرئيس «فريبو شابلن» الذى كان أبوه يعمل راعياً للمدرسة.

لقد سمح لنا باستخدام قاعة المدرسة فى الليل حتي تجتمع العصابة لأنه كان يخشي علي ابنه .فى هذه الليلة فوضنا «إسرائيل» ليكون الرئيس وكنت أنا ضمن الاختيار الجماعى لأكون نائب الرئيس.

بعد اجتماع العصابة كانت لدينا حفلة فى قبو المدرسة .حيث جاءت الكثير من الفتيات فقام واحد من الأولاد ليعرفنى علي أخته ليديا التى كانت تسكن فى الجهة المقابلة للمدرسة .مكثنا هذه الليلة فى المدرسة ونحن ندخن الحشيش ونشرب النبيذ الرخيص، ونجلس علي السلالم نتعانق فى حين كان الآخرون يرقصون بخلاعة .كان بئر السلم مغطي بتروس حديدية ثقيلة وكان كل اثنين يصعدون فى الظلام ليمارسا الجنس هناك.

جذبت ليديا بقوة من يدها وقلت لها: «هيا بنا لنخرج من هنا» . لكنها حضنتنى ونحن خارجين وقالت لى: «أنا ملكك للأبد، يا نيكى، فى أى وقت تحتاجنى .أنا لك» .

توجهنا إلي حديقة واشنطن ، لكن لم يكن هناك أى مكان ذا خصوصية ما . فى النهاية رفعتُ ليديا من فوق السياج المغلق فوقعت تضحك فى وسط العشب فى الجانب الآخر .تبعتها هناك ثم استلقينا وسط الأعشاب الطويلة فى حضن بعضنا البعض .كانت تضحك وأنا أداعبها لكنى شعرت بأن هناك أحداً كان يراقبنا .نظرت إلي أعلي المبني المقابل للشارع، وإذ بى أري وجوهاً كثيرة من الفتيات المقيمات فى بيت الممرضات وهن ينظرن إلينا .كنا كمن يمارس الجنس علي خشبة المسرح فى الأوبرا

فاستعديت للوقوف ، سألتنى ليديا: «ماذا حدث؟»

فهمست لها وقلت: «انظرى هناك .المدينة كلها تشاهدنا»

فقالت لى وهى تجذبنى إلي الأسفل: «لا يهمنى كل هذا» .

كنا قد ذهبنا إلي هذه الحديقة عدة مرات من قبل لكنى لم أري أبداً مثل هذه الوجوه التى تنظر من خلف النوافذ.

وهكذا مرت الأشهر الأربعة التالية علينا . كانت مليئة بالمشاجرات والسرقات والنشاطات مختلفة للعصابة .قبضت الشرطة علىّ أربعه مرات ، لكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا ضدى أى شيء .وفى كل

مرة كنت أخرج فيها كانت بإنذار.

كان أعضاء العصابة يحبوننى ويحترموننى .فأنا لم أعد خائفاً، إلي أننى بت معها قادراً علي التشاجر فى وضح النهار كما الليل.

ذات ليلة قال لى واحد من «المومس» بأن «ليديا» تخوننى مع ولد من «الأباشى» . فاشتد غضبى وقلت له بأننى سوف أقتلها .فذهبت إلي شقتى لأحضر مسدسى .لكن ذهب أحدهم وأخبر أخو ليديا فذهب ليحذرها .وهكذا ذهبت إلي شقتها فوجدت أخيها الأكبر تكلمت معه .فقال لى بأنّ هناك شخصاً من «الأباشى» اسمه «لويس» خطف «ليديا» فى الليلة السابقة من الشارع وصفعها بقوة لتخبره بمكانى حتي يستطيع قتلى.

تركت شقته وذهبت إلي شقة إسرائيل .ومضينا نبحث عن «الاباشى لويس» الذى قال لنا عنه.

وجدناه أخيراً فى زاوية شارع «لافاييت و فت جرين» أمام بيت «هارى» للّحوم .فالتف معى ستة آخرين من «المومس» فى دائرة صغيرة .لكمت الولد وطرحته أرضاً ثم ضربته بماسورة حديدية. كان يتوسل إلى كى لا أقتله .كانت بقية العصابة تضحك فأخذت وقتى وظللت أضربه وأضربه حتي تغطي بالدماء تماماً .ركض كل من كان واقفاً معه، فى حين أننى لم أكن قد انتهيت بعد من ضربه. أخيراً لم يستطع الاستمرار فى الدفاع عن نفسه فوقع علي الأرض ، فكسرت علي كتفه ماسورة الحديد وظللت أضربه بها حتي فقد الوعى فى بركة من الدماء.

قلت له: «أيها البائس سوف ألقنك درساً حتي تتعلم كيف تصفع فتاتى بعد الآن» . انقسمنا وسرنا كل فى سبيله، أما أنا فقد كنت مشتاقاً جداً للوصول إلي «ليديا» كى أخبرها بما حدث وكيف أنى دافعت عن كرامتها قبل أن أستعد لقتلها.

صارت المشاجرات فى بداية الصيف تزداد ضراوة .فقد كان الحر شديداً بداخل الشقق وكنا نضطر إلي البقاء فى الخارج طوال الليل .وكان من النادر لنا أن نقضى ليلة دون أن نمارس فيها أى نشاط إجرامى.

لم يكن أحدا من أعضاء العصابة يمتلك سيارة . فإذا أردنا الذهاب إلي أى مكان بعيد كنا نستخدم المواصلات أو نسرق سيارة .وأنا لم أتعلم أبداً قيادة السيارات، لكن ذات ليلة جاءنى «مانى درانجو» ليقول لى: «هيا لنسرق سيارة و نتنزه بها قليلاً» .

فسألته: «هل لديك سيارة معينة فى ذهنك؟»

«نعم يا رجل هناك خلف هذا المبني .فهى جميلة وبعض الحمقي كانوا قد تركوا فيها المفاتيح» .

ذهبت معه وإذ بها واقفة هناك أمام المبني السكنى .كان مانى علي حق فقد كانت جميلة جداً. وكانت تحمل ماركة «شيفورليه» لها سقف متحرك كان مفتوحاً .فقفزنا فيها وبدأ «مانى» يقودها. فانزلقت فى المقعد بجانبه وأشعلت سيجارة وأنا ألقى ببواقى طفاية السيجائر خارج الباب مثل أى رجل غنى ومهم .كان «مانى» يحرك عجلة القيادة للأمام والخلف مصدراً بعض الأصوات بفمه مثل أصوات فرملة العجل وسيارات السباق.

رمممممممم .رمممممممم !روووووووور !فبدأت أضحك.

سألته: «يا مانى هل تستطيع فعلاً قيادة هذه السيارة؟»

فأجابنى «بالطبع يا رجل انظر لى فقط» .

أدار السيارة بالمفتاح الذى كان معلقاً فيها .شد ناقل الحركة فى الاتجاه العكسى ودفع بقوة قدميه علي دواسة البنزين وأندفع بعنف إلي منفذ توزيع للشاحنات .ثم بعد ذلك سمعنا صوت زجاج يكسر.

ضحكت وقلت له: «ها أيها الرجل، أنت حقا سائق بارع .تعرف كيف تسيطر علي هذا الشىء. لنري كيف ستقود هذه السيارة إلي الأمام» .

دفع «مانى» الرافعة بقوة للسير، ثم قمت بتثبيت نفسى فى المقعد حيث انطلقت السيارة بقوة للأمام لتصطدم بخلفية سيارة أخري .فسمعنا وللمرة الثانية صوت الحطام ورنين الزجاج المكسور.

كنا نضحك بشدة لدرجة أننا لم نعلم معها بوجود الرجل صاحب السيارة الذى خرج لتوه من المبني وكان يصرخ فينا.

صاح قائلا: «ابتعدوا عن سيارتى يا حثالة» . كان يحاول أن يجذبنى بقوة من السيارة.لكن «مانى» ترك السيارة تسير فى الاتجاه المعاكس فضرب الرجل بها حتي أفقده اتزانه ثم سحبه إلي الخلف .كان الرجل لا يزال ممسكاً بباب السيارة، فأخذت زجاجة مياه غازية من المقعد الأمامى وكسرتها علي يده وهو يحاول بيئس التمسك بباب السيارة صارخاً من شدة الألم .لكن «مانى» دفع السيارة بقوة للأمام فى الشارع .كنت لا أزال جالساً فى مقعدى أضحك .ألقيت الزجاجة فى الشارع وسمعت صوت تحطيمها ونحن نسرع بالسيارة .لم يكن يعرف «مانى» كيف يقودها .لف من زاوية الشارع فى الاتجاه المعاكس لحديقة «أفينو» . تفادينا الاصطدام بسيارتين ونحن نسير، لكن مع ذلك قمنا بدفع سيارة أخري إلي الشارع الجانبى ,كانت تصدر ونحن ندفعها صوتً ضجيج عال، وهى تحاول تفادى

الاصطدام بسيارة أخري .كان كلاً منا يضحك بهستيرية .جري مانى أولاً إلي محطة الوقود ثم استدار إلي شارع جانبى.

قال مانى: «لنحرق هذه السيارة».

فقلت له: «لا يا رجل، فهى سيارة جميلة .لنحتفظ بها .هيا لنريها لبقية الفتيات».

لكن مانى لم يكن يعرف كيف يديرها فاصطدمت بشاحنة أخري من الخلف عند الإشارة .فقفزنا منها وركضنا نحو الشارع الجانبى تاركين السيارة وهى محطمة تحت الشاحنة.

كان مانى مثلى تماماً، لم أكن أعلم كم شعر بالخوف.

هكذا سارت أيامنا كل يوم كان مليئاً بالنشاطات الإجرامية والوحشية .كان الليل هو أسوأها .ذات ليلة خطف «تونى» وأربعة آخرين معه، سيدة كانت فى طريقها إلي منزلها ,جذبوها إلي داخل حديقة ثم اعتدوا عليها كلهم، كل واحد مرتين .حاول «تونى» أن يخنقها بحزامه فى النهاية لكنه لم يستطع .وهى تعرفت عليه بعد ذلك وألقى فى السجن لمدة اثنتى عشر عاماً.

بعد حوالى أسبوعين أمسك ستة عشر من «المومس» ولداً إيطاليا كان يسير عبر منطقة نفوذنا. حاصرناه وضربناه حتي وقع أرضاً . وأنا وقفت فوقه وهددته بالمطواة موجهاً إياها نحو حنجرته ثم مشيرا إلي أزرار قميصه. فألقى بالمطواة بقوة من يدى وهو يلعننى ، لكن قبل أن أتحرك قام تيكو بأخذها ثم أصابه فى وجهه .صرخ الولد حيث نزع تيكو القميص عنه ورسم حرف «م» الخط الكبير علي ظهره بالسكين .وقال له: «يا رجل، إن هذا سوف يعلمك أن لا تقترب من منطقة المومس ثانية». ثم ركضنا بعد ذلك بعد أن تركناه وحده ينزف فى الشارع الجانبى.

كانت الجرائد تكتب كل يوم عن جرائم قتل فى الأفنية الأمامية والأنفاق والشوارع الخلفية وطرق المبانى السكنية و الأزقة .كانت هناك مشاجرة تقريباً كل يوم.

وضع كثير من مسئولى مدرسة «بروكلين تيك» المتاريس القوية حول كل الأبواب والنوافذ للمدرسة حتي الطابق الخامس.

كان الكثير من صاحبى المتاجر يشترون الكلاب البوليسية ويربطوها بالمحلات ليلاً لحمايتها.

صارت العصابات أكثر تنظيماً حيث تكونت عصابات جديدة أيضاً .ظهرت ثلاث عصابات جديدة فى منطقتنا .«السكوريون»، «الفيكرويس» «و» الكوينتوس.

كنا قد علمنا فيما بعد بأن شرطة نيويورك قد منعت أى شرطى من أن يفتش فتاة .لذا كنا ندع الفتيات ليحملن لنا أسلحتنا من المسدسات والمطاوى .فإذا ما حدث وأوقفنا شرطى ليفتشنا كانت تقف الفتاة بالخلف صارخة وشاتمة وقائلة :« أيها الشرطى القذر .اتركه لشأنه .ليس لديه شيئاً .إنه لا يملك سلاحاً .لماذا لا تأتى لتفتيشى أنا وسوف ألقيك فى سجنك آنذاك .أنت أيها الشرطى هل تريد أن تضع يدك على؟ هيا؟»

تعلمنا كيف نصنع البنادق الرشاشة التى تحمل أعيرة ٢٢ باستخدام أريال راديو سيارة وبعض ما يستخدم فى مزاليج الأبواب .أحياناً كانت هذه البنادق تنفجر فى أيدى الصغار أو تطلق أعيرتها وتصيبهم بالعمي .لكننا كنا ننتجهم بكميات كبيرة ونبيعهم إلي عصابات أخري بالرغم من أننا كنا عالمين بأنهم قد يستخدموها ضدنا إذا أتيحت لهم الفرصة.

فى الرابع عشر من شهر يوليو اجتمع جميع أعضاء العصابات فى جزيرة كونى .يومها كتبت الجرائد تقول :بأن ما يقرب من ٨,٠٠٠ من أعضاء العصابات فى سن المراهقة يجتمعون فى جزيرة كونى .لم يدفع لهم أحداً .كانوا يدفعون الباب ويدخلون دون أن يتجرأ أحد علي منعهم وكان كذلك كل من يركب المواصلات فى الأنفاق.

وفى أول شهر أغسطس قُبض علي «إسرائيل» . وسيق إلي السجن لكنه ما خرج حتي أخبرنا أموراً مثيرةو عنه ثم طلب إلينا السماح له بأن يبتعد بعض الشىء حتي تهدأ الأمور .فوافقنا فانتخبتنى العصابة لأكون الرئيس و «إسرائيل» نائباً للرئيس حتي تهدأ الأمور .كان قد صار لى حين عينت رئيساً ستة أشهر فقط فى العصابة.

بعد وقت قليل عرفت بأن عصابة «المومس» كانت تسبب الرعب لكثيرين وأنا أيضاً كنت قد اكتسبت شهرة كبيرة عن مدي حبى للدماء.

ذات ليلة ذهبنا جميعاً إلي حفل راقص كان يرعاه المركز التابع لكنيسة «سانت إدوارد وسانت مايكل» . كانت هذه الكنيسة تريد جذب أطفال الشوارع إليها بفتح نادٍ ومطعمٍ صغيرٍ فى الشارع القريب من قسم الشرطة .كى يذهب إليه الأولاد فى عطلات نهاية الأسبوع.

كانت تأتى فرق عزف كبيرة يوم الجمعة من كل أسبوع، حتي تجذب إليها كل أعضاء العصابات للحفل الراقص .فقد كانوا يقفون فى كل مكان يحتسون فيه البيرة والنبيذ .ونحن فى الأسبوع السابق لهذه الليلة كنا قد شربنا حتي السُكر، وعندما حاول القس تهدئتنا ضربناه وبصقنا عليه .فجاء البوليس وطاردنا جميعنا.

كان المكان فى المساء دائماً ينقلب إلي مكان للشغب والعربدة.

ذهبت فى هذه الليلة مع «مانى وباكو» . كنا قد أسرفنا جداً فى الشراب وكنا ندخن البانجو أيضاً. وفى هذه الأثناء رأيت فتاة شقراء ورقصت معها أكثر من مرة .فحكت لى عن أخيها الذى يعانى من مشاكل مع عصابة «الرؤساء الأشباح» . لأنهم يريدون قتله.

فسألتها، «أين أخوكِ» ؟ «إذ لن يستطيع أن يؤذيه أحداً إن أمرت أنا بذلك .دعينى فقط أتحدث معه» .

أخذتنى إلي جانب من الغرفة ثم عرفتنى علي أخيها .حينئذ قص لى عن عصابة «الرؤساء الأشباح» الذين كانوا يريدون قتله فوق «بيدفورد افينو» لأنه كان قد واعد أحد خصومهم .كان واضحاً من أن الولد قد أفرط فى الشراب وكان يبدو بأنه خائفاً.

فقلت له «سأقول لك شيئاً .لقد أُعجبت بأختك كثيراً وسوف آخذها ، لذلك سأعتنى بك أنت أيضاً» .

كنت قد واعدت الفتاة لآخذها إلي السينما .ثم أمرتها بأنه من الواجب عليها أن تفعل كل ما آمرها به، لكونى رئيساً للموموس .كان يبدو عليها الخوف الشديد لذا وافقت علي الخروج معى لكن بشرط ألا يقترب إليها أى شخص آخر .حينئذ قَبلتها ووعدتها بأنه طالما هى معى وتطيع أوامرى فسوف أحميها.

بعد قليل ، وإذ بثلاثة من أعضاء عصابة «الرؤساء الأشباح» يدخلون من الباب .كانوا يرتدون معاطف طويلة وسراويل مختلفة الألوان بها سلسلة كبيرة للمفاتيح .فجاء واحد من الأولاد ليتسكع حول الفتاة يلوح بسلسلة مفاتيحه .فتراجعت فوضع يده عليها .قائلاً لها: « يا صغيرتى ما رأيك فى أن تخرجى معى؟ أخى لديه سيارة فى الخارج ويمكننا أن نأخذ المقعد الخلفى لنا تماماً» .

فقلت له: «هل تريد أن تقتل؟»

«يا رجل أنت حقاً عظيم» أجابنى ضاحكاً ومتابعاً حديثه: «فنحن نخطط كى نقتل صديقك السكير وربما قد نقتلك أنت أيضاً معه يا غلام» .

صاح حينئذ «مانى» بسخرية وهو ينتقده بعنف .فألتفت الولد للخلف وقال: «من قال هذا؟»

بدأ «مانى» يضحك لكنى كنت أشعر بعدم الراحة لذلك قلت: «لا أحد» . بدأت أبتعد، ولكن الولد ذهب إلي «مانى» وطرحه أرضاً .كان «مانى»من أقرب الأصدقاء إلى، إلي جانب

«إسرائيل» .لذلك لا يمكن لأحد أن يضربه ويفلت من يدى .فاندفعت ولكمت الولد بعنف فى ظهره فوق كليتيه بمسافة بسيطة.

فوضع يده علي جانبيه صارخاً من شدة الألم.

وقف «مانى» علي قدميه مخرجاً مطواته من جيبه .وأنا بحثت عن مطواتى، عندما بدأ باقى الأولاد يلتفون حولنا مشكلين نصف دائرة .كانوا أكثر منا عدداً لذلك كانت فكرة الشجار معهم مستحيلة لذلك تراجعنا نحو الباب .لكن ما أن كدت أصل إلي الباب حتي اندفعت سكين نحوى، كان قد قذفها على واحداً منهم بقوة، لقد كان ولداً ضخماً .أخطأتنى السكين لكنها قطعت معطفى .فاقترب منى لكنه تعثر أمامى فضربته من الخلف علي رأسه وركلته وإذ هو فى أسفل السلم .فقفز على اثنان آخران منهم . لكن شد «مانى» معطفى ثم أسرعنا بالجرى. فصرخت: «هيا بنا .لننادى علي المومومس ولنحرق هذا المكان».

نظر الأولاد بعضهم لبعض .فهم لم يكونوا يعرفون بإنى من المومومس فقد كنت أرتدى فى هذا المساء بذلة وربطة عنق .فابتدءوا يتقهقرون فى الغرفة عندما تركت أنا «ومانى» المكان.

فى اليوم التالى دعوت كلاً من «مانى وباكو» كنا نتعقب «سانتو» من عصابة «الرؤساء الأشباح» الذى كان يهدد أخا الفتاة الشقراء .بدأنا أنا «ومانى» نحتسى الشراب حتي السُكر .ثم توجهنا إلي محل يبيع الحلوي فى شارع ٣ فلمحت أحد أعضاء «الرؤساء الأشباح». فسألته: «من منكم يا شباب» سانتو فقال لى أحدهم وهو ينظر إلى من طرف رأسه الطويل المدبب. فقلت: « آه يا صغيرى ما اسمك؟ سانتا كلوز؟»

ضحك «مانى» ونظر الولد إلى من فوق ونادانى بالأبله.

فقلت له: «هل تعرف يا صغيرى بأنك ترتكب خطأً أحمقاً الآن؟ هل تعلم من هم المومومس»؟

فأجابنى: «نعم لقد سمعت عنهم .فهم لا يعرفون أكثر من التسكع هنا».

«رائع واليوم ستراهم وهم يتسكعون يا صغيرى فعلاً .هؤلاء هم «المومومس» اسمى نيكى .وأنا الرئيس .لسوف تتذكر هذا الاسم دائماً »

حاول صاحب المحل استخدام الهاتف .فوضعت يدى فى جيبى وضغطت أصابعى كأنى أحمل مسدساً فى جيبى .ثم صحت فيه «هه ..أنت .ضع السماعة جانباً».

كان الخوف يعترى الباقين فقد بدءوا يتراجعون .فسرت إلي سانتو وصفعته مرتين علي

وجهه .وكنت لا أزال واضعا يدى الأخري فى جيبى .وقلت: «ربما ستستطيع يا صغيرى أن تتذكرنى الآن».

فحاول الابتعاد عنى فلكمته فى بطنه، «هيا» ناديت «باكو» قائلاً: «لنخرج من هنا، فهؤلاء الأولاد مرتعبين ثم استدرنا علي أعقابنا لنسير فى المرة القادمة قل لأمك أن لا تنسي بأن تضع لك حفاظات قبل أن تسمح لك بالخروج من البيت». ضحكنا كلنا ثم مشينا.

عندما خرجنا إلي الشارع وضع « مانى » يده فى جيب معطفه وأشار بإصبعه من تحت ملابسه قائلاً « بانج . . بانج، أنت ميت الآن». ضحكنا ومن ثم مشينا فى الشارع.

فى تلك الليلة جاء «إسرائيل» إلينا وأخبرنا بأن عصابة «الرؤساء الأشباح» ستنظم مشاجرة كبيرة معنا بسبب ما حدث اليوم فى محل الحلوي.

مررت أنا و«إسرائيل» بـ «مانى» وذهبنا إلي منطقة نفوذ «الرؤساء الأشباح» حتي نفاجئهم قبل الوقت المحدد .وما أن اقتربنا من جسر بروكلين حتي انقسمنا فرقاً .فذهب «إسرائيل» و «مانى» إلي المبني وتوجهت أنا إلي الشارع .بعد لحظات سمعت «إسرائيل» يصرخ فهرعت أبحث عنه خلف المبني.فإذ بهم قد فاجئوا واحد من أعضاء «الرؤساء الأشباح» فى الشارع الجانبى حيث كان يصرخ بين أيديهم طالباً الرحمة.

فأمرتهم قائلاً: «اخلعوا عنه سرواله». ففتح الأولاد الحزام و خلعوا عنه سرواله.ثم رموه فى البالوعة ثم هرعوا وخلعوا عنه سرواله الداخلى أيضاً.

« قف علي قدميك الآن وابدأ فى الجرى». راقبناه وهو يجرى خائفاً فى الشارع .فكنا نضحك وننعته بأبشع الاسماء.

قال إسرائيل: «هيا بنا الآن » لا يوجد أحد آخر منهم هنا .لنعود إلي المنزل فبدأنا نمشى حتي حاصرتنا عصابة من اثنتى عشر فرداً أو ربما خمسة عشر من عصابة «الرؤساء الأشباح».

لقد كنا قد وقعنا فى كمين .لاحظت بأن أحد أعضاء عصابة يهودية كان معهم .بعدها جاء إلى أحدهم ليهددنى بسكين فضربته بماسورة مياه علي رأسه .ثم جاء آخر فقفزت وهبطت عليه وضربته بالماسورة فى جانب وجهه.

لكنى شعرت بعد ذلك بانفجار فى مؤخرة رأسى فسقطت علي الرصيف فى لحظتها كنت أشعر بأن رأسى كادت أن تسقط من بين كتفى .فحاولت أن أنظر فوقى و لكن ركلنى أحدهم

بحذائه الذى كانت به بعض المسامير .ثم ركلنى شخصاً آخر من الخلف .حاولت القيام ولكنى كنت قد ضربت أنا الآخر فوق عينى بماسورة .كنت أدرك تماماً بأنهم سيقتلونى إذا لم أتمكن من الهرب ولكنى لم أكن أستطيع الوقوف .فارتميت علي بطنى فوق الرصيف وشعرت بالولد ذا الحذاء الملىء بالمسامير يضرب مؤخرة رجلى .كانت أوتاده مثل الموس الحامى .شعرت بحدة وقسوة الموس وهو يجتاز سروالى ثم يقطع لحمى فى منطقة وسطى وفخذى .كان آنذاك قد غشى على.

وآخر شىء كنت أتذكره هو «إسرائيل» و «مانى» وهم يسحبونى بعيداً إلي زقاق خلفى .كنت أعرف بأن إصابة رجلى كانت بليغة .لذلك كانوا يقولون لى: «هيا ..هيا أسرع... هؤلاء السفلة سيعودون فى أية لحظة .علينا أن نسرع» .

عندما أفقت للمرة الثانية ، كنت فى شقتى فقد سحبونى كل الطريق حتي وصلوا بى إلي المنزل ثم حملونى إلي الطابق الثالث حتي غرفتى .أيضاً ساعدونى حتي وضعونى فى سريرى. بعدها عاد ليغشي على من جديد .كانت الشمس تشرق من خلف نافذتى وأنا أحاول القيام من السرير .كنت متصلباً جداً لدرجة أننى لم استطع التحرك .كان الجزء الأسفل من جسمى مغطي تماماً بالدماء الناشفة .حاولت خلع سروالى عنى ، ولكنه كان ملتصقا بجسمى حتي شعرت بأننى كنت أسلخ جلدى .ترنحت علي درجات السلم حتي وصلت إلي الحمام العام فوقفت تحت الماء بملابسى حتي يذوب الدم المتجلط بعض الشىء عنها فأتمكن من خلعها . كان وسطى وفخذاى مجروحين بعمق وبهما كدمات كثيرة .ترنحت عائداً صعدت درجات السلم عرياناً متذكرا الولد الذى كان يجرى فى الشارع وسرواله مخلوعاً عنه.

«هذا الولد» خطر ببالى، ماذا لو رآنى الآن؟ انسحبت إلي غرفتى وقضيت معظم اليوم وأنا أحاول مداواة جراحى .كونى رئيساً «للموموس» هذا أمراً عظيماً ، ولكن مرت أوقات كثيرة كدت أقتل أو أموت فيها .هذا فعلاً ما كان ممكناً أن يحدث لى فى الماضى.

الفصل السادس

الذين أحرقوا الجحيم

فى هذا الخريف جاء إلى «لويس» أخى الذى كان يعيش فى «برونكس» لزيارتى فى شقتى متوسلاً إلى كى أعود وأعيش معه.

كان قد سمع عن ما أعانيه من مشاكل مع شرطة نيويورك .فقال لى: «نيكى أنت تلعب بالنار وهذا خطر .سوف تعرض نفسك للقتل» . وهكذا أعاد على هو وزوجته هذا الكلام مراراً وتكراراً ، كانوا فعلاً يريدون منى الانتقال للعيش معهم .لكنى لم أتمكن إلا من الضحك عليهم.

سألته: « كيف تريدنى أن أعود و أعيش معك؟ لا أحد يرغب فى وجودى فكيف قررتم بأنكم فى حاجة إلى؟»

أجابنى: «هذه ليست الحقيقة يا «نيكى» .نحن جميعنا نريدك» . «فرانك» و «جين» أيضاً، كلنا نريدك بأن تعود .ولكن يجب أن ترغب أنت فى العودة.

فقلت له: «اسمع .لا أحد يرغب فى وجودى .وأنت لست إلا شخصاً مزيفاً .أنت لست «فرانك» أو «جين» أو حتي بابا أو ماما» ...

فقاطعنى فرانك قائلاً: «توقف هنا لحظة، بابا وماما لا يزالوا يحبونك» .

«حقا؟ إذاً فلماذا أبعدونى عن المنزل؟ قل لى هل تستطيع الإجابة على هذا السؤال يا ذكى؟»

«لقد أرسلوك إلي هنا لأنهم لم يكونوا يعرفون كيف يتعاملون معك .فأنت تشبه شخصاً برياً ....كأنك كنت تهرب دائماً من شىء ما ولطوال الوقت» .

«حقاً؟ نعم ربما كنت فعلاً أهرب منكم أيها السقماء .اسمع، أجبنى، هل تعلم كم مرة حاول أبى أن يجلس ويتحدث معى؟ مرة .هى مرة واحدة فقط ، تلك التى جلس فيها وتحدث إلى».

لقد حكي لى يومها قصة غبية عن طائر ما .مرة واحدة فقط .هذا كل شيء .يا رجل فلا تقل لى بأنه يحبنى .فهو لم يكن لديه الوقت إلا لنفسه.

وقف لويس وقاطعنى قائلاً: «نيكى»... ألا تفهم؟

«لماذا على أن أذهب إلي منزلك؟ حتي تعود بى إلي المدرسة كما فعل ، فرانك؟

لا أنا هنا أعيش كما يحلو لى .فلدى الآن ٢٠٠ ولد يفعلون كل ما آمرهم به و٧٥ فتاة لا تمانع من أن تخرج معى فى أى وقت أطلبه منها .هم أيضاً يقدمون لى المال الذى احتاج. ويساعدونى علي دفع الإيجار .حتي الشرطة نفسها تخشانى .فلماذا على أن أعود معك إلي المنزل؟ العصابة هى عائلتى الآن .وهذا كل ما احتاج إليه.

جلس لويس علي جانب سريرى محاولا إقناعى بأنه سيأتى يوم وسيتغير فيه كل هذا .أكد لى بأنه إن لم أقتل أو أسجن، فسيأتى يوم أحتاج فيه إلي وظيفة، ولذلك فأنا محتاج إلي التعليم.

لكنى قلت له بأن ينس الأمر برمته .فلدى الآن ما أعيش لأجله ولن أتراجع أبداً عما أنا فيه. فى مساء اليوم التالى، كنت جالساً وحدى فى غرفتى فجأة ابتلعتنى مشاعر الخوف التى كنت إخفائها لسنوات طوال . جلست علي سريرى وظللت أشرب حتي شعرت بدوار شديد وسكرت حتي لم أستطع الجلوس. نمت فى هذه الليلة بملابسى فأنا لم أكن مستعداً لما قد اختبرته فى تلك الليلة ... كوابيس ..كوابيس .. دامية ومفزعة .. حلمت بأبى .كان مقيداً فى كهف، وكانت له أسنان كالذئب ويغطى جسده شعر غزير. كان يعوى بطريقة تثير الشفقة وكنت أريد أن أربت علي ظهره ، لكنه كان خائفاً منى لدرجة أنه كان يريد أن يعضنى.

ثم رأيت طيوراً .كان وجه لويس يظهر أمامى ثم يختفى وهو يركب علي أحدها .يطير بحرية فى السماء .ثم حاصرنى ملايين الطيور التى كانت تثقب جسدى وتنقر عينيى .فى كل مرة كنت أتحرر منهم كنت أري لويس وهو يطير فى السماء، مثل بقعة علي ظهر

الطائر الذى كان يفرد جناحه ليطير فى كل اتجاه.

قمت من النوم وأنا أصرخ، «أنا لست خائفاً .لست خائفاً» . ولكنى كلما كنت أعود للنوم، كنت أري أبى وهو مقيد فى الظلام والطيور وهى قادمة لمهاجمتى.

ظل تأثير هذا الحلم يؤرقنى . فبقيت أكثر من سنتين خائفاً من العودة للنوم . وفى كل مرة كنت أخلد فيها إلي النوم كان هذا الحلم يراودنى .كنت أتذكر أبى وأتمني بأن يأتى إلي نيويورك ليخرج منى الأرواح الشريرة .فقد كنت مقيداً بالإحساس بالخوف والذنب .وكنت أحاول كل ليلة مقاومة النوم وأنا أقول مراراً وتكراراً: «لا فائدة .لا فائدة .ليس هناك أى مخرج .ليس هناك أى مخرج» . كانت نشاطاتي الإجرامية هى فقط التى كانت تحافظ علي عقلى.

أصبحت عصابة المومس جزءاً لا يتجزأ من حياتى .فبالرغم من قوتنا إلا أننا كنا نبرم بعض الاتفاقيات مع عصابات أخري .ففى عام ١٩٥٥ كانت عصابة حارقى الجحيم من «وليامسبرج» يقتربون منا محاولين إبرام اتفاقية معنا.

كان الوقت يقترب من الليل عندما تجمع عدد كبير هنا فى حديقة شارع ٦٧ لمناقشة المشاجرة القادمة التى ستكون مع «البيشوب» .

رفعت عينى فرأيت وإذ بثلاثة أولاد يقتربون منى فى الظلام متجهين نحوى .كنت منتبهين لقدومهم لذلك أرسلنا بسرعة واحداً من «المومس» ليسير مختبئاً فى الظلام وهم يقتربون إلينا.

صحت: «حسنا ما الذى تريدونه؟»

تكلم أحدهم وقال: «نحن نبحث عن» نيكى قائد «المومس» .

كنت خائفاً من أن تكون خدعة . فقلت لهم : «حقاً و ماذا تريدون من و نيكى؟»

فقالوا لى «يا رجل، اسمع هذه ليست خدعة .نحن فى ورطة ونريد أن نكلم نيكى» .

كنت لا أزال متشككاً بعض الشيء لذلك سألتهم: «ما نوع المشكلة؟»

«اسمى ويلى البوتش» هكذا قال أحدهم وهو يقترب منى كثيراً حتي استطعت رؤيته .فقال

:« أنا قائد حارقى الجحيم ونحن نريد مساعدتكم».

الآن أصبحت متأكداً من حسن نيته «ما نوع المساعدة التى تريدون؟»

فقال: «هل تسمع عن الرؤساء الأشباح؟» سألنى هذا وهو يشير إلي الولد الذى كان علي يمينه.

نعم، لقد سمعت عنهم .فقد كانت قصتهم فى كل الجرائد.

أما الولد الذى كان عن يمينه فهو صاحب القصة . كان «أيك» فى الرابعة عشر من عمره يعيش فى شارع «كيب» .كان يلعب مع صبيان آخران يوم هاجمتهم «عصابة الرؤساء الأشباح». وقد استطاع الصبيان الآخران الهرب . لكن «أيك» لم يستطع فأخذته العصابة وأوثقته بالسياج .وعندما حاول مقاومتهم هجموا عليه وجروه عبر الشارع إلي قبو ، وهناك -طبقاً لما قالته الجرائد -أوثقوا رجليه ويديه معاً وظلوا يركلوه ويصفعوه حتي فقد الوعى .ثم سكبوا سائلاً كحولياً علي رأسه وأشعلوا به النيران .لكنه ترنح إلي الشارع خارجاً حيث انهار فى الطريق فالتقطته سيارة نفط كانت عابرة.

ألقيت نظرة سريعة علي الولد الصغير الذى قدمه لى «ويلى ألبوتش»عنه باسم «أيك». كانت يدا «أيك» مربوطتان وكذلك قدماه بالشاش أما وجهه فكانت فيه بروزاً وجروحاً عميقة.

أكمل ويلى الحديث قائلاً : «أنتم وحدكم القادرين علي مساعدتنا .فنحن نريد أن نكون متعاونين دائماً معكم .فالكل هنا يهاب المومس ونحن نطلب منكم المساعدة لدخول المعركة مع الرؤساء الأشباح .فإذا لم ننتقم لأيك فسنكون جبناء».

كانت بقية العصابات تعرفنى وتعرف الكثير عن «المومس». ولم تكن هذه هى المرة الأولي التى يأتى فيها إلينا أحد ليستنجد بنا .وكنا سعداء جداً لتقديم المساعدة لأنها تمنحنا فرصاً أكبر للمشاجرة.

«ماذا لو لم نساعدك؟» أجبته.

«إذا فسوف تصبح منطقة نفوذنا ملكاً لعصابة الرؤساء الأشباح. ففى الليلة الماضية جاءوا إلي مقاطعتنا وأحرقوا محل الحلوي التابع لنا».

«أحرقوا محل الحلوي التابع لكم؟ إذا لسوف أحرقهم .كلهم .فى مساء الغد سآتى إلي

مقاطعة حارقى الجحيم لنخطط كيف سنقتل هؤلاء المتأنقين».

تركت منزلى فى الليلة التالية أثناء الظلام وتوجهت إلي «ويليامسبرج». التقطت معى فى الطريق عشرة من أعضاء عصابتى .وأثناء سيرنا فى المنطقة كنا نشعر بتوتر فى الجو .فقد كانت عصابة «حارقى الجحيم»خائفة، حيث خرجوا إلي الأسطح .وبدءوا يمطرونا بوابل من الزجاجات والحجارة .من حسن حظنا بأننا علمنا بدوافعهم العدائية فاختبأنا سريعاً وراء باب مبني من المبانى هناك ، تحاشياً لخطر الزجاجات والحجارة التى كانت تتساقط علينا من فوق.

ثم طلبت ممن معى بأن يبقوا فى أماكنهم فى حين صعدت أنا إلي الطابق الأخير .هناك حيث وجدت سلماً ثم باباً يقودى إلي السطح.

وأنا افتح الباب بهدوء وجدت بعض الصبية أمام الباب عند طرف السطح ينظرون للأسفل .فتسللت ببطء شديد إلي الداخل واختبأت وراء ماسورة لطرد الهواء الخاص بالتكييف.

بعدها وأنا أتسلل وراء اثنين منهم، ربت علي كتف أحدهم .فصرخ :«آهههههه»، وهم ما أن سمعوه حتي صرخوا .وكادوا يقعون من فوق السطح.

نظروا وراءهم وعيونهم ممتلئة رعباً وأياديهم تمسك بطرف السور وفمهم مفتوح من هول المفاجأة .هكذا كانوا يتمتمون طوال الوقت :«هههههه»

لم أستطع أن أخفى ابتسامتى.فقلت لهم: « أهلاً، يا صغارى، فأنا نيكى .من أنتم؟ هل أنتم من طيور البوم أو ما شابه ذلك؟»

هههههه ! نيكى؟ .هكذا تمتم واحد منهم.

«نعم يا صغيرى .فأنا رئيس عصابة المومس .لقد جئنا لمساعدتكم إلا إذا قتلتمونا أولاً. أين هو قائدكم؟ أين ويلى البوتش هذا ؟»

كان «ويللى» يقف علي سطح آخر .فأخذنى إليه نحو خمسة عشر شخصاً من أعضاء عصابة «حارقى الجحيم» الذى كانوا قد التفوا حولنا بعد أن انضم إلى بقية عصابتى.

وهنا أخبرنى «ويلى» بأنه كان يحاول صد هجوم عصابة «الرؤساء الأشباح» التى لم يكن يعرف متي ستظهر ولكنه قد فشل .إذ كان الهدوء يسود المنطقة فى تلك الليلة وهم لم يكونوا

يعرفون متى ستظهر العصابة وتقطعهم إرباً .حتي الشرطة كانت تعرف بأن هناك حرب عصابات ستدور ولكنهم لم يكونوا قادرين علي فعل شيء . إذ ليس بإمكانهم أن يمنعوها.

كان «ويلى» يمسك رشاشاً بيده ، لكن ما عرفته هو بأن بقية العصابة لم تكن تملك أية أسلحة.

سمعته تماماً حتي انتهي من حديثه ثم بدأت أخطط للمعركة. ساد صمت طويل وسط العصابة عندما كنت أتكلم .فقلت لهم: «سبب انهزامكم الدائم هو، لأنكم تأخذون دائماً موقف المدافع .فأنتم تسمحون لهم بأن يأتواإلي منطقتكم ثم تبدأ ون بالدفاع عنها .يا رجال إن الطريقة المثلي للمشاجرة هى أن تذهبوا إليهم أولاً».

صمت للحظة ثم أكملت حديثى:: «ألا يوجد لديكم حتي مسدسات».

فحدث شغب وسط الجمع فتابعت حديثى صارخاً فيهم: «لا أسلحة؟ كيف كنتم ستحاربون إذاً هذه العصابة بدون أن يكون معكم أية أسلحة».

«لكن إذا ما استخدمتم أسلحة كاتمة للصوت». ثم وضعت يدى فى معطفى وأخرجت بندقية كبيرة تحمل خنجراً فى نهايتها، نزعت الخنجر وحركت البندقية فى الهواء .فصار هرج ومرج وسمعت صوت صفارات التشجيع من الجمع الذى كان واقفاً حولى .لقد كسبت ثقتهم واحترامهم .فهم الآن يستمعون إلى ويتشوقون لمعرفة مزيد من التفاصيل عن قيادتى لهم.

نظرت إلي ويلى ثانية وقلت له: «أريد خمسة من أقوي رجالك». وسنأخذ خمسة من عندنا .وغداً سنذهب إلي منطقة نفوذ عصابة «الرؤساء الأشباح» وسنتكلم مع قادتهم .فأنا لا أظن بأنهم يريدون الشجار مع «المومس» .ولسوف أخبرهم بأننا أصدقاء، فإن لم يتركوك لحال سبيلك إذاً عليهم أن يقاتلونا معكم .وإن لم يوافقوا فسوف نحرق محل حلواهم، حتي يعرفوا بأننا جادين فيما نقول .«فما هو رأيكم؟»

«نعم نعم يا صغيرى » .وبدأت العصابة تبتهج .«لنحرق محل حلوي هؤلاء السفلة .هيا لنلقنهم درساً .نعم نعم لنلقنهم درساً لن ينسوه».

فى ظهيرة اليوم التالى، أخذت معى خمسة من أقوي الأولاد عندى، وذهبت فعلاً

لمقابلتهم مقابل محل حلوي فى شارع «وايت» فى منطقة نفوذ عصابة «حارقى الجحيم». كان المحل قد أُصلح بعد آخر مشاجرة كانت قد قامت هناك منذ عدة أيام .قابلنا حسب الاتفاق خمسة أعضاء من عصابة «حارقى الجحيم» بما فيهم «ويلى». تكلمت مع صاحب المحل واعتذرت له وأخبرته بأن عصابة «الرؤساء الأشباح» هم الذين تسببوا فى تحطيم المحل وها نحن الآن ذاهبون للتأكد من أنه لن يحدث هذا ثانية .ثم سألته بأن يحتفظ لى ببندقيتى حتي عودتى.

كانت الساعة قد اقتربت من الخامسة صباحاً، حيث كان هناك القليل من المطر فى ظلال الفجر .تركنا المتجر وذهبنا عبر المدينة إلي منطقة نفوذهم فى شارع ٣ حيث كان هناك خمسة منهم فى متجر الحلوي .رأونا ونحن قادمين، ولكنهم لم يستطيعوا الهروب لأننا كنا قد أغلقنا علينا الباب من خلفنا.

وقفنا كلنا ونحن نضع أيدينا داخل معاطفنا كأننا نحمل أسلحة .توجهت إليهم فوقفوا علي أرجلهم خلف المنضدة .«اللعنة» هكذا سألتهم .«أين رئيسكم؟»

جاء إلىّ ولد ذا نظرة حقيرة مرتدياً نظارة ، وقال لى : «فريدى هو قائدنا».

فسألت: « من منكم فريدى؟»

تقدم إلى صبى وجهه قبيح وشعره أجعد وقال لى: «أنا فريدى .من أنتم بحق الجحيم؟»

كنت لازلت واضعاً يدى داخل معطفى وياقة المعطف مرفوعة لتغطى رقبتى .قلت: «أنا نيكى قائد «المومس». هل سمعتم عن «المومس» و هذا «ويلى البوتش» قائد عصابة حارقى الجحيم .نحن أصدقاء الآن .ونريد أن نضع حداً للمعارك القائمة».

«حسنا يا رجل» قال فريدى: «تعالوا هنا لنتكلم».

توجهنا إلي الجانب الآخر لنتكلم، ولكن أحدهم لعن «ويلى» .وقبل أن أتحرك أخرج«ويلى» مطواة وفتحها .وبدلاً من أن يتراجع الولد اندفع إليه بمظلته غارزاً طرفها الحديدى المدبب فى صدر ويلى ، لكن وبسرعة جذب أحد أعضاء عصابة «حارقى الجحيم» علبة سكر من جانبه وقذفها علي الولد صاحب المظلة فأصابه فى كتفه فوقع علي الأرض.

وبدأ فريدى يصيح «أنتم كفي» ولكن لم يستمع إليه أحد وبدءوا يتعاركون مع بعضهم

البعض .نظر إلى فريدى قائلاً « أمرهم أن يتوقفوا عن القتال» .

عندها ضربنى أحدهم علي رأسى من الخلف .فسمعت صوت قعقعة زجاجة تنكسر علي المرآة وراء الآلة الحاسبة.

فى الخارج توقفت سيارة وهى تضرب مكابحها بقوة ، رأينا أضواءً حمراءً تومض تشتعل وتنطفأ.بعدها خرج من السيارة شرطيان تاركين الباب مفتوحاً وهم يركضون نحو متجر الحلوي يحملون بيدهم العصا.

رآهم الأولاد الآخرين فى نفس الوقت .وكان أحدهم قد أعطانا إشارة من قبل فانطلقنا كلنا وانتشرنا وسط السيارات .كان هناك شرطياً يلاحقنى وأنا أركض وأركض فدفعت صندوق القمامة أمامه فى الشارع الجانبى حتي أعطله بعض الشيء ، كى أستطيع الهرب منه إلي الزقاق .وهكذا كان المسرح معداً للمشاجرة.

فى الليلة التالية كان أكثر من مئة عضو من «المومومس» مجتمعين عند متجر الحلوي فى منطقة نفوذ عصابة «حارقى الجحيم» . وكان «ويلى البوتش» هناك ومعه أكثر من خمسين من أعضاء عصابته، فتوجهنا معاً إلي وسط الشارع نحو متجر الحلوي الخاص بمنطقة نفوذ عصابة «الرؤساء الأشباح» .

كان «شارلى كورتز»واحداً من أعضاء عصابة «المومومس» قد تعاطي جرعات كبيرة من الهروين خلال الأسبوع الفائت وقد كان مستعداً جداً للمعركة .وما أن وصلنا إلي متجر الحلوي حتي فتح الباب بقوة وجذب واحداً من أعضاء عصابة «الرؤساء الأشباح» فحاول الهروب .فضربه بالسكين، لكنه أخطئه فدفعه إلي الوراء باتجاهى.

حينئذ بدأت أضحك .فقد كانت هذه من أغرب سلوكياتى التى اعتدت أن أفعلها من حوالى ١٥٠ إلي ١٥ فسددت ضربة إلي ذلك الولد المتعثر بماسورة حديدية ثقيلة .كان قد علق مفصل ضخم فى نهايتها .فصرخ من شدة الألم إذ إصابته الماسورة بشدة فى كتفه.ثم حاول الزحف إلي الرصيف فضربته ثانية علي رأسه من الخلف .فسقط بقوة علي الأرض والدم يتدفق منه.

ثم سمعت أحداً يصرخ: «هيا بنا .لنحرق المنطقة كلها» . فانتشر الأولاد .بعضهم توجه إلي متجر الحلوي والبعض الآخر توجه إلي صالة البلياردو فى المبنى المجاور .فانطلقت

معهم إلي متجر الحلوي .كنت آنذاك لا أزال حاملاً الماسورة بيدى، أضرب بها فى كل اتجاه .كان زجاج النوافذ قد تحطم وكنت أري مدير المتجر وهو مختبئاً تحت الآلة الحاسبة يحاول حماية نفسه .أزداد الأولاد وحشية .فقد كانوا يقطّعون كل شيء .أحدهم أسقط صندوقاً كبيراً حطمه تماماً . كنت قد وقفت عليه فى السابق ملوحاً بالماسورة .وآخرين كانوا خلف الآلة الحاسبة ينزعون الخزائن من الحائط ويكسرون الزجاج والأطباق .واحد سرق المال واثنان رفعا الآلة الحاسبة وقذفوا بها خارج النافذة المكسورة.

كنت أركض فى الشارع و وجهى ملطخاً بالدماء من جراء شظية زجاجة متطايرة .كنت أجرى فى الشارع ذهاباً وإياباً أحطم نوافذ السيارات.

كان هناك حوالى خمسة عشر شخصاً بداخل الصالة .قلبوا الموائد وكسروا الأطباق .ثم عادوا إلي الشارع وهم يقذفون المحال بكرات البلياردو.

بعدها قام أعضاء العصابة بإيقاف سيارة فى الشارع، وصعدوا عليها من كل جهة يقفزون فوقها حتي انطبقت أجزاء منها علي بعضها البعض. كان الجميع يضحكون ويصيحون ويحطمون.

وفجأة بدأت صفارات البوليس تقترب، ثم قامت سيارتان بسد الشارع من كلا الجهتين. كان من الطبيعى أن تكون هذه علامة للأولاد كى يتفرقوا ويهربوا .ولكن حرارة المعركة ازدادت جداً لدرجة أننا لم نعد نسيطر عليها فلم نكترث كثيراً لوجودهم.

جاءت سيارة من فرقة البوليس ووقفت وسط المكان، ولكن لم يستطع الرجال الذين بداخلها الخروج .فقد كان الصبية يلتفون حول السيارة ويقذفون الزجاجات والطوب ويحطمون أنوار السيارة ويكسرون النوافذ .لقد كانت الشرطة محاصرة بالداخل وكانوا يحاولون الاتصال طالبين المساعدة معتمدين علي الأجهزة اللاسلكية التى لديهم لكننا كنا نقفز علي سطح السيارة، ثم قمنا بنزع المستقبل «الإريال» . بعدها أخذ واحد من الأولاد يركل صفارة السيارة حتي تحطمت ووقعت علي الأرض.

ولكن جاءت سيارات عديدة من سيارات الشرطة وتوقفت فى نهاية الشارع. كان المكان يهوج ويموج ، كمستشفي المجانين .كذلك كان أكثر من ١٥٠ صبى يصرخون ويصيحون ويحطمون ويقفزون فوق السيارات ويتشاجرون ويشيحون بالجنازير .فجأة رأيت «شارلى»

يتشاجر مع شرطيين وسط الشارع .فأسرعت لمساعدته لكننى سمعت صوت بندقية فعلمت بأنه قد حان الوقت للانسحاب.

وهكذا انتشرنا فى كل اتجاه .بعض من الصبية ركضوا عبر الشارع إلي الزقاق .والبعض الآخر هرب إلي الشقق ثم إلي أعلي الأسطح .وفى غضون ثوان كان المكان قد فرغ ولم يتبق شيء سوء الحطام .لم تكن توجد هناك أية سيارة لم تتحطم . كان المتجر قد دمر تماماً. وكذلك قاعة البلياردو أيضاً .وكانت النوافذ الخاصة بالبار عبر الشارع قد تحطمت ومعظم زجاجات الويسكى قد سرقت .بعضهم كان قد نزع كراسى واحدة من السيارات ثم قام بأشعال النيران فيها.

حاول البوليس جاهداً إطفاء الحريق ، لكن السيارة كانت لا تزال تحترق عندما تركناها.

الكل نجا ألا «شارلى كورتز» وثلاثة من أعضاء عصابة «حارقى الجحيم» . وكان قانون العصابة يقول بأنه فى حالة قبض عليك فإنك سوف تتحمل العقاب وحدك .فإذا ما حاولت الإرشاد عن أى شخص فسوف تنال عقابك من العصابة .حتي و إن كنت فى السجن فسيقومون بمعاقبة عائلتك .وهكذا حكم علي شارلى مدة ثلاث سنوات والآخرين حكم عليهم أيضاً.

ولكن عصابة «الرؤساء الأشباح» لم يعودوا يضايقون عصابة «حارقى الجحيم» فى منطقة نفوذهم بعد ذلك.

الفصل السابع
أبـن لوسـيفير

عند بداية الصيف التالى كان من الواضح بأن حى الأقليات بالمدينة قد ازداد عنفاً وكراهية. كان قد انخفض نشاط بعض العصابات فى الشتاء، لكنها عادت وبدأت تظهر فى الخريف بأعضاء أكثر قوة و تنظيماً .فى فصل الشتاء كنا نصنع المسدسات كاتمة الصوت ونسرق البنادق ونخزن الذخائر.و كنت قد اكتسبت سمعة كبيرة كأكثر قائد عصابة مهابة فى «بروكلين» . وكان قد قبض علي أكثر من ثمانية عشر مرة ومكثت فى السجن لمدة ثلاثين يوماً منتظراً المحاكمة. ولكنهم لم يستطيعوا أن يثبتوا أى شيء ضدى.

لكن ما بدأ الجو يزداد دفئاً حتي صرنا أكثر جنوناً ووحشية .فقد كانت عصابة «الدراجونز»فى حرب مستمرة مع «الفيكرويس» . فى اليوم الأول من شهر مايو دخل قائد عصابة «الشابلينس» واسمه «منجو»إلي متجر حلوي حاملاً بندقيته فى يده.

قال: «أنت يا صغيرى» وهو يصوب بندقيته نحو صبى كان جالساً فى مكتب صغير» ، هل أنت «سوجراس» .

«نعم يا رجل هذا أنا. فماذا ستفعل حيال هذا؟»

لم يجبه «منجو» بشيء لكنه صوب بندقيته نحو رأسه قائلاً «آه أنت » . ابتسم «سواجراس» قليلاً وهو يقف علي رجليه. «لا تصوب هذا الشيء نحوى .فمن الممكن أن تصيبنى» .

لكن «منجو» كان ينظر إليه نظرة قاسية فارغة، حيث كان قد أخذ جرعة عالية من الهروين ثم بدأ يشد الزناد .أصابت الرصاصة الصبى فوق أنفه مباشرة حيث فجرت رأسه، فوقع علي الأرض .كان جسمه يتلوي وغطت الدماء وبعض العظام والرصاص الحائط المقابل من الغرفة.

ثم استدار «منجو» وخرج من متجر الحلوي .وعندما قبضت عليه الشرطة كان يسير فى

الشارع والبندقية تتدلي من يده .صرخوا فيه ليتوقف .لكنه استدار وصوب بندقيته نحوهم. فأطلقوا النيران عليه فسقط فى الشارع جسمه ممتلئ بالطلقات.

لكن فى الحقيقة كان بداخل كل واحد منا «منجو» آخر .فقد كان من الواضح تماماً بأنه كل ما كان قد تبقي من المدينة كان قد أصابه الجنون .لأننا فى هذا الصيف قررنا أن نحارب الشرطة .فكتبنا رسائل إلي شرطة ٨٨ «بريسينت» وإلي مديرية الشرطة .أخبرناهم فيها بأننا قد أعلنا الحرب عليهم وبأنه من الآن فصاعداً لن يسمح لأى شرطى أن يقترب من منطقة نفوذنا وإن اقترب فسوف نعتبره خصماً وسنقتله.

حينئذ ضاعفت الشرطة قوتها وكانوا دائماً يسيرون ثلاثة أشخاص معاً .لم تستوقفنا هذه الاحتياطات .فقد كنا نقف علي الأسطح ونلقى عليهم الطوب والزجاجات وصناديق القمامة من فوق .وعندما كانوا ينظرون ليروا من ذا الذى كان يلقى عليهم هذه الأشياء كنا نطلق عليهم النار. كان هدفنا هو الانتقام والمسدسات التى كنا نصنعها بأنفسنا لم تكن دقيقة فى إصابتها إلا إذا كان الهدف قريب جداً منا .وكان كل ما نحلم به هو قتل شرطى واحد علي الأقل.

وكانت أفضل الخطط التى نتبعها هى إلقاء قنبلة من البنزين عليهم .كنا نسرق البنزين من السيارات فى الليل ونخزنه فى زجاجات للمياه الغازية .ومن النبيذ.كنا نصنع فتيل من القماش ثم نشعله ونفرقعه عل جوانب المبانى أو علي سيارة للشرطة .وهكذا كانت تنفجر صانعة ألسنة من اللهب.

فى بعض الأحيان كانوا يتبادلون معنا النيران. ذات مساء أشعل «دان بينسون» وهو عضو فى العصابة قنبلة من البنزين ليلقيها علي مركز الشرطة .فاشتعل فتيلها فى يده سريعاً ثم انفجرت فى وجهه قبل أن يستطيع إلقاءها .وقبل أن يأتى أحد لنجدته كانت قد اشتعلت به ألسنة اللهب. اندفع رجال الشرطة نحوه محاولين إطفاء النيران بأيديهم .فأصيب أحدهم إصابة بالغة وهو يحاول إخماد الحريق .وهكذا نقلوا «دان» سريعاً إلي المستشفي لكن الأطباء قالوا بأنه قد يحتاج إلي سنوات عديدة قبل أن يعود إلي طبيعته مرة أخري.

فى الأسبوع التالى انخفض معدل هجماتنا لهم، لكننا سرعان ما عدنا ثانية بشراسة أكبر.

من أفضل الأمور التى تستمتع بها العصابة هى وقت العطلات الذى كان يعتبر وقت هدنة من المشاجرات المستمرة. ففى عيد المظال ويوم الاستقلال والرابع من يوليو كانت معظم العصابات

ـ يوجد تقريباً حوالى ٢٨٥ عصابة فى المدينة ـ تجتمع فى جزيرة «كونى» . كان الجميع فى هذه الأيام يرتدى أفضل ما لديه للتظاهر والتفاخر أمام بعضهم البعض بالانجازات التى حققوها نتاج مشاجراتهم العنيفة والمدمرة . ففى الرابع من يوليو قتل «البيشوب» «لارى ستين» وهو واحد من أعضاء عصابتنا.

وكان عمره ثلاثة عشر عاماً فقط، عندما ضربه خمسة صبية آخرين حتي الموت مستخدمين جنازير الدراجات ثم دفنوا جثته فى الرمال تحت ممر خشبى .وهكذا لم يعثر عليه أحد إلي ما يقرب من أسبوع.

عندما وصلتنا هذه الأخبار اجتمع مئتان منا فى قبو المدرسة للاتفاق علي كيفية الأخذ بالثأر منهم .كنت تستطيع أن تشعر بالكراهية تملأ الغرفة .فقد كان نصف الأولاد سكاري ويريدون الخروج مباشرة ليحرقوا مساكن «البيشوب» وليشعلوا النيران فى منطقة «ببيدفورد أفينو» فى «بروكلين» . ومع ذلك استطعت إعادة الهدوء إلي الغرفة ثانية، وقررنا أن نحضر أولاً جنازة «لارى » مساء اليوم التالى ومن ثم نجتمع غداً ليلاً لنضع خططاً للمعركة.

اجتمعنا فى مساء اليوم التالى فى المقابر لحضور الجنازة .وقفت سيارتان وخرجت منها مجموعة من المعزين .رأيت والد «لارى» وأمه وإخوته الأربعة .كانت عصابة «المومس» تقف بالخلف أثناء الجنازة، ولكن ما أن بدأت المراسم حتي توجهنا إلي الأمام .كنا حوالى ٢٠٠ صبى وفتاة مرتديين ستراتنا السوداء التى كتب عليها حرف الميم باللون الأحمر القرمزى فى الخلف.

خطوت للأمام لأسلم علي أم «لارى» فصرخت عندما رأتنى قائلة: «أخرجوهم من هنا..أخرجوهم من هنا ...الوحوش، الشياطين» ثم استدارت إلي الوراء وبدأت تجرى نحو السيارة، لكن أغمى عليها .فانحني زوجها إليها ليحملها، وكان الرعب يملئ عيون إخوة «لارى » الأربعة .وهم ينظرون إلي أفراد العصابة وهى تخرج لتقف حول مدفن «لارى» .

نظر إلىّ السيد «ستين» ولعننى قائلا: «أنت المسئول عما حدث هنا .فإن لم تكن أنت أو عصابتك القذرة هنا لما كان «لارى» ميتاً الآن» . كانت الكراهية تملأ عينيه و هو ينظر إلى ولكن مدير الجنازة جذبه إلي الخلف.

وهكذا قال لى مدير الجنازة: «من فضلك هل يمكنك الانتظار فى الجانب الآخر من

المقابر.من فضلك امنحنا فرصة أخيرة ؟» فوافقته ثم عدنا كلنا إلي الخلف فى الوقت الذى كانوا يحاولون فيه إيقاظ السيدة «ستين» ثم أكملوا الخدمة.

فى هذه الليلة اجتمعنا للمرة الثانية .ولم يكن ليوقفنا شىء فى هذه المرة .كنا قد علمنا بأن عصابة «الجيجى» قد قتلوا أحد أفراد عصابة «البيشوب» وكانت الجنازة ستقام غداً .وكان الأولاد يريدون تخريب الجنازة بقذفهم القنابل المحرقة من المبانى المجاورة.

كانت درجة ولاء هذه العصابة للثأر من العصابة الأخري مذهلة .فقد كانوا ممتلئين بالكراهية لدرجة أنهم لم يكونوا يستطيعوا تحمل هذا الشعور ثانية . و «مانى»هو من توجه إلي مكان تجمع العصابة لدفن الجثة .صارخاً: «لنذهب ونحرق هذا المكان .فمن الممكن أن يفوتنا الوقت إذا ما انتظرنا إلي الغد .هيا لنذهب الآن» .

فصاح من خلفه الباقون: «هيا لنذهب نعم هيا» كان قد تجمع حوالى أكثر من خمسة عشر واحداً منهم فى ردهة جنازة أحد الزنوج الصغار .فقلبوا التوابيت وقطعوا الستائر بالسكاكين. لذلك فقد أقيمت الجنازة فى اليوم التالى تحت حراسة شديدة من الشرطة ولكننا شعرنا بأننا قد أخذنا بثأرنا.

المعارك التى كانت شديدة الضراوة فى الشوارع، كنت أراها فقط فى كوابيسى الليلية التى كانت تجتدم فى قلبى. فقد كنت كالحيوان الذى لا ضمير له ولا أخلاق ولا منطق ولا أدني إحساس بالصواب والخطأ .والعصابة كانت هى سندى ومعيلى المادى من خلال السرقات الليلية التى كان يقوم بها بعض أفرادها إضافة إلي بعض المساعدات التى كنت أتلقاها من فرانك .لكنى كنت دائماً أحبذ الاعتماد علي نفسى.

وفى خريف ١٩٥٧ جاء إلى فرانك و قال لى: «بأن أبى و أمى سيأتيان من «برتوريكان» لزيارتى .وكان يريدنى أن أذهب إلي شقته لرؤيتهم» . فقلت: لا لقد رفضونى سابقاً.وأنا لآن لا أريد منهم أى شىء وإلي الأبد.

فى اليوم التالى جاء فرانك إلي غرفتى ومعه أبى. وقال لى بأن أمى لم تجىء لأنى كنت قد أرفض مقابلتها .وقف أبى أمامى فى مدخل الباب، وظل ينظر إلىّ وأنا جالس علي طرف سريرى.

ثم قال: «لقد حكي لى فرانك عنك» . كان صوته يرتفع وينخفض وهو يحدثنى حتي تغير

أخيراً وبدا تقريباً وكأنه يصيح بى .فى النهاية قال لى: بأنك لست رئيساً لعصابة وبأن الشرطة لا تطاردك.هل هذا صحيح؟ «لم أجبه، ولكنى التفت إلي فرانك الذى كان واقفاً بجانبى» وقلت: «ما الذى كنت تقوله عنى بحق الجحيم؟ قلت لك بأنى لا أرغب فى رؤيتهم».

فقال لى بهدوء: « قلت له الحقيقة يا نيكى، لأنه من الممكن أن يكون الوقت قد حان لتعرف ما هى الحقيقة بنفسك».

فقال أبى: «إن الشيطان متسلط عليه». كان ينظر إلىّ وعنياه تلمعان. «هو مسيطر عليه ، يُجب أن أحرره من قبضته». نظرت إلي أبى و ضحكت بغضب. «فى السنة الماضية كنت اعتقد بأن بى شيطان .لكن الآن حتي الشياطين نفسها تخشانى».

فتوجه أبى إلىّ سائراً عبر الغرفة ثم وضع يده الثقيلة علي كتفى .وظل يدفعنى لأسفل حتي ركعت علي الأرض .كان يقف أمامى ويقيدنى بيديه القويتين مثل السلسلة.

ثم قال : «إنى أشعر بخمس أرواح شريرة تسكن فيه» وتحرك فرانك و أمسك بيدى ثم وضعهما فوق رأسى .حاولت فك قبضتهم عنى ، لكنهما كانا أقوي منى. «خمسة أرواح». هكذا قال أبى.

«لهذا السبب هو إنسان منحرف ولكنى سأحرره اليوم».

ضغط على بشدة للأسفل وهو يشبك يديه فوق رأسى وصار يلف يديه كأنه يلف غطاء علبة.

ثم صرخ بى قائلا: «اخرج، اخرج، آمرك بأن تتركه». كان أبى يتحدث إلي الشيطان الذى فى عقلى .ثم رفع يديه الاثنين وصفعنى علي جانبى وجهى وأذنى بقوة مرة بعد الأخري .كان فرانك ممسكا بيدى الاثنتين فوق رأسى فى حين كان أبى يضع يديه حول عنقى واشتدت قبضته حتي شعرت بأنه يخنقنى. «هناك شيطان فى لسانه أيضاً .اخرج يا شيطان اخرج». ثم صرخ قائلا: «ها هو أراه يخرج» «قلبه أسود أيضاً». هكذا قال لى ثم ضربنى علي صدرى عدة مرات حتي شعرت بأن ضلوعى تكاد تتكسر.

وأخيراً، أمسكنى من أعلي فخذى وهو يأمر الروح الشرير بأن يترك هذه المنطقة .ثم تركنى هو وفرانك قائلين: «لقد أسدينا لك معروفاً كبيراً يا نيكى .فقد كنت شريراً جداً و لكنك

الآن طهرت».

كان أبى يقف فى وسط الغرفة يرتجف مثل ورقة الشجر .لعنتهم ثم قمت وركضت خارج الغرفة مغلقا الباب خلفى بقوة .نازلاً درجات السلم بسرعة ثم خرجت إلي الشارع. بعد مضى ساعتين وجدت بحاراً كان قد غلبه النعاس من كثرة الشرب والسكر كان جالساً علي مقعد فى حديقة واشنطن .قلبته علي جنبه الآخر ثم أخذت منه محفظته .فإن كان أبى قد حررنى فعلاً من الأرواح الشريرة فهى إذاً لم تستغرق وقتا طويلاً وها هى عادت إلى ثانية .إنى لا أزال أبن للوسيفر.

ازدادت معدلات كوابيسى وازداد معها ظهور خوفى الشديد من المستقبل .ليلة بعد ليلة كنت أقوم صارخاً و مفزوعاً من كابوس يلى الآخر .ولقد ضاعفت مشاجراتى المسعورة كى أستطيع التغلب علي كل هذا الخوف.

وفى هذا الصيف صارت معاركنا مع الشرطة أكثر ضراوة .كنا كل ليلة ننتظر علي الأسطح أى شرطى يعبر من أمامنا .فنلقى عليه أكياس الرمال والطوب والزجاجات ، ولكننا كنا فى حاجة إلي أسلحة وخاصة للبنادق .ولكنها كانت ستتكلف الكثير من المال.

جاءتنى فكرة للتخطيط للسرقة. كنت قد لاحظت بأنه فى كل يوم سبت وفى الساعة الثالثة ظهراً كان يأتى رجلاً إلي مبني سكنى فى سيارة كاديلاك سوداء .كان الأولاد قد لاحظوه هم أيضاً ، كنا نطلق عليه النكات .ونعلم بأنه من نيوجرسى ، كان ينتظر دائماً حتي يخرج «ماريو سيلفاريو» من بيته إلي العمل .فقد كنا نعلم بأنه كان علي علاقة بزوجته.

ذات ليلة قررت أنا وألبرت أن نتجسس عليهما .لذلك تسلقنا سلم الحريق و راقبناهما من النافذة فوجدناهما علي علاقة غرامية .فى كل سبت وفى الساعة الثالثة ظهراً، كان يحدث نفس الشىء .كان يركن سيارته ويغلق أبوابها و يذهب إلي شقة ماريو.

فقلت يوما لـ «مانى» إنها عملية سهلة جداً فوافقنى .سألنا «ويلى البوتش» أن يأتى إلينا بمسدسه ويقابلنا فى الساعة الثانية ظهراً .وعندما وصلنا إلي المسكن كان «ويلى» هناك يفحص مسدسه .كان قد أخرج كل الطلقات من المسدس و وضعها فى خط مستقيم أمامه. وما أن رآنا نقترب منه حتي أعاد تعبئته ثانية ثم وضعه فى جيبه.

كانت الخطة هى أن ينتظر «ويلى» و «مانى»خلف المبني .وعندما يخرج الرجل من

السيارة كان على أن أذهب إليه وأساله سؤالاً .ثم يأتى «ويلى» و «مانى» فيصوب «ويلى» المسدس نحوه و أقوم أنا و«مانى» بتفتيشه للحصول علي المال.

كانت الساعة تدق الثالثة ظهراً علي المبني الكبير فى «فلاتبوش» عند زاوية «هيوستون» . وكان «ويلى» يريد فحص المسدس ثانية .لكن فى هذه المرة مضي خلف المبني ثم عاد بعد دقائق قائلا بأن كل شيء قد صار معداً.

فى الساعة الثالثة والربع وقفت السيارة عند الزاوية أمام المنزل .فاختبئ «ويلى» و «مانى» ووضعت أنا معطف المطر علي كتفى ومضيت سائراً علي الرصيف .خرج الرجل من سيارته، كان رجلاً ضخماً يبلغ من العمر حوالى أربعين سنة وكان يرتدى معطفاً و قبعة باهظة الثمن .أغلق سيارته بحرص ثم مضي نحو المبني .كانت الشوارع فارغة .فأنا لم أكن أسمع سوي صوت السيارات التى فى المناطق المجاورة.

عندما رآنى قادماً نحوه أسرع فى سيره ، «من فضلك يا سيد ، أنا تائه هنا .هل تستطيع أن تخبرنى أين الطريق إلي «لافاييت أفينو؟» . تراجع الرجل إلي الخلف قليلاً ثم نظر فى كل الاتجاهات وقال: «اغرب عن وجهى يا غلام .أنا لا أريد أية مشاكل هنا» .

فقلت له: «يا رجل كل ما أريده هو معرفة شارع» «لافاييت أفينو» . ثم ابتسمت ووضعت يدى فى جيب معطفى كأنى أحمل مسدسا و أصوبه نحوه.

فصرخ الرجل قائلا، «النجده سارق سارق » وتراجع للخلف ذاهباً إلي سيارته .فدفعت نفسى نحوه وقلت: «اخرس و إلا فسأقتلك» فنظر إلى وهو غير مصدق نفسه .ثم بدأ يصرخ «النجدة ..النجدة» .

حينئذ جذب «ويللى» رقبة الرجل إلي الخلف ووضع المسدس صوب وجهه .وقال له: «كلمة أخري وسوف أقتلك» .

فوقف الرجل مكانه متجمداً ثم بدأت أنا و «مانى» نفتشه .فوجدت فى جيبه ربطة مال كبيرة لم أري مثلها فى حياتى من قبل .كانت رزمة المال مربوطة ببعضها البعض برباط. كنت أظن بأنه سيأخذها إلي زوجة «ماريو» .

«انظر يا ويلى .ما رأيك فى هذا ؟ هذا الرجل غنى أوه انظر إلي كل هذا المال» . تراجعت إلي الخلف ضاحكاً .لقد أصبحنا أثرياء .كنت أسخر منه وأقفز من الفرح فى الشارع . «آه أنت

يا رجل إذا تركتك تقيم علاقة غرامية مع أمى فهل ستعطينى كل هذه الأموال كل أسبوع؟»

ازداد «مانى» حماساً و بدأ يفك حزام الرجل. «ماذا عنه يا رجل؟ من المؤكد بأنك لن تمانع طبعاً من خلع سروالك حتي تستطيع كل النساء أن تري كم أنت وسيم؟»

بدأ الرجل يغتاظ و يئن. «ماذا يا رجل نحن نسدى لك خدمة» هكذا قال له «مانيش. «هيا لتخلع عنك السروال مثل الولد المطيع».

بدأ يفتح السروال و الرجل يصرخ «النجدة ..النجدة» .... لكنى قفزت إلي الامام ووضعت يدى علي فمه .فعض يدى بعنف .فتراجعت إلي الخلف وصرخت قائلا: «اقتله يا ويلى.. احرقه .. لقد عضنى».

تراجع ويلى إلي الخلف وصوب المسدس إلي ظهر الرجل وجذب الزناد .سمعت صوت الطلقة و لكن لم يحدث شيئاً.

فضربته بكل قوتى فى بطنه .فانحني إلي الأسفل ممسكاً ببطنه فضربته علي جانب رأسه بيدى الأخري ، لكنى توجعت جداً ظننت بأنه كاد أن يغشي علىّ .ذهبت إلي جانب آخر من حوله وقلت، «اقتله يا «ويلى» اقتله».

فجذب «ويلى»الزناد مرة ثانية. ولكن لم يحدث شيئاً .فظل يحاول مراراً .فجذبت أخيراً المسدس من «ويلى» وضربت الرجل فى وجهه .كان واضح صوت المعدن وهو يحطم عظامه .فانفتح وجهه ورأيت عظام الخد البيضاء وهى تكسوها الدماء .كان يحاول الصراخ عندما ضربته مرة ثانية فوق رأسه .فانهار بجانب البالوعة ويده تتدلي فى المصرف المفتوح عبر الحاجز.

لم ننتظر فقد شاهدنا أنوار المساكن تضئ وشخصاً ما يصيح .فركضنا فى الشارع إلي الزقاق الذى كان يقود إلي المدرسة من الخلف .كنت أخلع عنى المعطف وأنا أركض فألقيته فى صندوق القمامة.

ثم انقسمنا فى الشارع الثانى وركضت أنا إلي شارع شقتى وتسلقت درجات السلم إلي غرفتى .وعندما دخلت أغلقت الباب من خلفى ووقفت فى الظلام ألهث وأضحك، هذه هى الحياة .أضئت الأنوار ونظرت إلي يدى .كنت أري علامة أسنان الرجل فى كفى. غسلتها

ببعض النبيذ ولففتها بمنديل .ثم أغلقت الأنوار ونمت علي السرير .كانت صفارات الشرطة تدوى بعيداً و أنا أسمعها وأضحك وأقول: «يا لها من رزمة مال» هكذا فكرت وبدأت أتحسس المال فى جيبى.

«يا الهى ..لم تكن هناك .. قفزت علي قدمى وأنا ابحث باهتياج شديد عنها فى كل جيوبى .وفجأة تذكرت .لقد وضعتها فى معطفى عندما بدأت المشاجرة .آه، لا أصدق لقد ألقيت بالمعطف فى صندوق القمامة .مع المسدس .مسدس «ويلى» ضاع أيضاً .فمن المحتمل جداً أن يكون قد وقع منى بعدما ضربت الرجل».

لم أستطع العودة ثانية لأن المكان كان مزدحماً بالشرطة .يجب أن انتظر حتي الصباح لكن المسئول عن جمع القمامة سيكون قد جاء حينئذ لجمع القمامة وبالتالى سأفقد معطفى والمال إلي الأبد .ألقيت بنفسى إلي الخلف علي السرير وظللت اضرب المرتبة بقبضتى عدة مرات .كل هذا العناء كل هذا العناء الذى تحملته وأفقد المال هكذا ببساطة.

الفصل الثامن

ضحكة إبليس

خلال السنتين اللتين تلتا رئاستى «للموموس»، لقى سبعة عشر رجلاً حتفهم . كذلك قبض علىَّ عدة مرات لدرجة أنى لم أعد أكاد أتذكر عددها .كنا نعيش كلنا : عاً فى العصابة وكأنه لا وجود للقانون من حولنا .إذ لم يكن لدينا أى شىء مقدساً، إلا ولاءنا لبعضنا البعض وقد شعرت بربطة الولاء هذه تجاه «مانى» و «إسرائيل» بشكل خاص.

ذات ليلة تسحب «إسرائيل» إلي غرفتى و أطار حمامة من الباب إلي داخل غرفتى .ووقف بالخارج يضحك على وهو يسمع صوت صراخى .وعندما فتح الباب وأضاء النور كنت قد اختبأت تحت السرير .فقد حاولت إخفاء خوفى بالضحك عندما ألقي بالحمامة من النافذة .ولكنه بعد أن تركنى كنت أرتجف علي سريرى ، فصوت ضربات جناحيها كان ما يزال يرن فى أذنى. وأخيراً عندما غلبنى النعاس من كثرة تشنجى حلمت بأنى أقع .فقمت متذكراً بأنى قد سمعت ضحكة لإبليس.

فى الصباح الباكر جاء إلى «إسرائيل» ليقول لى بأنّ «مانى» طُعن وهو الآن فى المستشفي .ثم قال لى: «ما الذى حدث لك يا «نيكى» ثم أنهي حديثه قائلا: كيف تتوالي الأمور بهذه الطريقة ؟»

كنت قد شعرت بألم شديد فى بطنى حتي كادت الدماء تسيل من فمى .كان «مانى» وإسرائيل هما أعز أصدقائى .والآن شعرت فجأة بأنى أفقد شعورى بالأمان الذى تمتعت به خلال علاقتى بهما والآن هو يخبرنى بأن «مانى» كان قريباً جداً من الموت.

فهززت رأسى قائلاً: «إنى بخير.أنا غاضب فقط .سأذهب الآن لرؤيته وبعد ذلك سأري من فعل هذا وسأحرقه حتي الموت» .

فى ذلك المساء حاولت دخول المستشفي ولكن كان هناك شرطيان واقفان بالباب .فصعدت من سلم الحريق وخبطت بهدوء علي النافذة حتي فتح لى «مانى» من الجانب الآخر .كان ضعيفاً

جداً وبالكاد حاول الرجوع إلي سريره.

سألته: «من الذى فعل بك هذا يا صديقى؟ فهو لن ينجو منى أبداً من الذى طعنك هكذا؟»

فقال لى: «كانوا من عصابة «البيشوب». أمسكونى وأنا وحدى وطعنونى مرتين واحدة فى رجلى والأخري فى جنبى».

«من هو ؟» سألته «هل تعلم من الذى فعل بك هذا؟»

«نعم». لقد كان ذلك الولد الذى يدعي جو .فقد أصبح نائب رئيسهم الجديد .وهو يتعامل وكأنه مصدراً للرعب طوال الوقت .وعندما ركض هارباً بعيداً عنى، قال لى: بأنه سيعود ليقتلنى. لذلك أنت تري هذين الشرطيين واقفين خارجاً.

«حسناً امتثل أنت فقط للشفاء وعندما تخرج سوف ننتقم من هذا الزنجى».

تسحبت للخلف إلي سلم الحريق ثانية .تقابلت فى ذلك اليوم مع «إسرائيل» «هومر بلانكى» وهو مستشارنا فى المعارك حتي نستطيع وضع الخطط المناسبة للانتقام .قررنا أن نقوم بعملية اختطاف.

فى اليوم التالى سرق «هومر» سيارة .ثم خبأناها خلف مستودع قديم لمدة أسبوعين حتي يخرج «مانى» من المستشفى .قمنا بأول خطوة فى هذه العملية فى الأسبوع الذى كان يسبق الكريسماس سنة ١٩٥٧ . قاد «هومر» السيارة . وذهبنا لنأخذ «مانى» معنا .كان لا يزال ممسكاً بعكاز «أوجى» «باكو» وأنا كنا جالسين فى المقعد الخلفى .عبرنا شارع «سانت إدوارد» إلي المركز «الكاثوليكى». وهناك كان يوجد حفل رقص وغناء بمناسبة الكريسماس فى هذه الليلة رأينا شرطيين يقومان بالحراسة عند الباب .لم نكن نري أية عصابة مثل عصابة «البيشوب» هناك، لذلك ذهبنا بالسيارة إلي متجر الحلوى. انتظرنا هناك عبر الشارع .كانت الساعة قد بدأت تقترب من الحادية عشر مساءً . كنا قد طلبنا من «مانى» انتظارنا بالسيارة.

عبرنا الشارع متوجهين إلي متجر الحلوي .رأينا هناك العديد من أفراد عصابة «البيشوب» فقلت: «هه ، هاهم، نحن نبحث عن نائب رئيسكم .لقد سمعنا بأنه يريد أن يبرم اتفاقية سلام بيننا لذا أتينا هنا لنتكلم معه بشأنها .فهل هو موجود؟»

قال أحدهم: «هل تعنى جو»؟ . «نعم».

إنه هناك فهو معتاد أن يقف فى ذلك الركن ليقبل الفتيات.

ذهبنا إلي حيث كان جو جالساً علي الأرض بجانب الفتاة .فنظر إلينا.

وهنا قال «أوجى» : «أنت، يا رجل، نحن من تريد أن تتقابل معهم». المومومس. «لقد أتينا خصيصاً لأجلك».

حاول جو آنذاك الوقوف علي قدميه، لكن «أوجى» كان قد وضع قدميه فوق كتفه ودفعه للجلوس ثانية .كلاً منا كان يحمل مسدساً فى جيبه، وكان يري تماماً بأننا كنا نصوبها نحوه. فبدأ يصرخ .فجذب «أوجى» مسدسه وصوبه ناحية بقية الأولاد فى المتجر قائلاً: «لا يتحرك أياً منكم وإذا تحرك أحد فسأقتله».

بدأ صاحب المتجر يصاب بالتوتر .فقال «أوجى» : «نحن لن نمس أحداً منكم يا «بوبس» فقط ابقوا فى أماكنكم وسوف نخرج من هنا فى دقائق».

تكلمت مع جو الذى كان لا يزال جالساً علي الأرض بجانب الفتاة.وقلت له: «أنت يا غلام لديك خياران .إما أن تأتى معنا الآن أو نقتلك وأنت فى مكانك هنا .فهل أنت محتاج إلي دقائق لتفكر؟ »

بدأ الولد يتلعثم بشدة ، فقلت: «حسناً لقد فكرت بالأمر». أوقفته علي قدميه وذهبنا إلي الباب حيث كان «إسرائيل» لا يزال واقفاً مشهراً مسدسه نحو بقية الأولاد فى المتجر.

أنتم قولوا لعصابة «البيشوب» بأننا سنعيده بعد أن نلقنه درساً عن كيف طعن واحد من «المومومس» هذا ما قاله «أوجى» ونحن نغادر المكان. ثم أغلقنا الباب خلفنا وأجبرناه علي الجرى نحو السيارة حيث دخلنا فيها جميعاً .أجلسنا «جو» فى الخلف بينى وبين «أوجى» ونحن نصوب المسدس نحوه.

أوقفنا السيارة وقدناه إلي مبني مهجور بالقرب من كوبرى «مانهاتن» أخذناه إلي الداخل وربطناه إلي كرسى وكممناه .وسخرت منه قائلاً: «أظن بأننا سنقتلك سريعاً.أو لربما سنتركك هنا بقية حياتك .ثم بصق «أوجى» فى وجهه بعدها مضينا وأغلقنا الباب وراءنا وكان ذلك فى منتصف الليل.

لم نعد إليه إلا بعد مضى ليلتين .وعندما ذهبنا أخذنا معنا خمسة وعشرين شخصاً من

«الموموس» . كان «جو» لا يزال جالسا علي جانبه مقيداً فى الكرسى .وكان قد حاول الهرب لكنه لم يستطع لأنه كان مربوطاً بإحكام .أجلسناه بانتصاب وأضأنا الأنوار .كان قد مكث هناك بدون ماء أو طعام لمدة يومين .والمبني كان شديد البرودة .أما هو فقد امتلئ بالرعب والخوف عندما التففنا حوله.

دعوت «مانى» أن يأتى ويقف أمامه،ثم سألته: «مانـى ..هـل هذا هو الولد الذى طعنك وهدد بقتلك ؟»

تقدم «مانى» وهو علي عكازه وقال: «نعم إنه هو » . نزعت الكمامة من علي فمه .كانت شفتيه ولسانه منتفختين و مشققتين من قلة الماء .وحنجرته كانت ناشفة و كان يحاول أن يحرك فمه كأنه يمضغ شيئاً مصدراً أصواتاً وهو يحاول أن يتكلم.

فقلت ضاحكاً: « أترون ها هو يعترف بأنه الفاعل» .

جذب «أوجى» شعره الطويل ودفع رأسه إلي الوراء .ثم نفض «مانى» طفاية السجاير وأمسكها بالقرب من حنجرته .كانت عينا «جو» قد اتسعتا من الرعب وكان «مانى» يضحك وهو يلمس رقبته بطرف السيجارة المشتعلة .صرخ من الألم فنزعها «مانى» بعيداً عنه.

قال «أوجى» لـ «مانى» : «هيا مرة ثانية مرة ثانية» «لقد طعنك مرتين.» .

فى هذه المرة أطفئ «مانى» السيجارة فى فم الولد وهو يحاول دفعها بقوة من خلال شفتيه المشققتين.ارتجفت ذقن الولد وهو يحاول أن يبصق رماد السجاير فى محاولة ضعيفة منه للتخلص من التبغ الذى تعلق بلسانه.

قال «أوجى» : «والآن يا أولاد جاء دوركم» .

فجاء إليه كل ولد وأشعل سيجارة بينما كان «أوجى» يشد رأسه إلي الخلف .كان يصرخ من الخوف و حنجرته تصدر أصواتا مضحكة كأنها ورقة رقيقة تحتك بحاجز سلكى .وضغط الأولاد عليه من كل جانب حيث كان كل واحد منهم يطفأ السيجارة فى وجهه ورقبته .فكان يصرخ مراراً و وتكراراً حتي غشى عليه من شدة الألم.

حللنا ربطه فوقع علي القاذورات وخيوط العنكبوت التى كانت تملئ الأرض .كان الأولاد يركلونه بأحذيتهم المدببة لاعنيه بصوت عال متسببين بذلك فى كسر ضلوعه وفكه .وبعد ذلك

ألقيناه فى السيارة من الخلف ورجعنا به إلي متجر الحلوي ثانية فى منطقة نفوذ عصابة البيشوب.

كتب «أوجى» رسالة قصيرة وألصقها فى ظهره تقول: «لا يتعرض أحد بالأذي إلى أحد أعضاء عصابة «المومومس» وينجو من فعلته هذه». قدنا السيارة ببطء نحو المتجر وألقيناه وهو فاقد للوعى فى الشارع . ثم ذهبنا فى طريقنا.

فى ليلة الكريسماس قابلت «مانى» عند «جينو». كنا نجلس هناك خلف البار ندخن السجائر ونضحك متذكرين أحداث الأسبوع الماضى .ثم نظرت لأعلي فرأيت خمسة من عصابة «البيشوب» يعبرون الشارع .نظرت حولى وبالرغم من أننا كنا فى منطقة نفوذنا إلا أننا كنا لوحدنا تماماً. فوكزت «مانى» وقلت له: «عصابة «البيشوب» يا رجل ها هم .هيا لنهرب من هذا المكان».

لكن الوقت كان قد تأخر .فقد رأونا ونحن نزحف من خلف البار إلي الباب الخلفى .فركضنا من الباب إلي عبر الشارع ثم إلي الزقاق .كنا نجرى بأقصي سرعة لنا ولكننا كنا فى أردء أحوالنا حيث كان «مانى» يسقط خلفى و عندما التففنا إلي زاوية الزقاق ثم إلي الشارع وجدناهم أمامنا.

حنيت رأسى إلي الأسفل واندفعت جريا فى وسطهم .كانوا مندهشين من جرأنى الشديدة هذه حيث لم يتوقعوا منى هذا الهجوم .هاجمت أحدهم برأسى فى بطنه فوقع إلي الخلف علي الرصيف جالساً .ثم وضعت يدى على سيارة كانت متوقفة هناك وقفزت من فوقها إلي الشارع .فوجئت شاحنة كانت تعبر الشارع آنذاك وتطلق نفيرها بقوة لكنى استطعت العبوربسلام من أمامها .كنت أرجو أن يكون «مانـى» قد فعل نفس الشىء.

فجأة أدركت بأن «مانى» وقع فى أيديهم .نظرت إلي الخلف فلم يكن أحداً من عصابة «البيشوب» يتبعنى .فتوقفت عن الجرى ورجعت إلي الشارع لأنظر ما قد حدث .وجدت عند بداية الزقاق الأولاد الخمسة وقد أوقفوا «مانى» ودفعوه إلي الحائط وظلوا يضربونه ويركلونه فى بطنه ووجهه بقبضات أيدهم.

ثم رأيت وميض من النور سريع فأدركت بأنه انعكاس ضوء الشمس علي موس المطواة. ركضت وأنا أخرج سكينى وأصرخ قائلا: «أيها السفلة ...يا خنازير ...اتركوه وحده ..سوف أقتلكم».

لكن الوقت كان قد تأخر .فقد جذب الولد الذى كان يحمل المطواة يدى «مانى» إلي الخلف وبدأ يطعنه فى صدره بكل قوته .كان «مانى» يلهث وهو لا يزال منتصباً .ظل هكذا واقفاً إلي

الحائط لمدة دقيقة ثم بدأ يسقط بوجهه علي الأرض. وعندما وقع طعنه الولد للمرة الثانية بقوة فى صدره.

وقفت للحظات علي الحاجز .لم أكن أصدق بأنهم كانوا يحاولون قتله .والآن صرت أكثر وحشية .فاندفعت إلى الجمع وأنا اضرب بالسكين وادفع بقبضتى .فتفرقوا وركضوا فى كل اتجاه صوب الشارع .وتركوا و «مانى» واقعاً علي الرصيف والدماء تسيل من فمه وأنفه ومن تحت سترته الجلدية.

كان يمكث هناك علي بطنه ووجهه ملتفت بشدة نحوى، ينظر إلّى و عيناه ممتلئتان من الرعب .كان يحاول أن يتكلم، لكنه عندما فتح فمه لم تخرج منه أية كلمة فقط خرجت بعض الفقاعات من الدماء .فانحنيت إليه وقلبته علي ظهره .رفعت رأسه ووضعتها علي رجلى ثم علي سترتى الجلدية برفق .غمر دمائه سروالى وكان دافئاً و لزجاً فى يدى.

كان يحاول أن يقول شيئاً .كانت عيناه مملوءتان رعباً .لكن عندما فتح فمه ليتكلم كل ما كنت اسمعه هو صوت تنهداته الخارجة من رئتيه .وظل يخرج فقاعات الدماء من فمه وهو يحاول التكلم.

صرخت، «مانى «مانى» لا تمت لا تمت «مانى».

لكنه فتح فمه ، سمعت صوت هواء يهرب منه .كان الصوت يشبه إلي حد كبير صوت إطار سيارة يفرغ من الهواء .ثم وقعت رأسه فى يدى وشعرت بصدره وهو يتوقف عن التنفس تحت سترته.

حدقت فى عينيه المفتوحتين ، كان قد مات. «مانى مانى مانى» كنت أصرخ بأعلي صوتى وكنت مصدوماً من هول هذه التجربة .سمعت أصواتاً بالشارع، كانت هناك امرأة تصرخ: «ها أنت ما الذى يحدث هنا؟»

لم أستطيع البقاء. فقد كان من الممكن أن أتهم بقتله بسبب سجلاتى لدي الشرطة .ولم يكن بمقدورى أن أفعل شيئاً الآن. ازدادت الأصوات علوا من حولى فوقفت علي رجلى. وسقط جسد «مانى» الثقيل علي الأرض فوق الرصيف. كان صوت رأسه وهو يرتطم بالأرض يصدوا فى داخلى وأنا أعدوا عائداً إلي الزقاق ثم إلي الشارع .وكانت صورة «مانى» وهو ملقي علي الأرض ووجهه ينظر إلى وعيناه المفتوحتين يملئهما الرعب هى كل ما كان يجول فى ذهنى

آنذاك .فقد كنت خائفاً جداً.

ركضت طوال الطريق عائداً إلي شقتى. دفعت الباب من خلفى بعنف وجذبت مسدسى من الخزانة. كنت أتنهد بقوة وأنا أرتجف جالساً علي طرف سريرى مصوباً المسدس نحو باب الخزانة. كنت ممتلئاً رعباً.

لم أري الموت بهذا القرب من قبل، فقد كنت اليوم وجهاً لوجه معه .لقد كان صديقى. كان يضحك معى ويتكلم منذ دقيقة واحدة. وفى اللقطة الثانية ملقي علي الأرض والدماء تخرج من فمه بكثرة.... لم أستطع الاحتمال أكثر. كنت أظن بأنى شجاعاً لا أخاف شيئاً. لكن لحظات الموت هذه كانت أكثر مما كنا أحتمل. بدأت أشعر بألم فى بطنى.وبدأ طوفان من الغثيان يملئنى، تقيأت مرة تلو الأخري، أردت أن أبكى، لكنى لم أكن أعرف كيف.

قفزت على قدمى وركضت نحو الحائط وصرخت مراراً و تكراراً: «أنا لست خائفا ..أنا لست خائفا».....

كنت كمن تسلطت عليه أرواح شريرة .نظرت إلى يدايا .فرأيت الدماء الناشفة علي جلدى و تحت أظافرى .وللمرة الثانية عاودتنى صورة شفتاه المتشققتين وعيناه المصقولتين.

بدأت أخبط رأسى فى الحائط صارخاً: «لا أحد يستطيع أن يؤذينى .. لا أحد يستطيع أن يؤذينى ...لا أحد» ...

وقعت علي الأرض من شدة الإجهاد وبدأت ألهث باحثاً عن هواء أتنفسه .فالخوف والصدمة والرعب وقلة الحيلة و الخوف المهول كان بالنسبة لى كابوسا قد تحقق .ظللت أتلوى مرة بعد مرة علي الأرض وأنا ممسك بصدرى بيدى الاثنتين أتأوه وأصرخ .كانت حوائط الغرفة تبدو قريبة جداً منى أما السقف فقد بدا بعيداً عنى لدرجة كبيرة وكأنها عشرات الأميال .كنت كأنى أمكث فى مربع صغير أنظر إلي الباب والنافذة التى تبعد آلاف الأميال عنى .كنت كمن حبس فى داخل ماصة فى كوب من المياه الغازية وأنا هناك فى الأسفل أبعد آلاف الأميال عن باب النجاة.

وفجأة ظهرت فوقى سحابة كثيفة من الطين بدأت تضغط علي هذه الماصة إلي أسفل باتجاهى. كدت اختنق .فتحت فمى كى أصرخ ولكن لم يخرج منه شيئاً إلا فقاعات دماء .كنت أحاول تسلق الحائط حتي أستطيع النجاة. ولكن رأسى كانت تتمايل إلي الجانب، كنت أشعر بها ترتطم بالأرض محدثة صوتاً تماماً كصوت ارتطام رأس «مانى» بالأرض بعدها انثنيت علي ركبتى.

كانت سحابة الطين تقترب منى وأنا أحاول دفعها عنى بيدىَّ الاثنتين .وكانت سحابة الموت ، الموت ، الموت، تلاحقنى .كنت أشعر بأزيز الهواء الخافت وهو يخرج من رئتى .كنت أتلوي وأحاول الصراخ ولكن لم يخرج منى سوي فقاعات صوتها كصوت الغرغرة الضعيفة فى رئتى «مانى» حين كانت الدماء تتدفق من رئتيه إلي فمه.سمعت هذا الصوت يصدر من رئتى أنا أيضاً .فجأة صارت السحابة السوداء قريبة جداً منى وسمعت ضحكة خاوية تصدح من خلفى علي جانبى الماصة حيث كنت ماكثاً هناك .كانت تعلو وتعلو وتنشد :المو ت.. الموت ....الموت... لقد كانت ضحكة إبليس.

عندما أفقت فى الصباح الباكر كانت الشمس تحاول التلصلص من خلال نافذتى المتسخة. كنت لا أزال ماكثاً علي الأرض متقلصاً، حزيناً وشاعراً بالبرودة .وكان أول شيء لاحظته هو يدى اللتين كانت لا تزال بالدم الناشف.

الفصل التاسع

فى الحفــرة

اجتمع أربعة منا قبل عيد القيامة بثلاثة أيام علي ناصية شارع «اربرن وسانت إدوارد» أمام كنيسة «سانت إدوارد» و «سانت مايكل» . علمنا بأن قُسس الكنيسة كانوا قد حصلوا علي تبرعات كثيرة خلال أيام الأعياد السابقة لذلك كنا نخطط لسرقة الكنيسة .خرج شرطى من مبني الشرطة المقابل لنا ، رآنا ونحن واقفين مستندين علي السياج الحديدى المحيط بالكنيسة.

عبر الشارع إلينا و قال: «اخرجوا من هنا أيها الخنازير» البرتوريكان. «كننا ظللنا واقفين هناك مستندين علي السياج ننظر إليه بازدراء».

فقال ثانية: «أيها الغلمان قلت لكم أن تغربوا عن هذا المكان» . تفرق بقية الأولاد ، لكننى ظللت واقفا هناك أراقبه .نظر إلى الشرطى و بدأ يصيح :«قلت لك ابتعد عن هنا أيها القذر ابتعد» . ثم مد يده ليجذب عصاه و يضربنى بها .فبصقت فى وجهه .فكاد أن يضربنى بالعصا ولكنى ابتعدت فضرب السياج بدلا منى .فقمت بمهاجمته فامسك بعنقى .كان أضخم منى مرتين إلا أنى كنت أعتقد بأنى أستطيع أن قتله إن أردت ذلك .مددت يدى لأجذب المطواة فشعرت به يفتح جراب المسدس و يخرجه ويصيح طالباً النجدة فى نفس الوقت.

تراجعت بسرعة ورفعت يدىّ إلي فوق و قلت: «أنا استسلم .. أنا استسلم ..» خرجت الشرطة متدافعة من المركز عبر الشارع إلى .قبضوا على و جرونى إلي المركز .صفعنى الشرطى الذى كان يتعارك معى علي وجهى .فشعرت بالدماء تخرج من فمى إلي شفتى.

فقلت له: «أنت شرطى أضخم منى كثيراً و معك مسدس. لكن بداخلك شخص جبان جداً مثل جميعكم أيها الشرطة القذرة» .

ضربنى ثانية فتظاهرت بأنه أغشي على وأوقعت نفسى أرضاً . فقال لى: «قف علي قدميك

أيها القذر ففى هذه المرة سوف نسجنك عمرك كله».

وفيما هم يجروننى إلي الغرفة الأخري سمعت شرطى منهم يقول: «هذا الولد مجنون . يجب آن يسجنوه بقية حياته قبل أن يقتل أحدا آخر».

كانت الشرطة قد قبضت على عدة مرات من قبل، لكنهم فى كل مرة لم يكونوا قادرين علي أن يثبتوا أى شىء ضدى .لأنه لم يستطع أحد أن يشهد ضدى فقد كانوا يعلمون بأنى عندما سأخرج من السجن سأقتلهم أو ستقتلهم «المومومس». من أجلى.

فى هذه المرة أرسلونى إلي المدينة ووضعونى فى زنزانة .دفعنى السجان إلي داخل الزنزانة فرجعت وهاجمته بقبضتى فى وجهه .فأخرجنى خارج الزنزانة إلي الممر و أمسك بى شرطى آخر وظل يضربنى.

قال: «الطريقة الوحيدة التى يمكن أن توقف مثل هؤلاء الغلمان هى أن تبرحهم ضرباً .فهم جميعاً رزمة من الخنازير القذرة .فلدينا سجن ملىء بالزنوج والشواذ والقتلة .وأنت مثلهم جميعاً فإذا ما حاولت اجتياز حدودك فسنجعلك تندم وتتمني الموت».

ثم دفعونى إلي داخل الزنزانة ثانية و بقيت علي الأرض الصلبة وأنا العنهم .قال السجان: « حسنا يا غلام.» ثم أغلق باب السجن وراءه« لماذا لا تقف وتلقنا درسا أيها البهلوان ؟ أنت قوى جداً أليس كذلك؟» فعضضت على شفتى ولم أجبه .لكنى كنت اعلم بأنى سأقتله عندما أخرج من السجن.

جاء إلي زنزانتى السجان فى اليوم التالى .وما أن فتح الباب حتي هاجمته ثانية وأسقطته عبر الممر. فضربنى بمفاتيحه علي رأسى .فشعرت بالدماء تسيل من جرح فوق عينى .فصرخت فيه قائلا: «هيا اضربنى .لكن ذات يوم سآتى إلي منزلك و أقتلك مع زوجتك وأولادك .فقط انتظر وستري».

لقد اعتقلونى لأننى قاومت شرطياً أثناء أداء عمله و لم أطع أوامره .لكن الأمور هنا بدأت تزداد سوءاً. دفعنى السجان إلي الخلف وأغلق الباب. «حسنا يا قذر فستبقي هنا حتي تتعفن».

كان سينظر فى قضيتى فى الأسبوع التالى .دخلت إلي المحكمة وجلست علي المقعد بينما بدأ الشرطى ينادى على القضايا.جاء القاضى وهو عابس مرتدياً نظارة من الطراز القديم ثم بدأ

يقول: «انتظر لحظة ألم يأتى هذا الولد إلي المحكمة من قبل. «فأجاب الشرطى». نعم يا سيدى. هذه هى المرة الثالثة له فى المحكمة .وإلي جانب هذا فسجله يحتوى علي ٢٢ مرة قبض فيها عليه وكان متهماً بالكثير بداية من السرقة إلي الاغتصاب والقتل العمد».

التفت القاضى إلى وقال: «كم تبلغ من العمر يا صبى؟»

فعدلت جلستى علي الكرسى ونظرت إلي الأرض.

«قف وأنا أكلمك». هكذا صاح القاضى.

فوقفت علي قدمى ونظرت إليه.

«قلت كم تبلغ من العمر؟» أعاد السؤال على بصرامة.

«ثمانية عشر عاماً» هكذا أجبته.

«أنت إذا تبلغ فقط ثمانية عشر عاماً وقبض عليك اثنين وعشرون مرة ودخلت إلي المحكمة ثلاث مرات .لماذا لم يأتى والديك معك؟»

أجبته، «هم فى برتوريكان».

«مع من تعيش؟ »

«لا أعيش مع أحد .أنا أعيش وحدى».

«كم أمضيت من الوقت وأنت وحدك؟»

«منذ أن أتيت إلي نيويورك من ثلاث سنوات».

قاطع الشرطى الحديث قائلاً: «يا سيدى. هو ولد فاشل .رئيساً «للموموس». وهو أساس كل المشاكل فى مشروع الإسكان .لم أري فى حياتى صبى بهذه القسوة والوحشية من قبل .فهو مثل الحيوان المتوحش وأسلم طريقة للتعامل مع من مثله هى الحبس للأبد .أود أن أنصحك يا سيدى بأن تضعه فى السجن إلي أن يصير عمره واحداً وعشرين سنة .فمن المحتمل حينذاك بأن نستطيع أن نعيد الهدوء إلي «فت جرين» ».

التفت القاضى ونظر إلي الشرطى و قال: «هل تقول بأنه مثل الحيوان المتوحش ، هه؟ مثل

كلب مجنون هل تقول هذا؟»

«نعم يا سيدى .وإذا أفرجت عنه فسوف يقتل أحداً قبل حلول الظلام» .

«نعم اعتقد بأنك علي حق «قال القاضى وهو ينظر إلى» . لكنى أظن بأنه علينا معرفة السبب الذى جعل منه حيواناً متوحشاً .لماذا هو بهذه القسوة؟ لماذا يريد أن يكره ويسرق ويقتل؟ نحن لدينا المئات من نفس نوعيته تدخل كل يوم المحكمة أنا أري بأن الدولة تحتاج إلي دراسة حالة هؤلاء ومعرفة الطريقة التى يمكن للدولة إنقاذهم بها لا أن نلقى فقط بهم فى السجن طوال حياتهم .أنا أعتقد بأنه بداخل نفس كل واحد من هؤلاء الكلاب المسعورة نفس يمكن أن تخلص» .

ثم التفت إلي الشرطى قائلاً : «هل تعتقد بأنه يجب علينا أن نحاول ؟»

فرد عليه الشرطى : «لا أعرف يا سيدى .فهؤلاء الأولاد قد قتلوا ثلاثة من رجال الشرطة فى السنتين الماضيتين، لدينا أيضاً خمسين جريمة قتل هناك فى المدينة منذ أن توليت العمل. الشىء الوحيد الذى يتجاوبون معه هو القوة .وأنا أعلم بأنك إن أفرجت عنه فلسوف نقبض عليه ثانية لكن فى المرة القادمة من الممكن أن يكون متهماً بجريمة قتل» .

لقي القاضى نظره علي بعض الورق الذى كان موضوعاً أمامه. وقال: «كروز» هل هذا هو اسمك؟ تعالي إلي هنا يا «نيكى كروز» قف أمامى وراء المقعد .قمت و ذهبت إلي الأمام. كنت أشعر بركبتى وهما ترتجفان .فمال القاضى علي المنضدة ونظر إلي مباشرة.

«نيكى أنا لدى ابن سنه قريب من سنك .يذهب إلي المدرسة .يعيش فى بيت جميل و جيرة جيدة .لا يصنع مشاكل .يلعب البيسبول فى الفريق المدرسى ويحرز نتائج جيدة .فهو ليس كلباً مسعوراً مثلك .والسبب فى أنه ليس كذلك هو لأنه وجد شخصاً يحبه .فمن الواضح يا «نيكى» بأنه لا يوجد من يحبك .وبالتالى فأنت لا تحب أحدا .ولا تملك القدرة علي الحب.

أنت مريض يا «نيكى» وأنا أريد أن أعرف لماذا .أريد أن السبب الذى جعلك تكره بهذه القوة. فأنت لست طبيعيا كباقى الأولاد .فالشرطى علي حق ..أنت حيوان ...أنت تعيش كالحيوان وتتصرف كالحيوان ...وأنا على أن أعاملك مثل الحيوان. لكنى أريد أن أعرف قبلها لماذا أنت غير طبيعى هكذا. سوف أضعك تحت إشراف الدكتور النفسى للمحكمة د .حون جودمان .فأنا لست مؤهلا لأميز إن كنت مريضاً نفسياً أم لا، لذلك سأضعك تحت الاختبار وهو سيقدم لنا تقريراً عنك» .

فأومأت رأسى بالموافقة .لم أكن أعرف إن كان سيطلق سراحى أم سيضعنى فى السجن ولكنى كنت اعرف بأنه لن يرسلنى إلي السجن علي الأقل الآن.

قال لى: «شىء آخر يا «نيكى» إذا ما تسببت فى أى مشاكل أخري وإن جاءتنى أية شكوي عنك أو إذا سلكت سلوكاً سيئاً فسوف أدرك تماماً حينئذ بأنك غير قادر علي السيطرة علي سلوكك أو تحمل مسئوليتك و بالتالى سأضعك فى مزرعة العمل «الميرا» مباشرة .فهل تفهمنى؟»

«نعم يا سيدى» هكذا أجبته .كنت مندهشاً من نفسى .فهذه كانت أول مرة أقول فيها «نعم يا سيدى» لشخص ما. لكنها كانت الشىء الصحيح الوحيد الذى كان من الممكن أن أفعله وأنا فى هذا الظرف.

فى صباح اليوم التالى جاء الدكتور النفسى الخاص بالمحكمة د .جون جودمان إلي زنزانتى. كان رجلاً ضخماً تعلو وجهه علامات متعددة .كانت ياقة قميصه بالية وحذاءه غير نظيف.

قال لى وهو يجلس علي المقعد واضعاً رجلاً فوق الأخري: «لقد عينت لأبحث فى قضيتك. وهذا يعنى بأنه علينا أن نمضى بعض الوقت معاً».

فقلت له: «بالطبع أيها الرجل الضخم . تحت أمرك».

«اسمع يا غلام أنا أتكلم يومياً مع عشرين ولداً فى اليوم مثلك .فإذا ما حاولت أن تسخر منى سوف تتمني بأنك لم تفعل هذا».

«تعجبت من طريقة كلامه الفظ هذا ولكنى قلت له بسخرية أنت تتكلم بجراءة معى وهذا أمر غير عادى من طبيب نفسى. أظن بأنه بإمكانك أن تأتى مرة لزيارة عصابة «المومس» فى أحد الليالى».

لكنه وقبل أن أتحرك أمسكنى بقوة من قميصى وكاد أن يرفعنى من علي الأرض. «دعنى أقول لك شيئاً يا وقح .لقد أمضيت أربعة سنوات فى العصابات و ثلاث سنين فى المارينز قبل أن التحق بالجامعة .هل تري هذه الندبة فى وجهى؟» و أدار رأسه حتي أستطيع أن أري العلامة العميقة التى كانت تمتد من خده إلي ياقة قميصه «لقد حدث ذلك فى خلال وجودى فى العصابات ولكن ليس قبل أن اقتل ست أشخاص آخرين بمضرب بيسبول .والآن إذا أردت أن تسخر منى و تعاملنى بوقاحة فأعتقد بأنك وجدت الشخص الصحيح».

دفعنى إلى الخلف فتعثرت فى السرير وجلست .ثم بصقت علي الأرض ولم أتفوه بكلمة أخري .عاد ليحدثنى بصوت هادئ قائلا: «فى صباح الغد سوف أذهب فى رحلة إلي جبال «البير» تستطيع أن تأتى معى وحينئذ سنتحدث سوياً».

فى اليوم التالى كنت تحت اختبار غير تقليدى من الطبيب النفسى. فقد خرجنا من المدينة إلى أعلي مدينة نيويورك .كانت هذه أول رحلة لى خارج المدينة منذ أن جئت من «برتوريكان» من ثلاث سنوات. كنت أشعر بالإثارة ، لكنى ظللت عنيداً و متكبراً عندما بدأ يسألنى بعض الأسئلة.

بعد أن توقفنا لبرهة فى العيادة أخذنى من يدى إلي حديقة حيوان عامة .كنا نمشى عبر الممر أمام الأقفاص .وقفت ونظرت إلي الحيوان المتوحش وهو يمشى ذهاباً وإياباً خلف الأسوار.

سألنى «هل تحب الحديقة «يا نيكى»

قلت له: «أنا اكرهها» وأنا ابتعد عن الأقفاص عائدا إلي الممر.

«آه؟ لماذا إذا؟»

«أنا اكره الحيوانات القذرة .دائما يتحركون ذهاباً وإياباً .دائماً يرغبون فى الخروج».

جلسنا علي مقعد طويل و تكلمنا .أخرج د .جون بعض الأوراق الفارغة من حقيبته و طلب منى أن أرسم صوراً، لحصان أو بقر أو بيوت .فرسمت صورة منزل له باب ضخم فى المقدمة.

فسألنى : «لماذا وضعت هذا الباب الضخم أمام المنزل؟»

قلت له : «حتي يستطيع أن يدخل منه الطبيب النفسى الغبى».

فقال : «لن أقبل هذه الإجابة قل لى شيئا آخر».

«حسنا حتي أستطيع أن الهرب منه إذا ما قام أحد بمطاردتى».

«معظم الناس يرسمون الأبواب حتي يخرجوا منها».

«لست أنا هذا الشخص .فأنا أحاول أن أهرب».

«والآن ارسم لى صورة شجرة».

رسمت صورة لشجرة .ثم عدت وفكرت بأنه لم يكن من الأفضل أن تكون هناك شجرة بدون طائر لذلك قمت برسم طائر علي غصن الشجرة.

نظر «جوودمان» إلي الصورة و قال: «هل تحب الطيور يا نيكى؟»

«أنا أكرههم».

«يبدو لى بأنك تكره كل شىء»

« نعم، من المحتمل بأنى أكره كل شىء .لكنى أكره الطيور بشكل خاص».

« لماذا؟ هل لأنهم أحرار؟»

فجأة سمعت من بعيد صوت الرعد ورأيت الظلام يملئ السماء .لقد بدأ هذا الرجل يخيفنى بأسئلته .فأخذت القلم و صنعت فتحة فى صورة الطائر. «إذا انس أمر هذا الطائر .لقد قتلته الآن».

«إذا فأنت تظن بأنك تستطيع أن تتخلص من كل ما يرعبك بالقتل .أليس كذلك؟»

«بحق الجحيم من تظن نفسك أيها الأحمق؟» هكذا صرخت فى وجهه. «هل تظن بأنك تطلب منى رسم صورة غبية ثم تسألنى بعض الأسئلة و هكذا تعرف عنى كل شىء؟ أنا لست خائفاً من أحد .الكل خائف منى أنا .اسأل فقط عصابة» البيشوب «وهم سيخبرونك عنى .لا توجد أية عصابة فى نيويورك تريد أن تتعارك مع «المومس». أنا لا أخاف أحدا» بدأ صوتى يعلو كنت قد وقفت علي قدمى أمامه وأنا أتكلم.

ظل ، «جوودمان» يضع ملاحظته فى دفتره . قال لى وهو ينظر إلى: «اجلس يا «نيكى» فأنت لست بحاجة لأن تؤثر على».

«اسمع يا رجل إذا ما استمريت فى مضايقتى هكذا فستصبح رجلاً ميتاً».

ازداد صوت البرق فى الأفق و وقفت أمامى. و «جوودمان» ارتجف وهو ينظر إلى ، بدا وكأنه يقول شيئاً لكنّ المطر يتساقط علي الممر بجانبنا .فهز رأسه وقال: «هيا من الأفضل لنا أن نذهب من هاهنا».

أغلقنا باب السيارة بينما بدأ المطر يزداد كثافة علي زجاج السيارة الأمامى . جلس .«د. جون» صامتا لمدة طويلة قبل أن يدير السيارة و يمضى فى الطريق .قال: «أنا لا أعرف يا «نيكى» ...أنا حقاً لا أعرف».

كانت رحلة العودة كئيبة .فقد كان المطر يغمر السيارة بلا رحمة .وغرقت فى أفكارى .كنت أكره العودة إلي المدينة .حيث كنت أخاف من فكرة العودة إلي السجن .لم أكن احتمل فكرة أن أكون محبوسا مثل الحيوانات المتوحشة التى رأيتها.

توقف المطر وبدأت الشمس تشرق من بعيد و نحن نقود السيارة عبر مئات الأبراج السكنية و الشقق الملطخة. شعرت وكأنى كنت أتهاوي فى حفرة. كنت أريد أن الخروج و اهرب. بدلاً من العودة إلي السجن أدار«جون» سيارته نحو «لافاييت» وتوجه إلي مشروع «فت جرين».

قلت له متحيراً: «ألن تأخذنى ثانية إلي السجن؟»

أجابنى «لا فأنا لدى الأوامر بأن أطلق سراحك .أنا لا أعتقد بأن السجن سوف يكون أفضل شيء بالنسبة لك».

فابتسمت قائلا: «حسنا يا رجل أنت الآن فى صفى».

أجابنى: «لا أنت لا تفهم ما أعنيه . أنا لا اعتقد بأنك ستستفيد شيئاً من جلساتنا هذه».

فقلت له ضاحكا: «ماذا تعنى يا د .جون هل تعتقد بأنى حالة ميئوس منها ؟»

توقف بالسيارة إلي جانب الطريق عند «لافاييت وفت جرين» وقال : «هذا صحيح بالطبع يا «نيكى» .فأنا قد سبق لى وأن جلست مع أولاد مثلك لعدة سنوات .أنا أيضاً كنت أعيش فى الأحياء الشعبية .لكنى لم أري أبداً ولداً بهذه القسوة و البرودة والوحشية مثلك .فأنت لم تتجاوب مع ما قلته لك. أنت تكره الجميع و تخاف من أى شخص يمكن أن يهدد أمنك».

فتحت باب السيارة و خرجت و قلت له: «حسنا يا دكتور اذهب إذا إلي الجحيم .فأنا لست بحاجة إليك أو إلي أى شخص آخر».

فقال لى وأنا أسير مبتعداً عن السيارة: «نيكى، سوف أفصح لك عن شيء هام وبكل بصراحة. أنت حالة ميئوس منها. فلا رجاء منك .وإما أن تتغير أو سينتهى بك المطاف إلي السجن و ربما الكرسى الكهربائى ثم الجحيم».

قلت له: «حسنا، سوف أراك هناك».

«أين؟» «فى الجحيم يا رجل» أجبته وأنا أضحك.

فهز رأسه وقاد سيارته بعيداً عنى .فى هذه الليلة حاولت أن استمر ضاحكاً ، لكن صوتى

اختنق في حنجرتي.

وقفت في الشارع علي الناصية ويدى فى جيب معطفى .كانت الساعة قد تجاوزت السابعة مساءاً والشوارع مكتظة بوجوه لم أكن أعرفها وأرجل كثيرة كانت تسرع فى المضى قدماً يتحركون ... «يتحركون...» يتحركون فى كل الاتجاهات . شعرت وكأنى ورقة شجر فى بحر من البشر تحملها الرياح فى جميع الاتجاهات وهى لا تعى شيئاً .البعض كان يجرى، فقد كنا فى شهر مايو ، لكن الجو كان بارداً. كانت البرودة تخدر رجلى ، وبدأت أشعر بالبرد يتسرب إلي داخل ملابسى.

كانت كلمات هذا الطبيب تخترق ذهنى مثل شريط متكرر: «أنت مستقبلك الوحيد هو السجن والكرسى الكهربائى والجحيم» .

لم أري نفسى هكذا من قبل .ليس إلي هذه الدرجة من الحقيقة. وددت أن أري نفسى فى المرآة .كنت دائماً الولد النظيف، وهذا لم يكن ما هو معتاد بالنسبة إلي معظم «البرتوريكان» .

الذين كانوا يعيشون فى منطقتى .فخلافاً عن كل الأولاد الذين كانوا معى فى العصابة كنت أنتقى ملابسى بعناية .أحب ارتداء ربطة عنق وقميص ملون .وكنت دائما أحاول أن أجعل سروالى مضبوطاً .كذلك كنت أضع الكثير من «الكريمات» علي وجهى.

و لم أكن أحب التدخين كثيراً لأنه كان يجعل رائحة أنفاسى كريهة .ولكنى فى داخل أعماقى شعرت فجأة بأننى إنسان قذر .فـ «نيكى» الذى أراه فى مرآة نفسى لم يكن هو «نيكى» الحقيقى. «نيكى» الذى أنظر إليه الآن هو شخص قذر .. قذر ...وإنسان ضائع.

كان صندوق الموسيقى فى متجر «بابا جون» يعلو بنغمة «البوب» . وكانت حركة المرور فى الخارج تصدر ضجيجاً صاخباً .كان الناس يصيحون و صوت الصفارات و الموسيقي يعلو .كنت أنظر إلي وجوههم التى تكاد تخلو من أية مشاعر . لم يكن أحد يبتسم . كان الجميع فى عجلة من أمرهم .كان بعضهم مخموراً . ومعظم العاهرات أمام البار كن يتعاطين المخدرات .لقد كانت هذه هى «بروكلين» الحقيقية .وكان هذا هو «نيكى» الحقيقى.

مضيت قدماً فى الشارع نحو شقتى فى «فت جرين» . كانت الجرائد ملقاة علي السياج والأبواب الحديدية للمتاجر .كانت هناك أيضاً زجاجات بيرة فارغة ومكسورة فى الشارع علي الرصيف . وكانت رائحة الطعام الدسم يملئ الشارع حتي كاد جعلنى أشعر بالغثيان. حتي الأرصفة صارت

تهتز تحت قدمى بينما صوت الأنفاق تخفت وتهدأ نحو الظلام المجهول.

تعرفت علي امرأة من العاهرات كبيرة فى السن .قلت: «كبيرة فى السن» لكن كان من النادر أن تحدد السن. فقد كانت قصيرة ، أقصر منى بكثير. وتضع وشاحاً أسوداً حول رأسها. كان شعرها الأحمر الذى صبغ مرات عديدة يظهر من جانبى الوشاح. كانت ترتدى أيضاً سترة لمشاة البحرية تكبرها بحوالى ست مقاسات .أما أرجلها الهزيلة التى تشبه «عيدان تنظيف الأسنان» يغطيها سروال فضفاض يصل إلي قبل وسطها بمسافة قصيرة .وكانت ترتدى حذاءً رجالياً بدون جورب.

كرهتها. فقد كانت تذكرنى بالحياة القذرة والبذيئة التى كنت أعيش فيها. صرت أبحث فى جيب معطفى عن المطواة. كنت جاداً هذه المرة حيث تخيلت نفسى وأنا أغمد السكين من خلال سترتها الغليظة هذه لتخرج من الجانب الآخر من جسمها .ملأتنى هذه التصورات بشعور دافئ وأنا أتخيل منظر الدماء وهى تتدفق من طرف سترتها إلي الشارع.

حينئذ جاء كلب يجرى باتجاهنا ، كنت أعرفه فهو يعيش فى شارعنا ، ذهب إليها مباشرة. فالتفتت ونظرت إليه نظرة تخلو من المشاعر .أدركت آنذاك بأنها واحدة من العاهرات التى كن يعشن فى نفس المبني الذى أعيش فيه. إذ من خلال نظرة طويلة لها وتمعن شديد فى عيناها الناعستين التى كانتا تنظران إلى نظرة خالية من المشاعر. علمت بأنها قد أخذت جرعة كبيرة من المخدرات.

تركت مطواتى ورجعت لنفسى أفكر ثم سرت للأمام وتركتها لحال سبيلها .وعندئذ وجدت عيناها الخالية من المشاعر تنظران إلي بالون أحْمر كانت الرياح تحمله إلي وسط الشارع.

بالون .كان هذا أول رد فعل لى وهو أن أعبر الشارع وأدوس عليه .كنت أكرهه ..اللعنة عليه.. أنا أكرهه .لقد كان بالوناً حراً.

فجأة انتابتنى موجة كبيرة ومختلطة من المشاعر .فقد تعاطفت مع هذا البالون الأحمق .كان الأمر يبدو غريباً لدرجة كبيرة فكيف لى أن أتعاطف شىء غير حى تحمله الريح فى كل اتجاه. هذه كانت المرة الأولي فى حياتى والتى أشعر فيها بهذا الشعور.

لذا وبدلاً من أن أعبر الشارع لأدوس عليه ، عبرت المرأة قبلى وأسرعت خلف البالون وهى تتطاير وتدور فى الشارع المتسخ.

كان الأمر فى غاية الغرابة حيث بدا الموقف مقرفاً، فكل ما كان حولى من قمامة و أوراق كانت تحملها الرياح الباردة .وعلي الرصيف كانت هناك زجاجات مكسورة و علب بيرة محطمة. وكان يعلو جانبى الرصيف مبانى من الطوب الكبير تشبه إلي حد كبير السجن وكنت أنا أعيش فى إحدي هذه السجون .لكن وسط كل هذا كان هناك بالوناً أحمراً طليقاً وحراً تقذفه رياح الطبيعة فى كل اتجاه.

لماذا كنت أعير انتباهى واهتمامى لهذا البالون القذر، وإلي هذه الدرجة؟ أسرعت بخطواتى حتي أستطيع اللحاق به .فوجدت نفسى أتمني بأن لا تلمسه أية قطعة زجاج مكسورة فى الشارع حتي لا ينفجر. مع أنى كنت أعلم جيداً بأن البالون لن يبقي علي حاله. لقد كان رقيقاً جداً، نظيفاً جداً. وهشاً جداً إلي درجة أنه لن يستطيع البقاء طويلاً فى وسط كل هذا الجحيم.

أمسكت بأنفاسى فى كل مرة كان يتراقص فيها مع الهواء ومن ثم يستقر علي الأرض، منتظراً سماع انفجاره. وهكذا ظل يتراقص وسط الشارع. وظللت أنا أفكر: « بأنه من المحتمل أن ينجو .ومن المحتمل أيضاً أن يستمر فى السير إلي أن يتخطي المبني و يطير حراً فى الحديقة .من المحتمل أن تكون لديه فرصة أخري».

كدت اصلى من أجل هذا الأمر .لكن انتابنى شعور بالاكتئاب عندما فكرت بالحديقة .فهذه الحديقة الغبية القذرة .ماذا لو فعلها و ذهب إلي الحديقة؟ ماذا إذا؟ لا يوجد هناك أى شيء يخصه. سوف يتطاير علي السياج الحديدى الذى يعلوه الصدأ وربما بعد ذلك سينفجر .وإن نجح و عبر السياج ودخل الحديقة فقد يقع علي بعض الأعشاب الشائكة هناك وأيضاً سيكون مصيره الانفجار.

هكذا استرسلت أفكر بذهنى: «أو بما فيما لو وجده شخص ما فقد يحمله عائداً إلي شقته القذرة وسيسجن هناك بقية حياته. لا ..لا رجاء له . أو حتي لى».

فجأة لمحت شرطياً قادماً إلي الشارع .فالتفت إليه ،وقبل أن أنهى سلسلة أفكارى سمعت صوت فرقعة. لقد داسته إحدي الشاحنات ضاربة به علي الرصيف بدون شفقة. ثم اختفت خلف المبني .لم تكن تعرف حتي ما الذى اقترفته وإن عرفت فهى لن تهتم .كنت أريد أن أركض خلف هذه الشاحنة وأصيح : «ألا تأبهون أيها العمال القذرون؟ ألا تهتمون؟ » كنت أريد أن أقتلهم لأنهم داسوا علي البالون فى الشارع.

لكنى شعرت بأنّ روحى تنسحب منى .وقفت علي الرصيف و نظرت عبر الشارع المظلم ،

لكن لم يكن هناك أى أثر للبالون .كان قد طحن فى القمامة و تطاير وسط شارع «فت جرين» وصار كأى قمامة وسط «بروكلين».

رجعت إلي الخلف و جلست .كانت المرأة العاهرة ما زالت تسير فى الشارع المظلم الرياح تصفر من حولها وحولى والأوراق تتطاير فى الشارع وتلتصق بالسياج الحديدى للحديقة.

وكان هناك صوت ضوضاء من أسفل مترو الأنفاق المظلم .كنت خائفاً. أنا «نيكى» كنت خائفاً .كنت ارتجف ليس من البرد فقط ، لكن من الألم الشديد الذى فى أعماقى.

وضعت رأسى بين يدى أفكر: «لا يوجد أمل . أنا محكوم على بالفشل .مثلما قال» . «جون» بالضبط .لا أمل لـ «نيكى» إلا فى السجن أو الكرسى الكهربائى ، ومن ثم الجحيم» .

بعد هذا لم أعد اهتم بشىء .أرجعت إلي رئاسة العصابة مرة ثانية و إلي «إسرائيل» أم لا . فقد هويت فى حفرة عميقة جداً .ولا يوجد لدى أى أمل بعد الآن .ومن الممكن أيضاً أن أصبح كباقى من كانوا يعيشون فى الأحياء الشعبية ، أو أعود إلي السجن. وأنا سئمت الهرب .ما قاله القاضى هو ما أنا محتاج إليه فعلاً.

الحب ... ولكن كيف لى أن أجد الحب وسط حفرة كهذه ؟

الفصل العاشر
المواجهة

كان هذا فى يوم الجمعة مساءً فى شهر يوليو سنة ١٩٥٨ حيث كان الجو حاراً جداً. وكنت أنا و«ليديا» و«إسرائيل» جالسين علي السلم أمام شقتى عندما لاحظنا بعض الأولاد الصغار يجرون عبر الشارع. فصحت بهم متسائلاً : «هه أنت ما الذى يجرى هناك؟».

أجابنى أحد الأولاد: «يوجد سيرك فى المدرسة».

«بروكلين» لم تكن من المدن التى تعرف الإثارة أبداً. لذا كان علينا أن نصنع لأنفسنا ما يثيرنا عن طريق المعارك التى كنا نخوضها و الجنس و تعاطى المخدرات. كان أى شىء يعتبر أفضل من الجلوس هنا فى رتابة مستمرة. لذا قررنا الذهاب عبر الحديقة إلي المدرسة التى فى شارع «سانت إدوارد».

رأينا هناك رجلاً واقفاً فوق خرطوم للمياه وهو يصيح قائلاً: «ادخلوا أيها الجنود المسيحيون» كان يقرع علي طبلة أمامه وهو يتكلم. ظل يعزف نفس الأغنية مراراً وتكراراً. وكان واقفاً بالقرب منه علي الرصيف شخص آخر، رجل رفيع و هزيل لم أري مثله من قبل. وفوقهم علي عصاً طويلة كان يرفرف علم الولايات المتحدة.

فجأة توقف الرجل قارع الطبل فبدأ الناس يصيحون فيه، فقد تجمع هنا المئات من الأولاد والبنات الذين ملئوا الطرقات والأرصفة.

كان هذا الرجل الهزيل قد استلف بيانو من المدرسة، ثم وقف فوقه فاتحاً كتاباً أسود. فبدأنا نصيح فيه. كان حانى الرأس، كنا نعتقد بأنه كان خائفاً. فارتفع صوت صياحنا من جديد بقوة. كان الجمع شديداً وكنت أقف هناك واضعاً إحدي زراعى حول «ليديا». التى بدأت تضحك فمددت يدى تارة تحت سترتها ومرة حول كتفيها.

فجأة ساد هدوء فى المكان. فحولت انتباهى من علي «ليديا» إلي الرجل الواقف علي البيانو. كان لا يزال واقفاً ورأسه منحنية فوق كتابه الأسود المفتوح بين يديه. انتابنى شعور غريب يشبه إلي حد كبير ذلك الشعور الذى كنت أحس به عندنا فى منزل أبى بينما كان يمارس السحر. الكل صار ساكناً جداً حتي السيارات التى فى مكان الانتظار فى حديقة «أفينو» والتى لا تبعد أكثر من نصف ميل عنا لم أعد أسمع لها صوتاً. كان الهدوء غير عادى. لذلك بدأت أحس بالخوف.

لقد بدأت مشاعر الخوف التى كانت عندى قبل انضمامى إلي عصابة «المومومس» فجأة تنتابنى.

وهو كان نفس الخوف الذى كنت أصارع فيه أمام القاضى فى المحكمة، ونفس مشاعر الخوف التى انتابتنى بعد أن تركت الدكتور النفسى عائدا إلي بيتى. وفى كل مرة كنت أحاول دفع هذه المشاعر بعيداً عنى، حيث كنت أهرب منها. إلا أنها الآن زحفت إلي قلبى و جسدى، كنت أشعر بأنها صارت تمتلك نفسى. كنت أريد الهروب ولكن الجميع حولى كانوا مركزين جيداً ومنتبهين جداً.

فجأة رفع هذا الرجل الهزيل رأسه وبدأ يقرأ من الكتاب الأسود و يقول: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتي بذل ابنه الوحيد، لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل لتكون له حياة أبدية».

كدت ارتجف من الرعب. كان هذا الرجل مثل قس أو ساحر أو ما شابه ذلك. وبدأ يتكلم عن الحب. كنت أعرف كل شيء عن الحب فقد كنت متخصصاً فيه. فمددت يدى و قرصت ليديا فى وسطها. فنظرت إلى وقالت: «استمع إليه يا «نيكى»». فأحبطت ثم نظرت ثانية إلي الرجل الهزيل. لكنه كان يتكلم هذه المرة عن انتظار معجزة ما قد تحدث. لم أكن أعرف ما هى هذه المعجزة، لكن كان الجميع ينصت إليه وأنا لم أرد أن أكون مختلفاً عن الباقين.

عندما فرغ من كلامه كنت أقف منتظراً شيئاً. تري ما الذى سيحدث؟ ثم قال بأنه يريد أن يتكلم مع رؤساء أو نواب رؤساء العصابات. فبدأت أشعر بخطورة هذا الرجل الذى كان يقتحم عالمنا و لم أكن أريد لأى غريب أن يقتحم حياتى هكذا.

أكمل كلامه قائلا: «إذا كنتم قساة وأقوياءً إلي هذه الدرجة فلماذا إذاً تخافون المجيء إلى، إلي هنا، تعالوا وصافحوا هذا المبشر الهزيل، لماذا لا تأتون ؟»

صار هناك صوت اضطراب فى الجماعة. فنادي أحدهم الجمع قائلاً: «آه.. ما الذى أصابكم

هل أنتم خائفون؟ » كان يشير إلي الرئيس «شابلنس» وإلي عصابة أخري شقيقة.

وهكذا سمعت صوت تحرك فى الجموع، فنظرت وإذ بعصابة «الباكبورد» تخرج مع عصابة «الستيجكوتش» واثنين من الزنوج من أعضاء العصابة. كانوا متوجهين نحو المبشر الذى استطاع بحنكته إخراجهم من وسط الجموع ، فانطلقوا إليه حيث كان هناك واقفاً ينتظرهم.

ازداد توترى ولم أكن راضياً عن كل ما كان يحدث. نظرت حولى فرأيت الجميع يبتسم ويفسح الطريق «للباكبورد» و«الستجكوتش».

تصافحوا بالأيدى ثم أخذ المبشر ولاعب الطبل «الباكبورد» و«الستيجكوتش» وولدان آخران و وقفوا بهم أمام ممر باب المدرسة. ظلوا هناك واقفين يكلمونهم فابتعدت عن «ليديا» واقتربت من «إسرائيل» وسألته: «ما الذى يفعلونه ؟» لكن «إسرائيل» لم يجبنى. فقط كانت تعلو وجهه نظرة مضحكة.

فجأة رأيتهم جميعاً يركعون علي أرجلهم فى الشارع. خلع «باكبورد» و «ستيجكوتش» قبعاتهم وحملوها بأيديهم وهم راكعين علي أرض الرصيف.

ولما فرغوا وقفوا عادوا ثانية إلي حيث الجمع. وهنا صحت فى «باكبورد» «آه أنتم هل صرتم متدينين الآن؟» كان «باكبورد» ولداً ضخم يزن حوالى ٢٠٠ باوند. التفت و نظر إلى بطريقة لم أعهدها من قبل. كان وجهه جاداً جداً. وكانت عيناه تنظران إلى بعمق شديد، كنت أعلم ما الذى كانت تعنيه، بالرغم من أنى لم أكن أفهم ما كان قد حدث له. قال لى وهو ينظر إلى: «من الأفضل لك أن تستسلم يا «نيكى» فليس هذا هو الوقت المناسب للمزاح».

فجأة صاح أحدهم فىّ: «أنت يا «نيكى» هل ستدع هؤلاء الزنوج يسخرون منك؟ هل أنت خائف من أن تذهب أنت أيضاً إلي هناك ؟».

لكمنى «إسرائيل» لكمة خفيفة فى ظهرى ثم أومأ إلى برأسه نحو الرجلين وقال: «هيا يا نيكى لنذهب». كان واضحاً بأنه كان جاداً ، لكنى تراجعت. فقد كان هناك شيئاً غريباً ... شيئاً قد يكون خطيراً ومخادعاً فى كل هذا الأمر برمته. وكأنه كان ينبئنى عن شىء كنت أخاف منه جداً .

بدأ الجمع يصيح: «انظروا إلي قائدنا. إنه خائف من هذا المبشر النحيل».

جذبنى «إسرائيل» من سترتى و قال لى: «هيا يا نيكى لنذهب». فلم يكن لدى اختيار فذهبت

إلي هناك و وقفت أمام الرجلين. صافحهم «إسرائيل»، لكن ولأنى كنت لا أزال خائفاً ومتراجعاً لم أفعل. فتقدم نحوى الرجل النحيل ورفع يديه ليصافحنى قائلاً لى: «نيكى أنا اسمى «دافيد ويلكرسون» وأنا مبشر من بنسلفانيا».

فمكثت أحدق فيه ثم قلت: «اذهب إلي الجحيم أيها المبشر».

قال لى: «أنت لا تحبنى يا «نيكى» لكنى أشعر بأن هناك شيئاً مختلفاً بك. «أنا أحبك» . وليس هذا فقط بل لقد أتيت أيضاً لأخبرك عن المسيح الذى يحبك».

كنت أشعر وكأنى حيوان محبوس. كان الجمع يقف من خلفى. وأمامى كان يقف هذا الرجل النحيل و يتكلم عن الحب. أنا أعرف بأنه لا أحد يحبنى... لم يوجد من يحبنى أبداً... وأنا واقف هناك بدأ ذهنى يسترجع منذ سنوات بعيدة الوقت الذى كانت تخبرنى فيه أمى و تقول: «أنا لا أحبك يا «نيكى»» خطر هذا علي بالى فقلت لنفسى «إذا كانت أمى لا تحبنى فمن ذا الذى إذاً يستطيع أن يحبنى لا، لا يوجد أبداً من يحبنى».

ظل المبشر واقفا هناك و يداه ممدودتان نحوى. كنت دائماً أكابر وأؤكد بأنى لا أخاف أبداً. لكنى كنت خائفاً آنذاك . كنت مرتعباً جداً من هذا الرجل الذى كان يريد أن يضعنى فى القفص. فهو سيأخذ أصدقائى منى . وسيفسد على كل شيء ، لهذا السبب أنا أكرهه.

قلت له: «اقترب منى أيها المبشر ولسوف أقتلك» وكنت أتراجع إلي الوراء محتمياً فى الجمع خلفى. لقد كنت خائفاً و لم أكن أعرف كيف أتعامل مع هذا الموقف.

بدأ الخوف يمتلكنى حيث كدت أصل إلي الذعر. فزمجرت فيه والتفت و مضيت وسط الجمع. صحت قائلا: «هذا الرجل شيوعى، اتركوه وحده ..إنه شيوعى».

لم أكن أعرف حتي ما معني كلمة شيوعى، لكنى كنت أعلم بأنّ الجميع كانوا ضد الشيوعية. وهكذا صرت أجرى و أنا مرتبك تماماً. ولكنى لم أعرف كيف يمكننى أن أحارب هذا الشعور. فلو كان قد جاء إلى ليتعارك معى حاملاً مطواته لكان من الممكن لى أن أتشاجر معه. ولو أنه جاء إلى ليتسول ويتوسل لكنت قد سخرتِ منه ثم أسديت له لكمة قوية فى وجهه. لكنه جاء ليقول لى «أحبك». لذلك لم أكن أعرف أبداً كيف أتعامل مع مثل هذا الأمر من قبل.

مضيت وسط الجمع و كان رأسى وصدرى مرفوعين. مددت يدى وجذبت «ليديا» من يدها

وخرجت بها و تركنا شارع «سانت إدوارد» بعيداً عن المدرسة.

تبعنى بعض الأولاد و تقابلنا فى القبو ففتحت الراديو علي أعلي صوت له. كنت أحاول أن أهدأ نفسى، لكن جملة «يسوع يحبك» ظلت تتردد فى ذهنى. فسألت نفسى: لماذا أنا قلق من شيء كهذا؟

رقصت بعض الوقت مع «ليديا» و شربت زجاجة نبيذ ودخنت سيجارة. كانت «ليديا» تشعر بالتوتر الذى كان ينتابنى «نيكى» «أظن بأنه من الأفضل أن تذهب و تتكلم مع هذا المبشر. فكونك مؤمناً من الممكن أن لا يكون إلي هذه الدرجة من السوء كما تظن».

حدقت فيها كثيراً بعد أن قالت هذا ثم أبعدت رأسها عنى.

لقد كنت بائساً. وفجأة سمعت صوت ضوضاء عند الباب فنظرت وإذا بالمبشر النحيل يدخل من الباب. كان منظره غريباً، حيث كان يرتدى بذلة جميلة وقميصاً أبيض و ربطة عنق مضبوطة، ويمشى وسط قبونا القذر. سأل أحدهم: «أين نيكى؟»

فأشار على الولد عبر الغرفة حيث كنت جالساً و رأسى بين يدى والسيجارة تتدلي من فمى. جاء إلى «ويلكرسون» مجتازاً الغرفة. كانت له ابتسامة كبيرة علي وجهه. رفع إلى يده ثانية وقال: «نيكى كنت أريد فقط أن أصافحك ...». وقبل أن ينهى كلامه صفعته علي وجهه. كان يحاول أن يحافظ علي ابتسامته. لكن كان واضحاً بأنى كنت قد ضايقته. صمد فى مكانه فبدأ الخوف يعترينى ثانية حتي شعرت بالغثيان.

قال لى: ««نيكى» لقد بصقوا علي المسيح أيضاً ولكنه ظل يصلى» يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون». فصرخت فى وجهه وبدأت ألعنه قائلا: «اذهب إلي الجحيم، أخرج من هنا الآن» وبدأت أدفعه إلي الخلف، نحو الباب.

قال لى: « «نيكى» قبل أن أذهب أريد أن أقول لك شيئاً، يسوع يحبك».

«اخرج من هنا أيها القس المجنون. أنت لا تعلم ما تتكلم عنه. سوف أعطيك مهلة أربع وعشرين ساعة لتترك فيها منطقة نفوذى و إلا قتلتك».

خرج «ويلكرسون» من الباب وهو لا يزال مبتسماً. «تذكر بأن يسوع يحبك». كان هذا أكثر مما كنت أحتمل. فجذبت زجاجة نبيذ وألقيتها علي الأرض. لم أكن قد شعرت فى حياتى بكل

هذا الإحباط واليأس والنقص.

لذلك اندفعت خارجاً عبر الباب ، وبدأ الكبرياء يتغلغل فى داخلى. أدركت بأن الجميع من حولى قد علموا بمدي تأثير هذا الرجل على. فكانت الطريقة الوحيدة التى كنت أستطيع خداعهم بها هى أن ازداد قسوة وخشونة. كنت أعتقد بأننى إن أظهرت مشاعرى الحقيقية ولو للحظة فسأفقد احترام العصابة لى.

قلت صارخاً : «هذا الساحر الغبى المجنون، إن عاد إلي هنا ثانية سأشعل النيران فيه». ثم أغلقت الباب من خلفى بعنف ووقفت علي الرصيف ، أنظر إليه وهو يسير أمامى بنشاط.

عندها قلت له بين وبين نفسى: «مغفل » مع إنى كنت أعلم فى أعماقى بأن هناك شىء حقيقى فى هذا الرجل.

التفت وسرت فى الاتجاه المعاكس. توقفت عند نادى «البلياردو» وبدأت أطلب الكرات لألعب ، صرت أركز علي طرف العصا التى بيدى. لكن كل ما كان يتردد فى ذهنى هو صوت هذا الرجل النحيل و هو يقول: «يسوع يحبك».

فكرت فى داخلى: «أنا لا أهتم، فهذا الكلام لن يهزنى. ولن يستطيع أحد أن يخيفنى».

لعبت بالكرتين المتبقيتين ثم ألقيت بالعصا علي المنضدة ومضيت. «يسوع يحبك»، ظلت هذه الكلمات ترن فى إذنى. قلت للأولاد بأنى أشعر ببعض المرض و أرغب فى العودة إلي شقتى.

كنت أخشي أن أكون مريضاً بالفعل .فأنا لم أعتد الرجوع إلي غرفتى فى هذا الوقت المبكر. كانت الساعة تشير آنذاك إلي العاشرة والنصف. كنت دائماً انتظر حتي الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً ثم أؤوى إلي الفراش.

أغلقت الباب خلفى بالمفتاح. فقد كنت ارتجف و أنا أدخل الغرفة وأضىء النور الذى بجانب سريرى. أخذت مسدسى من الخزانة وحشوت فيه رصاصتين ثم وضعته بجانبى علي المنضدة. خلعت عنى الحذاء و بدلت ملابسى ووضعت علبة السجائر علي المنضدة ثم استلقيت علي السرير ونظرت إلي الحائط. كنت أسمع كلمات «دافيد» تتكرر كثيراً فى أذنى «يسوع يحبك يا «نيكى» «يسوع يحبك».

قمت وأطفأت النور ثم أشعلت سيجارة. بدأت أدخن السيجارة تلو الأخري. لم أكن استطع أن أهدأ أبداً. لذلك كنت أتقلب فى سريرى من جانب لآخر. و لم أستطع النوم. ومضت الساعات بطيئة. وفى النهاية قمت من السرير وأضئت النور. نظرت فى ساعتى فوجدتها تشير إلي الخامسة صباحاً. إذاً لقد ظللت مستيقظا طوال الليل فى سريرى.

ارتديت ملابسى، وضعت المسدس فى الخزانة. أخذت معى علبة السجائر ومضيت نحو السلم إلي الخارج . فتحت باب الشقة. كانت الشمس قد أخذت تشرق فى البعيد. كنت أسمع صوت المدينة وهى تتثاءب مستيقظة عائدة إلي الحياة.

جلست علي السلالم الأمامية، وضعت رأسى بين يدى». يسوع يحبك... يسوع يحبك... يسوع يحبك».

ثم سمعت صوت سيارة تتوقف أمام شقتى وصوت باب يغلق بقوة. ربت أحدهم علي كتفى. فرفعت رأسى و إذ بالمبشر النحيل يقف أمامى. كان لا يزال يبتسم و يقول: أهلا يا «نيكى» هل تذكر ما قلته لك ليلة أمس؟ أردت فقط أن آتى إليك و أقول لك ثانية. «نيكى يسوع يحبك».

وقفت علي قدمى و تقدمت نحوه. فتراجع «ويلكرسون» إلي الخلف ، لم استطع الإمساك به. وقفت هناك أحدق فيه كالحيوان المستعد للهجوم. نظر «ويلكرسون» فى عينى و قال: «من الممكن أن تقتلنى يا «نيكى» . تستطيع أن تقطعنى إرباً و تلقينى فى الشارع، ولكن فى كل قطعة منى سوف أصرخ وأقول لك يسوع يحبك. ولن تستطيع حينئذ أن تهرب ثانية .

حاولت إخافته و إحباط عزيمته، لكنه استمر يتكلم: « «نيكى» أنا لست خائفا منك. أنت تتكلم بقسوة، لكنى أعلم بأنك فى داخلك مثلنا تماماً . لكنك خائف و مريض، أنت مريض بالخطية. أنت وحيد. ولكن يسوع يحبك».

شىء ما أثّر فى، كيف عرف هذا بأنى وحيد؟ لم أكن أعرف ما الذى كان يتكلم عنه وما هى هذه الخطية. كنت خائفاً من الاعتراف بالخوف. لكن كيف علم بأنى وحيد؟ كانت العصابة دائماً معى. كان عندى أية فتاة أريدها . كان الجميع يخافونى. وعندما يرونى قادماً إليهم علي الرصيف كانوا يفسحون الطريق أمامى. كنت قائد العصابة. كيف لأحد أن يعلم بأنى كنت وحيداً؟.. فعلاً، كنت وحيداً. والآن هذا المبشر قد علم بأمرى.

حاولت أن أكون أذكي منه «هل تعتقد بأنك تستطيع أن تغيرنى بهذه السهولة؟ «هكذا قلت له

و أنا أطقطق بأصابعى «هل تعتقد بأنى سوف استمع لك و أخذ كتاباً مقدساً و أمشى مثل المبشرين ، فيبدأ الناس يشيرون إلى ويقولون ها هو «نيكى كروز» الملاك قادم؟ قلت هذا وأنا مدرك تماماً بأنه جاد. وبأنه كان أميناً.

عاد و قال لى: « «نيكى» أنت لم تنم ليلة الأمس جيدا أليس كذلك؟ » اندهشت للمرة الثانية .كيف علم بأننى لم أستطع النوم؟

أكمل حديثه معى قائلاً: «أنا أيضاً لم أستطع النوم البارحة. لقد بقيت مستيقظاً يا «نيكى» أصلى من أجلك. لكن قبل أن أفعل هذا تكلمت مع أحد أصدقائك. لقد قال لى: بأنه لا يوجد شخص يستطيع الاقتراب منك. فكلهم خائفون. لكنى أتيت أليك يا «نيكى» لأقول لك بأنّ هناك شخصاً يهتم بك. يسوع يهتم بك .هو يحبك». ثم نظر إلى مباشرة فى وجهى و قال: «يوماً ما يا «نيكى» سوف يتعامل معك الروح القدس. سيأتى ذلك اليوم يا «نيكى» الذى ستتوقف فيه عن الهرب و حينئذ ستهرب إليه».

لم أستطع أن أقول له أية كلمة. وقفت علي قدمى وأدرت له ظهرى ، ثم مضيت إلي شقتى أغلقت الباب خلفى. صعدت السلم متوجها إلي غرفتى ، جلست علي طرف السرير أنظر عبر النافذة، حتي اختفت سيارته. كان مبني«بروكلين تيك» الضخم الواقع وسط الشارع يحجب عنى الرؤية فى الأفق البعيد . لكنى شعرت فجأة بنسمات كأنها قادمة من البحر مع أنى كنت أبعد عنه أميالاً عديدة. صار لدى شعور قوى بأن الحياة ما زال لديها الكثير لتقدمه لى. فهناك أكثر من هذه المبانى الشاهقة و هذه الحوائط الزجاجية و الحجرية التى هى أشبه بالسجن.

تذكرت كلماته عندما قال لى: «يوماً ما ستتوقف عن الجرى و ستجرى نحوه هو». لم أكن حتي أعرف من هو . ولكنى كنت أتخيل «من هو» وأنا جالس هناك علي جانب سريرى ، انظر من النافذة إلي الشارع المشحون بأصوات الشاحنات التى تصخب وتزأر فى الشارع ، من هو «هل يمكن أن يكون كالشمس التى تشرق من المحيط فى يوم صافى. أم ربما يشبه نجمة الصباح المتألقة فى قبة السماء ساعة الفجر. ربما من الممكن...من الممكن....يوما ما».

لكن كان الوقت أقرب كثيراً مما كنت قد تصورت.

ففى الأيام التالية لم أستطع الهروب من مواجهة هذا الرجل الذى كان يمثل الله أمامى. كان «إسرائيل» من أكثر الناس الذين صاروا يزعجونى بشأن هذا الإله ففى كل مرة كان لا يكف عن

الحديث عن الله، لقد صار دائماً يقول لى شيئاً عن الله. «اللعنة عليك يا «إسرائيل» فإن لم توقف الحديث عن هذا الإله سأقتلك.

لكن «إسرائيل» كان دائم الكلام معى عنه، كنت أشك بأنه كان يري «ويلكرسون» فى الخفاء. ولم أكن معجباً بما يحدث. فقد كنت أشعر بأن تفكك هذه العصابة يتعلق بأمر رجل واحد. والآن مع موت «مانى» لم يتبق لى غير «إسرائيل». ومن الواضح بأنه بدأ يسلك طريقاً مختلفاً عنى. فكلامه المستمر عن «ويلكرسون» ورغبته الدائمة فى إجبارى علي الكلام عنه، كان دائما يقودنى إلي اليأس.

كن أستطيع احتمال المزيد. ففى ليلة الرابع من يوليو، كان من المقرر لنا أن تجتمع كل العصابات فى جزيرة كونى، لكن فى اليوم السابق، «إسرائيل» كان قد أمضي الليل كله معى يحاول إقناعى بالابتعاد عن جزيرة كونى، وأن أذهب للحديث مع «ويلكرسون» بدلاً من ذلك. وضعت يدى علي أذنى محاولاً الهروب من سماع كلامه.

بعد ذلك ذهب ليخلد إلي النوم، فمكثت فى سريرى انظر إلي السقف المظلم. كان الخوف قد امتلكنى تماماً. كنت أريد السيطرة علي مشاعرى وإسكات «إسرائيل» إلي الأبد. فأنا لم أعد أحتمل المزيد عن «ويلكرسون» هذا.

دخلت تحت السرير ومددت يدى لأجذب المقبض الخشبى لآلة تكسير الثلج فقد كنت أضعها دائماً هناك. وكان صوت «إسرائيل» النائم وهو يتنفس بعمق علي السرير بجانبى يزعجنى فقد كنت أتذكر كلامه عن الله وهذا كان يزيد من غضبى.

لم أعد احتمل أكثر فقلت صارخاً فيه: «سألقنك درساً عن كيفية إغاظتى» ثم جذبت آلة تكسير الثلج من تحت السرير لأغمدها فى ظهره.

أيقظه صراخى ، فقفز من السرير فى الوقت الذى غرزت الآلة فدخلت بعمق فى المرتبة أسفل ظهره. حاولت جذبها للخارج فلم أستطع فهززتها بشدة مرة ثانية وأنا أصيح قائلاً: «قلت لك أن تتوقف عن الكلام عن الله هذا . لماذا لم تصمت؟ لماذا؟ لماذا؟ »

حينئذ جذبنى «إسرائيل» ، فأخذنا نتعارك ووقعنا من علي السرير إلي الأرض، لقد كنت أضربه بضراوة.

فدفعنى إلي الخلف وقفز على وهو يطبق بجسمه علي صدرى ممسكاً بيدى محاولاً إنزالها من علي رأسى إلي الأرض.

داومت علي الصراخ : «لماذا لا تتوقف عن الكلام؟»

لكن «إسرائيل» بدأ يصيح فىّ قائلاً: «ماذا أصابك يا رجل؟» كان يحاول التهدئة من روعى «أأنت مجنون. إنه أنا. صديقك. ما الذى أصابك؟»

فجأة أدركت بأنه يبكى وهو يمسك بى ليهدئنى . كانت الدموع تنهمر من عينيه وهو يقول: ««نيكى»، «نيكى»، توقف، أنا صديقك، لا تجعلنى أؤذيك. من فضلك توقف، أنا صديقك. أحبك».

لقد قالها، لقد استطاع أن يلمس جراحى واحتياجى وكأنه يلقى بماءٍ مثلجٍ علي وجهى. لقد قالها بنفس طريقة «ويلكرسون». تركت قبضتى من علي معول الثلج فجذبه من يدى. لم أره يبكى هكذا من قبل، لماذا كان يبكى؟

أمسك معول الثلج ووجهه نحو وجهى. كان يمسك بها بقوة بين يديه حتي أنى استطعت أن أري بياض مفصل أصابعه فى الضوء الخافت. وللحظة ظننت بأنه سيضربنى به علي رأسى لكنه ألقي به بقوة وسط الغرفة. وكان لا يزال يبكى عندما تركنى و ألقي بنفسه علي السرير.

استدرت نحوه ونظرت إليه ، بعدها شعرت بالإحباط و التعب. ما الذى أصابنى؟ كدت أقتل صديقى.

ركضت خارجاً من الغرفة صعدت السلم إلي قمة المبني. كان الظلام حالكاً بالخارج. مضيت عبر السطح إلي حيث اعتاد «جنزالو» وضع قفص الحمام الخاص به. فتحت باب القفص وأخذت حمامة منه. كان باقى الحمام يرفرف بعنف وهياج شديدين، ثم خرج كله إلي خارج القفص وطار فى الظلام الدامس.

أمسكت الحمامة بإحكام ثم قربتها من صدرى بعدها مضيت إلي جانب مكيف الهواء وجلست.

هذه الطيور، كم أكرههم، إنهم أحرار.آه .. يا الهى إنى أكره كل من هو حر. «ويلكرسون» كان حراً. و «إسرائيل» بات يقترب من الحرية. بدأت أحس الآن بما يجرى. هذا الطائر حر، لكن أنا كنت محبوساً فى قفص الكراهية والخوف.

شعرت بأصابعى وهى تحكم قبضتها حول رأس الطائر جاذبة إياه بعيداً عن جسمه. «أنا لست خائفاً». قلت لنفسى.

كان الطائر يصدر أنيناً يرثي له وكنت أشعر بجسمه الصغير يرتجف وعظام جسده تفترق عن الرأس. «هل رأيت يا ماما أنا لست خائفاً».

فقدت السيطرة علي نفسى . فلويت رأس الطائر للأمام و للخلف حتي شعرت بجسده ينسلت من عظامه محدثاً صوت طرقعة قوية، إلي أن انخلع رأسه من جسمه. فتدفقت الدماء الدافئة عبر يدى إلي ركبتى ثم إلي أرضية السطح. أمسكت برأس الطائر الملطخ بالدماء بين يدى وأنا أنظر له و أصرخ: «الآن أنت لست حراً .لا يوجد أحدٌ حر».

ثم ألقيت بالرأس من علي السطح وقذفت بالجسد المرتجف علي الأرض بعنف. أخيراً مات هذا الطائر اللعين، وهو لن يؤرق منامى بعد الآن.

بقيت علي السطح نصف مستيقظ ونصف نائم. فى كل مرة كنت أنام فيها كان يراودنى كابوساً مفزعاً أكثر من ذى قبل. عند الفجر عدت إلي غرفتى. كان «إسرائيل» قد مضي.

أضعت كل ما تبقي من اليوم التالى باحثاً عنه.. أخيراً وجدته جالساً فى قبو الحفلات الخاص بالعصابة وحيداً. فالكل كان قد ذهب إلي جزيرة كونى.

قلت له، «أنا آسف يا رجل، علي ما حدث ليلة أمس».

رد علىّ «إسرائيل» بابتسامة خافتة : «انس ما حدث».

«لا يا حبيبى أنا آسف. فأنا لم أكن فى وعى. كان بى شىء غير طبيعى».

قام إسرائيل و لكمنى فى فكى مازحاً . «بالطبع يا صغيرى فأنت مثلى تماماً, مجنوناً».

قضيت بقية الأمسية معه. كانت هذه هى المرة الأولي التى يفتنى فيها اجتماع الرابع من يوليو المقام فى جزيرة كونى منذ ثلاث سنوات.

جاء إلى «إسرائيل» أثناء النصف الآخر من شهر يوليو١٩٥٨ يخبرنى بأن «ويلكرسون» سوف يقيم اجتماعاً كبيراً فى «سانت نيكولاس ارينا». فى الحقيقة كان «ويلكرسون» قد تكلم مع «إسرائيل» لدعوة عصابة «المومس» إلي الاجتماع. فهناك أتوبيساً خاصاً يمكن أن يقلهم من

شارع ٦٧ و ستكون لديهم كراسى محجوزة بأسمائهم أمام مبني الاجتماعات.

أضاف «إسرائيل» بأنّ «لويكرسون» سوف يتأكد من حضور جميع أفراد عصابة «المومس» للاجتماع. هززت رأسى ووقفت لأصعد السلم عائداً إلي الداخل ثانية. فأنا لم أكن أريد شيئاً من هذا الأمر برمته. فقد بدأت أمواج الخوف تجتاحنى ثانية حتي كادت تخنقنى إلي درجة أننى لم أستطع معها الكلام.

نادانى «إسرائيل» وأنا أهم بالرحيل «هيه يا رجل.. أنت لست جبانا أليس كذلك؟»

لقد ضربنى بسؤاله هذا فى أعز ما كنت أملكه، فى مكان الأمان الوحيد لدى. فرددت عليه قائلا: « «نيكى» لا يخاف أحداً... لا يخاف هذا المبشر النحيل.. و لا أنت.. ولا حتي الله».

وقف «إسرائيل» هناك والابتسامة الصغيرة تلون وجهه الجذاب. «يبدو لى بأنك خائف من شيء ما. وإلا فلما لا تريد الذهاب؟»

حينئذ تذكرت أفراد عصابتى «الباكبورد» و«الستيجكوتش» وهم ساجدين هناك علي الرصيف أمام المدرسة. علمت بأنه مادام قد حدث لهم هذا.... فكل ما على فعله هو أن أجرى و استمر فى الجرى. ولكن كيف لى أن أجرى الآن، فى ظل تحدى «إسرائيل» لى إذ من الممكن تماماً أن يظهر خوفى . لقد كنت بالحق خائفاً.

سألته: «فى أية ساعة سيتوقف فيها هذا الأتوبيس هنا؟»

أجابنى «إسرائى»: «فى الساعة السابعة بعد الظهر. وسيبدأ الاجتماع فى الساعة السابعة والنصف. فهل ستأتى؟»

«نعم يا رجل. هل تعتقد بأنى جباناً ؟ هيا لنذهب مع كل العصابة إلي هناك ولنري ما الذى يمكن أن يحدث».

هز «إسرائيل» رأسه ومضي فى طريقه. واستدرت أنا صاعداً السلم إلي غرفتى فى الطابق الثالث، وفجأة شعرت بالغثيان.

أغلقت الباب ورائى، وارتميت علي السرير. حاولت البحث عن أية مخدرات فقد ظننت بأنها قد تفيدنى فى مثل هذه الظروف، ولكن لم يكن لدى، لذلك دخنت سيجارة عادية فقط.

تدفقت الأفكار عبر ذهنى مثل شلالات المياه وهى تغمر الأرض. كنت خائفاً. كانت السيجارة ترتجف بين أصابعى وكان رمادها يتساقط علي الملاءة المتسخة فوق السرير. كنت خائفاً من الركوب فى هذا الأتوبيس. كنت أكره ترك منطقة نفوذى. كانت فكرة السفر والبعد عن مملكتى الصغيرة التى أعتدت عليها يرعبنى. كنت أخاف جداً من أن أكون وسط جمع كبير وأصبح كلا شىء فى الوسط. كنت أعلم بأنه بمجرد دخولى إلي هذه المنطقة كان على فعل أى شىء كى أجذب الانتباه .

ولكن كان أكثر أمر أخافه وأهابه، هو أن يحدث لى ما كان قد حدث للآخرين علي الرصيف فى الشارع أمام المدرسة فى ذلك اليوم. كنت أخشي أن أقابل قوة أكبر منى تدفعنى إلي الركوع علي ركبتى أمام كل هذا الشعب وأنا أبكى. كنت فزعاً جداً من فكرة البكاء. كان البكاء فى ذهنى علامة علي الضعف والفشل والهشاشة والطفولة. فأنا لم أبكى مذ كنت فى الثامنة من عمرى. لكن هناك من جعل «إسرائيل» يبكى. لا لست أنا ، ولن أكون أبداً.

لكن إن لم أذهب فمن الممكن أن أعتبر جباناً من قبل «إسرائيل» وباقى أفراد العصابة .

لم يكن لدى خيار آخر . كان الجو حاراً فى ليل يوليو عندما صعدنا للركوب فى الأتوبيس.

شاهدت هناك رجلين مرتديين حلتين أنيقتين كانا يحاولان الحفاظ علي النظام ، مع أنهما كان من الممكن لهما المكوث فى المنزل. إذ أن الضوضاء كانت شديدةً فى الأتوبيس ومحاولة الحفاظ علي النظام أمر لم يكن ذا فائدة.

شعرت بالراحة وأنا مع أعضاء عصابتى. فقد كانت الوحدة تقتلنى وأنا قابع لوحدى فى غرفتى. فى الأتوبيس كان الأمر مختلفاً. وقد حاول الرجلين إبقاء النظام، لكنهما يأسا بعد ذلك ونسيا الموضوع. كانت العصابة تتشابك مع بعضها البعض ، فهم يصيحون ويفتحون النوافذ ويدخنون السجائر ويشربون الخمر و يشدون حبل البوق ويصيحون فى السائق كى يمضى ويسير أسفل الجسر.

عندما وصلنا إلي مكان الاجتماع خرج البعض من باب الطوارئ والبعض الآخر قفز من النوافذ. كانت هناك فتيات كثيرات يقفن أمام المكان مرتديات سراويل ضيقة و قمصاناً قصيرة. إضافة إلي بعض الجمل التى كانت تدوى فى الليل مثل: «آه أنت يا صغيرى ما رأيك فى قطعة؟ وتعال معى يا جبان فنحن ذاهبون لحضور حفلة حقيقية». كذلك التحقت بنا بعض الفتيات ونحن

داخلون إلي المكان.

أنا و«إسرائيل» قدنا الأعضاء إلي الداخل. حاول واحد من الخدام أن يوقفنا عند الباب الداخلى. فى الداخل كنا نري الناس وهم يستديرون وينظرون إلينا ونحن نحاول الدخول إلي القاعة.

«إسرائيل» هه ..أنت يا رجل أدخلنا. نحن الشعب. نحن «المومومس» . القس نفسه هو الذى دعانا. ولنا أماكن محجوزة.

وفى إحدي الأماكن الأمامية السفلية رآنا واحد من أعضاء عصابة «الشابلنز» فوقف وصاح «أنت.. «نيكى». تعال إلي هنا. توجد أماكن محجوزة لكم». فما أن سمعناه حتي قمنا بدفع المرشد الذى لا حول له ولا قوة جانباً ودخلنا إلي أماكننا.

كنا مرتديين زى «المومومس». ولم يرفع أحد منا قبعته السوداء. نزلنا عبر الممر الضيق ونحن نصيح و نصفر للجمع و نرمى علب البيرة إلي الأرض.

وأنا أنظر إلي الجمع كان بإمكانى ملاحظة وجود أعضاء عصابات «الريفل» . و «البيشوب» و«الجيجى»، كذلك أفراد عصابة «الرؤساء الأشباح» التى من منطقة «بيدفورد أفينو».

كان المكان مكتظاً بالناس ، وعدد الموجودين كافياً لصنع معركة حقيقية. قد لا يبدوهذا الأمر سيئاً نوعا ما.

بدأت الضوضاء تقل. جلسنا فى مقاعدنا وبدأنا نحن نصفر ونصيح ونخبط علب البيرة إلي الأرض أيضاً.

علي الجانب الآخر، كانت هناك فتاة قد بدأت تلعب البيانو. فوقف صبى من «برتوريكان» من مقعده فى الوسط واضعاً يده علي صدره ورافعاً رأسه قائلا: «آه يا يسوع خلص نفسى هذه التى يملأها الشر». ثم وقع علي كرسيه وسط ضحكات و صيحات باقى أفراد العصابات.

ثم خرج بعض الأولاد و الفتيات إلي جانب البيانو وبدءوا يرقصون علي النغمات، وكانت صيحات التشجيع و التهليل ترحب بأدائهم. وهكذا بدأت الأمور تخرج عن السيطرة.

لكن فجأة وقفت فتاة علي المنبر فى الوسط أمام الميكروفون ويداها متشابكة أمامها منتظرة أن يسود الهدوء مرة ثانية فى القاعة. لكن علت أصوات الصيحات أكثر من ذى قبل. و بدءوا

يقذفونها بكلام ساخر قائلين: «هيا يا حلوة ارقصى لنا بعض الشىء. ما رأيك فى ميعاد يا حبيبتى؟» ثم وقف ولد لم أكن قد رأيته من قبل، ممسكاً بيديه أمامه ومغمضاً عيناه، مد يداه أمامه قائلا: «مييبى» ثم انخرط الجمع فى التصفيق والتصفير.

بدأت الفتاة ترنم. كان من الصعب جداً سماعها بالرغم من أننا كنا جالسين فى الصف الثالث. وما أن بدأت فى الترنيم حتي وقف العديد من الأولاد والبنات يهتزون و يرقصون علي النغمات.

كانت البنات مرتديات السراويل والقمصان القصيرة والأولاد يرتدون البدل السوداء الخاصة بزى «المومومس» والأحذية المدببة و القبعات المزينة بنجوم فضية من الأمام.

أنهت الفتاة ترنيمتها ثم توجهت إلي الداخل والغضب بادياً علي وجهها. فبدأنا نصرخ و نشجع طالبين أغنية ثانية. لكنها تركت المسرح ودخلت، فخرج المبشر النحيل ليأخذ مكانها.

لم أكن قد قابلته منذ ذلك الصباح الباكر قبل عدة أسابيع . فبدء قلبى يخفق والخوف يغطينى. وكأن سحابة سوداء قد جاءت وغطت كل نفسى. أما «إسرائيل» فقد ركع بركبتيه علي الكرسى رافعاً نفسه وهو يقول ويشير إلى: «يا دافيد ها أنا ذا. انظر لقد جئت كما قلت لك. وانظر من هنا أيضاً».

كنت أعلم بأنه على أن أفعل شيئاً و إلا سأنفجر من الخوف. فوقفت علي قدمى صائحاً: «هه أنت يا مبشر انظر ماذا سأفعل ... هل ستغيرنا أم لا؟»

رجعت وجلست علي كرسى وانضم إلى «المومومس» فى الضحك فشعرت بتحسن. كانوا لا يزالون مدركين بأنى قائدهم علي الرغم مما كنت أشعر به من رعب. حتي وإن كنت قد أعطيت الرئاسة «لإسرائيل» فى بعض الأوقات إلا أننى كنت لا أزال قائدهم وكانوا لا يزالوا يضحكون علي نكاتى. فعادت إلى سيطرتى علي الموقف.

بدأ «ويلكرسون» حديثه قائلاً : «هذه هى آخر ليلة لنا فى النهضات المقامة للشباب فى هذه المدينة. لذلك سنفعل فيها شيئاً مختلفاً. ولسوف اسأل أصدقائى من «المومومس» بقبول عرضى».

وهنا صار الهرج يملئ المكان. كان كل أعضاء العصابات يعرفوننا جيداً. و بالنسبة «للمومومس» قبول أى عرض من هذا المبشر، كان كمن يطلب من «جاك الريبر» أن يصير جليساً للأطفال.

لذلك أخذ الجميع يضحك و يصيح.

فوقفت علي قدمى لثوانٍ منتظراً اللحظة المناسبة التى سأثبت فيها وجودى بطريقة ملفتة للنظر جداً. كانت هذه هى الفرصة، فلم أكن أعلم بأن المبشر سينادى علينا، ولكن إذا طلب منّا فعلاً عمل شيء ما فسنفعله.

أشرت لخمسة من أعضاء عصابتى بما فيهم «إسرائيل» قائلاً : «أنت وأنت و أنت.. هيا بنا». خرجنا نحن الستة إلي المسرح ووقفنا فى صف واحد. وهنا بدأ الهدوء يسود المكان وراءنا.

فانحني «ويلكرسون» وأعطي كل واحد منا علبة «آيس كريم» كبيرة وفارغة قائلاً لنا: «أريدكم أن تصطفوا الآن أمام ستارة المسرح. وعندما سيبدأ عزف الأورغن، سأسأل الناس أن يأتوا بعطاياهم، وأنتم ما أن تنتهوا من جمع هذه العطايا تعالوا إلي هنا بالتقدمات».

لقد كان هذا الأمر أكثر من رائع وفوق ما يمكن أن يتصوره المرء. فبالطبع لن يعترى أحد أى شك فيما يمكن أن نفعله الآن . فهذه فرصة نادرة لفعل ما نريد وكل من لا يقوم باستغلالها، فى الحقيقة لهو شخص أحمق.

كانت التقدمة كبيرة جداً . فامتلأت الأروقة بالناس الذين جاءوا إلي الأمام ليقدموا عطاياهم . العديد من كبار السن وضعوا أموالاً كثيرة ، آخرين وضعوا الشيكات المصرفية. ولذا، فإن كنا سنأخذ هذه التقدمة. فهذه علي ما أعتقد تقدمة كبيرة جداً.

بعض من أعضاء العصابات جاؤوا إلي الأمام يتراقصون و يتظاهرون بوضع المال فى العلب لكنهم فى الحقيقة كانوا يحاولون أخذ البعض منها. وعندما كان يحدث هذا كنت أضع يدى علي جيبى وكأنى سأخرج لهم المطواة و أقول: «انتظر لحظة يا صغيرى . لقد نسيت أن تضع شيئا هنا».

فكانوا يضحكون إلي أن أظهر لهم مدي جديتى. وكنت أقول: «يا رجل لقد قال المبشر أن تعطى، فهل ستضع بعض المال بالذوق أم آتى إليك برجالى ليأخذوه منك بالقوة». تقريباً كان قد تشارك الجميع فى هذا الأمر.

وما أن انتهي الجميع من القدوم إلي الأمام، أومأت إلي أفراد عصابتى برأسى ثم توجهنا جميعاً إلي الجانب الأيمن من المسرح . بين الستائر كانت هناك لافته معلقة علي الحائط ومكتوب

عليها بالخط الأحمر الكبير «خروج». كانت واضحة تماماً أمام أعيننا جميعاً. وعندما اختفينا خلف هذه الستارة بدأ الجمع يضحك. فى البدء كان صوت الضحك منخفضاً ، فقط بعض الضحكات هنا وهناك. ثم سمعنا هذه الضحكات تعلو و تعلو حتي أضحي الجميع منخرطين فى الضحك علي هذا المبشر المسكين الذى سخر منه «المومومس».

تجمعنا خلف الستارة. كان الأولاد ينظرون إلىّ منتظرين منى إشارة عما يجب أن يفعلوه الآن . فقد كانوا يتوقعون منى أن أغمز لهم بعينى إلي اللافتة التى كتب عليها خروج، والتى كانت تعنى بأن هذا المال قد صار لنا هيا لنأخذه ونهرب به من هنا.

لكن شيئاً ما كان فى داخلى يقودنى ويجذبنى إلي الجانب الآخر. فقد اختارنى المبشر من بين الجميع ، ووثق بى. لقد كنت محتاراً بين أن أفعل ما كان يتوقعه منى الجمع أو أن أفعل ما يتوقعه من وثق بى .

فقد كانت ثقة المبشر فىّ قد أشعلت شيئاً ما بداخلى. وبدلاً من أن أومأ برأسى نحو باب الخروج أومأت لهم قائلاً: «هيا ، هيا بنا لنأخذ هذا المال إلي المبشر النحيل».

لم يصدق الأولاد ما سمعوه منى، لكن كان عليهم فعل ما قد أمرتهم به. كان يسير أمامى ولدان ونحن نتجه إلي المسرح. واحد منهم وضع يده فى الكرتونة وأخذ عشرين دولاراً ووضعها فى جيب سترته.

فصحت فيه: «أنت يا صبى ماذا تظن نفسك بأنك فاعل؟ هيا أعد هذا المال إلي مكانه. فهذا ملك للقس».

التفت الأولاد إلىّ كانوا ينظرون باستغراب قائلين: «هه يا «نيكى». لا تأخذ الأمور بهذه الجدية. انظر إلي كل هذا المال. لن يعرف أحداً، هيا، فهناك الكثير من المال له و لنا جميعا».

وضعت يدى فى جيبى ثم أخرجت المطواة بسرعة. فتحتها و قلت له: «أنت يا رجل سيكون هذا هو قبرك أن لم تعد هذا المال ثانية».

لم تكن هناك مناقشات أخري بعد ذلك. فقد أعاد المال بانكسار إلي مكانه. وهنا قلت له: «انتظر أنا لم أفرغ من كلامى بعد . كم من المال لديك فى جيبك يا ذكى؟»

فقال لى: «أوه «نيكى» كفي. فهذا مالى. لقد أعطتنى إياه أمى لأشترى لها بعض الأغراض».

قلت له : «كم لديك من المال؟» وأنا أغز رقبته بطرف سكينى.

فخاف وأخرج من جيبه خمسة عشر دولاراً فقلت له: «ضعها فى الكرتونة»

فكاد أن يصيح لكنه قال لى: «أنت مجنون أم ماذا. فستقتلنى أمى إن أنا فقدت هذا المال»

قلت له: «حسناً سأقول لك شيئاً مهمّاً يا ذكى . سأقتلك أنا هنا والآن، إن لم تضع المال فى الكرتونة هيا».

نظر إلىّ ثانية لم يكن مصدقاً ما يحدث معه. لكن سكينى أقنعته بأنى كنت جاداً بما أقول . فأخرج الخمسة عشر دولاراً من جيبه وألقي بها فى الكرتونة. حينئذ أمرتهم قائلاً: «هيا لنذهب».

مشينا فى صف واحد علي المسرح. كانوا يعتقدون بأننا كنا نريد أن نسخر من المبشر.

وكانوا متأسفين لأننا لم نفتح الباب ونهرب للخارج كما كان جميعهم ينوى أن يفعل فيما لو كان فى مكاننا . ولكن شعورى بأنى قد فعلت الصواب كان أعطانى إحساساً دافئاً بالطمأنينة فأنا قد فعلت شيئاً ما يستحق الاحترام أخيراً. ولأول مرة فى حياتى فعلت شيئاً صائباً وذلك لأنى أردت فعل الصواب . فأحببت هذا الشعور.

قلت: «ها هو المال أيها القس. «كنت متوتراً بعض الشىء وأنا أقف هناك علي المسرح أمام كل هذا الجمع. ولكنى عندما سلمته المال سكت الجميع. فجاء «ويلكرسون» وأخذ العلبة منى ثم نظر فى عينى قائلاً : «شكراً لك يا «نيكى». كنت أعرف بأنه يمكننى الاعتماد عليك». عدنا بعدها إلي أماكننا. كان الهدوء يسود القاعة إلي درجة يمكنك معها سماع رنة الإبرة. ثم بدأ «ويلكرسون» يعظ.

تكلم لمدة خمسة عشر دقيقة. كان الجميع صامتين. لكنى لم أسمع ولا كلمة واحدة منهم. فقد عدت لأتذكر ذلك الشعور الجميل الدافئ الذى امتلكنى و أنا أسلمه المال. مع أنى فى ذات الوقت كنت أحاول التبرير لنفسى سبب عدم سرقتى له والهرب به.

كان هناك إحساساً قوياً بالحياة قد بدأ ينمو فى داخلى. شعور بأنى صالح وأصيل ومستقيم. شعور جميل لم أكن قد اختبره من قبل.

لكن قوطعت حبال أفكارى ببعض الضوضاء التى علت خلفى فجأة. إذ قد وصل

«ويلكرسون» إلي نقطة مهمة وصعبة فى عظته، ففيها بدأ يحثنا علي أن نحب بعضنا البعض.

كان يقول: علي «البرنوريكان» أن يحبوا الإيطاليين كذلك علي الإيطاليين أن يحبوا الزنوج وعلي الزنوج أن يحبوا البيض وأنه علي الجميع أن يحب بعضه البعض.

وقف «أوجى» خلفى قائلاً: «أنت أيها القس. مجنون أم ماذا؟ هل تريدنى أن أحب هؤلاء «الديجوس»؟ أأنت مجنون. انظر هنا». ثم رفع قميصه وأشار إلي علامة جرح عميق وغائر فى جنبه. قال: «منذ شهرين أطلق أحد هؤلاء «الديجوس» النار على. فهل تعتقد بأنى سأنسي هذا الأمر؟ سوف أقتل هذا القذر إن رأيته ثانية».

فقام ولد من القسم الإيطالى و قال: «حسناً. هل تري هذا؟» وأشار إلي علامة كبيرة من عند كتفه إلي صدره. «واحد من هؤلاء الزنوج قطعنى بموس. فهل أحبهم ... أ هذا ما تريد أليس كذلك؟».

لكن علي حين غرة وقف ولد ملون فى الخلف و صوته تعلوه البحة، صارخاً ومتحدياً وهو يقول: «حسنا يا «ديجوس» هل تريد أن تجرب هذا من جديد الآن؟».

امتلأت فجأة الغرفة من الكراهية. فوقف ولد من عصابة «الشابلنز» مطيحاً بكرسيه بعيداً محاولاً إفساح الطريق لنفسه من المكان الذى كان واقفاً فيه ومتجهاً إلي الجزء الذى يجلس فيه أعضاء عصابة «الرؤساء الأشباح». كنت أشعر بقرب معركة حقيقية.

وهكذا ركض إلي الأمام مصور من قسم الجرائد اليومية. وقف فى المقدمة واستدار يلتقط بعض الصور. وهنا تحدث «إسرائيل» سريعاً إلي ثلاثة من الأولاد فى الصف الأخير وقال: «أوقفوه». فقفزوا و تشابكوا مع المصور. حتي استطاع أحدهم خطف الكاميرا من يده ورميها علي الأرض. وعندما انحني المصور لأخذها عن الأرض ركلها صبى نحو الممر ومن ثم إلي الغرفة الأمامية. فحبا إليها المصور سائراً علي يده و ركبتيه. وما أن كاد يمسك بها حتي رفسها ولد آخر نحو الحائط. فوقف المصور علي رجليه و بدأ يجرى خلف الكاميرا و لكن قبل أن يصل إليها فى كل مرة كان يركلها ولد آخر بقوة من علي الأرض حتي ارتطمت أخيراً بالحائط لتنكسر ولتصبح بلا قيمة.

وقفنا متأهبين جميعنا. فقد كانت الغرفة مملوءة بالكراهية. وأنا كنت أبحث عن طريق عبر الأروقة الصغير حيث كانت مشاجرات جماعية هناك ستبدأ.

لكن كانت لدى رغبة شديدة لأنظر إلي «ويلكرسون». الذى كان واقفاً بهدوء علي المسرح. ورأسه منحية. ويداه متشابكة أمام صدره. إلي درجة ظهر معها بياض مفاصله فى أصابع يديه. و كنت أستطيع أن أري شفتاه تتحركان. كنت أعلم بأنه يصلى.

فجأة شعرت بنغزة فى قلبى. وقفت أنظر إلي نفسى وأسألها: كيف يمكن لهذا الرجل النحيل أن يقف هكذا علي المسرح غير خائف وسط كل هذه المخاطر. من أين أتي بكل هذه القوة؟ لماذا لم يكن خائفاً مثلنا جميعاً؟ شعرت بالخجل من نفسى وبالإحساس بالذنب.

إذ كل ما كنت قد اكتشفته أو عرفته عن الله كان من خلال رؤيتى لهذا الرجل. وهنا فكرت فى أول مرة تقابلت فيها مع الله، يومها كنت صغيراً جداً حيث كان أبواى يأخذانى معهما إلي الكنيسة الممتلئة بالناس. كنت أري القس يعظ والناس يتجاوبون معه. لكن كانت تلك الأيام من أصعب الساعات فى حياتى. لذلك لم يكن يروقنى وقتها أى شيء من كل ما كان يحدث أمامى . ولهذا لم أذهب إلي هناك ثانية.

هدأت وجلست فى كرسىّ مع أن الضوضاء كانت مستمرة من حولى. أما «إسرائيل» فقد كان واقفاً ينظر خلفاً و أماماً ويصيح قائلاً: «كفي.. كفي.. أوقفوا هذه المشاجرات. دعونا نسمع المبشر لنعرف ما الذى كان يريد قوله لنا».

جلس «المومومس». وأكمل «إسرائيل» صراخه فى الناس: «ليسكت الجميع».

توقفت الضوضاء فجأة ، كسحابة عبرت المحيط وهكذا عاد الصمت إلي القاعة من جديد ثم إلي القاعات العليا. وساد الهدوء المكان مرة ثانية.

كان هناك شيئاً ما يحدث فى داخلى. بدأت أتذكر و أتذكر.... طفولتى أولاً.. ثم الكراهية التى شعرت بها من نحو أمى. و تذكرت أول أيامى وأنا فى نيويورك حيث كنت مثل حيوان متوحش قد أطلق من حبسه. وهكذا ، وكمن كان جالساً فى السينما ، كانت لقطات من حياتى تُعرض أمام عينى للمرة ثانية. رأيت الفتيات... الشهوة... الجنس.. رأيت الطعنات ... الجروح.. الكراهية.

لقد كان ما كنت أشعر به أكثر مما أحتمل. فى الحقيقة لم أكن أعى ما الذى يحدث من حولى. كل ما كنت أستطيع عمله هو أن التذكر، والتذكر و التذكر. وكلما كنت أتذكر كلما كان يزداد شعورى بالخزى والذنب. كنت خائفاً أن أفتح عينى لئلا ينظر أحد إلى و يري ما

بداخلى و ما كنت أراه. كان الأمر كله خارجاً عن سيطرتى.

عاد «ويلكرسون» ليتكلم ثانية. وفى هذه المرة بدأ يتكلم عن التوبة و الخطية. وأنا كنت تحت تأثير قوى ، تأثير قوة أكبر بكثير من قوة أية مخدرات. لم أكن قادراً علي التحكم فى حركاتى و ردود فعلى و كلماتى. كنت كمن قفز فى نهر متدفق وجارف. بلا قوة كى أقاوم. لا علم لى ولا معرفة لما يحدث فىّ. كل ما كنت أستطيع وعيه ومعرفته هو أن الخوف الذى كان يلازمنى، قد تركنى.

سمعت «إسرائيل» بجانبى ينف فى منديله بقوة. وأناس خلفى تبكى. كان هناك شيئاً غريباً يملئ المكان كالرياح وهى تهب علي الأشجار. حتي الستائر التى كانت قابعة علي جانبى المسرح بدأت تتحرك وتهتز كأن نفخة هواء غامضة أتت عليها وحركتها.

تكلم «ويلكرسون» ثانية قائلاً : «إنه هنا، هنا، فى هذه الغرفة، لقد جاء من أجلك. فإن كنت تريد لحياتك أن تتغير فقد حان الوقت لذلك الآن» . ثم صاح بسلطان «ليقف .. كل من يريد أن يقبل يسوع المسيح مخلصاً ، ويريد أن تتغير حياته .. ليقف وليأتى إلي الأمام ... تعال إلي للأمام».

شعرت «بإسرائيل» وهو يقف قائلاً: «يا أصدقائى أنا سأصعد. من سيأتى معى؟»

فوقفت علي قدمى. التفت و نظرت إلي العصابة وأشرت إليهم بيدى. «هيا لنذهب» كان هناك تحرك تلقائى من علي كل الكراسى إلي الأمام. كان أكثر من خمسة وعشرين من «المومومس» قد تجاوبوا مع الكلمة. و خلفى أكثر من ثلاثين ولداً من عصابات مختلفة تبعونا كمثال.

وقفنا تحت المسرح ناظرين إلي فوق إلي «ويلكرسون». الذى أوقف الخدمة وطاب إلينا أن نتبعه إلي الغرفة الخلفية للمشورة.

كان «إسرائيل» واقفاً أمامى ورأسه بين يديه يجفف دموعه بمنديل. سرنا معاً عبر الباب إلي الممر الذى يقود إلي غرفة ارتداء الملابس. حيث كان الكثير من أعضاء العصابات واقفين فى الممر يسخرون منى قائلين: «هه أنت يا «نيكى» ما الذى حدث لك ؟ هل ستصبح متديناً أم ماذا؟» نظرت إليهم ، فإذ بفتاة تتقدم نحونا و ترفع قميصها للأعلي لتظهر صدرها لى لأراه، وهى تقول: «حسناً إذا ذهبت إلي هناك يا حبيبى، فلسوف تفقد هذا

المنظر إلي الأبد».

أدركت حينئذ لماذا كانوا غاضبين منى ، لقد كانوا رافضين أن نحب الله. لأننا بمحبتنا له سنجعله شريكاً لهم . وهم يريدون منا أن نحبهم هم فقط لوحدهم يريدون أن يكون الحب بالكامل لهم، وأن لا يشاركهم أى شخص هذا الحب.

الحب الأنانى كان هذا، وهو كل ما كانوا يعرفونه عن الحب. هذا أيضاً كل ما عرفته أنا عن الحب. ولكن لم يعد يهمنى الآن شيئاً. فدفعتها جانباً عنى وبصقت علي الأرض قائلاً: «أنتم تشعروننى بالغثيان فى هذه اللحظة بالذات لم أعد أهتم بشىء إلا بأن أتبع المسيح مهما كلفنى الأمر».

بدأ واحد من الخدام المساعدين لـ «ويلكرسون» يحدثنا عن الحياة المسيحية. ثم أتي ويلكرسون بعد ذلك و قال: «حسناً يا أصدقائى، اركعوا هنا علي الأرض».

اعتقدت وقتها بأنه مجنون. فأنا لم أركع فى حياتى أمام أحد من قبل. لكن كانت هناك قوة خفية غير عادية هى التى دفعنى للركوع. شعرت بركبتى وهما ترتجفان. إذ لم أستطع الوقوف باستقامة عليهما. وكأن هناك يد عملاقة وقوية تضغط على للأسفل حتي ركعت أخيراً علي الأرض.

لقد أعادنى للواقع تلامس ركبتى بالأرض الصلبة. كنا وقتها فى فصل الصيف. وكان هذا هو الوقت الخاص بالمشاجرات. فتحت عينى و فكرت فى نفسى قائلاً : «ما هذا الذى تفعله؟» كان «إسرائيل» بجانبى يبكى بصوت عالى. وفى وسط كل هذا التوتر ضحكت بسخرية قائلاً «لإسرائيل» : «يا إسرائيل» «أنت تزعجنى بهذا البكاء» فنظر إلى بابتسامة مملوءة بالدموع. ولكن عندما نظرنا إلي بعضنا البعض شعرنا بإحساس غريب. شعرت بعينى وهى تمتلئان بالدموع ثم بالدموع وهى تتساقط علي وجهى. كنت أبكى. هذه كانت أول مرة أبكى فيها فى حياتى منذ سنوات طوال حيث كنت قد بكيت يومها بحرقة شديدة وأنا تحت المنزل فى «برتوريكان». ولكنى الآن أبكى ...كنت أبكى.

أنا و «إسرائيل» كنا علي ركبنا جنباً إلي جنب نبكي و نضحك فى نفس الوقت. كان هذا الشعور شعوراً غريباً علينا. دموع و ضحك. كنت سعيداً وأنا أبكى. فهناك شىء ما يحدث فى داخلى وفى حياتى خارجاً عن إرادتى.. كنت فرحاً به.

فجأة شعرت بيد «ويلكرسون» فوق رأسى. كان يصلى و يصلى من أجلى. وكانت الدموع تغمرنى أكثر فأكثر كلما أحنيت رأسى إلي أسفل ، وبدأ يظهر فى داخلى شعور بالخجل والتوبة وفرحة غامرة بالخلاص ، كانت كل هذه المشاعر مرتبطة ومختلطة معاً داخل نفسى.

قال لى «ويلكرسون» استمر يا «نيكى»، استمر وأبكى. أسكب نفسك لله. اصرخ له.

فتحت فمى ونطقت ، لكن الكلمات التى خرجت منى لم تكن كلماتى، قلت: «آه يا رب إذا كنت تحبنى فتعال إلي حياتى. فأنا قد تعبت من الهروب والجرى. أدخل إلي حياتى وغيرنى. .. غيرنى من فضلك». لقد كان هذا هو كل ما قلته فقط. لكنى شعرت مع هذه الكلمات بأنى مرفوع إلي السماء.

المخدرات .. الجنس.. الدم.. كل هذه الأمور معاً لا تضاهى لحظة أو إحساساً واحداً مما كنت أشعر به الآن. كنت بالفعل قد عُمدت بالحب.

بعد أن انتهت أزمة مشاعرى الجياشة ، بدأ «ويلكرسون» يقرأ من الكتاب المقدس هذه الآية «إذا إن كان أحد فى المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديدا» (٢كو ٥: ١٧).

كانت لهذه الكلمات معني قوى، ولأول مرة فى حياتى. لقد أصبحت إنسانا جديداً. كنت «نيكى» و لكنى لم أعد «نيكى» القديم. فطريقة حياتى السالفة كانت قد اختفت. كنت كمن مات عن حياته الماضية ، ومع ذلك كنت حياً لكن فى طريق وحياة جديدة.

فرح.. بهجة... حرية.. راحة... إطلاق... إطلاق قوى وتحرير.

أخيراً ، توقفت عن الجرى و اللهاث والهرب.

فكل مخاوفى اختفت. كل قلقى اختفي. كل كراهيتى ذهبت . صرت فى محبة المسيح. مع يسوع المسيح و مع من حولى. والآن قد أحببت كل شيء حتي نفسى. و تحولت الكراهية التى كانت لنفسى إلى حب لها. و فجأة أدركت السبب الذى كان يدفعنى إلي تلك الطريقة الفظة التى كنت أعامل بها ذاتى وهو لأنى لم أحب نفسى أبداً كما كان الله يحبها و يراها.

أنا و «إسرائيل» احتضنا بعضنا البعض، وكانت الدموع تنهمر من أعيننا حتي بللت

قميصانا. شعرت بأنى أحبه. فقد كان كأخى.

مضي «ويلكرسون» إلي غرفته ثانية. فشعرت بأنى أحبه هو أيضاً. هذا المبشر النحيل الذى بصقت عليه منذ عدة أسابيع ... لقد صرت أحبه.

عاد و قال لنا: « «نيكى» و«إسرائيل» أريد أن أعطيكما الكتاب المقدس. وعندى كتب أخري سأعطيها إلي عصابة «المومومس» أيضاً. فتعالوا معى وسأعطيها لكم».

تبعناه إلي الغرفة الأخري. وهناك فى كراتين علي الأرض كانت توجد كتب كثيرة. انحني و أخذ كتباً بحجم الجيب للعهد الجديد ووزعها علينا.

فسألته: «أنت .. يا دافيد. ماذا عن هذه الكتب الكبيرة؟ هل لنا أن نأخذها؟ نريد أن يعرف الجميع بأننا مؤمنين الآن».

وقف «ويلكرسون» وهو مندهش منى و يقول: «الكتب الكبيرة!» .. فى الحقيقة لم أكن أعرف بأن الكتب الكبيرة هى نفس النسخ من الكتاب المقدس الصغير الذى كان بين أيدينا. وحجمها فقط هو الأكبر. إلا أن الأولاد كانوا راغبين فى أخذ الكتب التى فى هذا الحجم ، وهو كان يريد أن يعطينا إياها من كل قلبه.

قال «إسرائيل»: «إيه.. يا رجل ، ماذا عن هذا الشيء؟ كتاب يزن أكثر من ثلاثة كيلو!» كنت أشعر أنا أيضاً بوزنه، لكن وزنه لم يكن يعادل أبداً ما كان قد نزعه الله عنى فى هذا اليوم وعن قلبى من ثقل، حيث نزعت الخطية وغمر الحب قلبى.

وفى وقت متأخر من الليل صعدت السلم إلي غرفتى كشخص جديد. كان الوقت قد اجتاز الحادية عشر ليلاً ومع أنه كان لا يزال مبكراً جداً لى للعودة إلي المنزل. لكنى كنت متحمساً لأعود إلي غرفتى. إذ لم يعد الآن لدى أى سبب للهرب. فالشوارع فقدت جاذبيتها بالنسبة لى. لم يعد يهمنى بأن يعرف أحداً بأنى رئيساً أو قائد عصابة. اختفي أيضاً أى خوف لدى من الليل.

ذهبت إلي خزانتى، أخذت سترة «المومومس» والحذاء الخاص بها ووضعتهما فى كيس. وقلت لنفسى: «لا مزيد من مثل هذه الأمور بعد اليوم، فأنا لم أعد فى حاجة إليها.» صعدت بيدى إلي الرف الأعلي وجذبت المسدس أيضاً. وبحكم عادتى بدأت أحشو مسدسى بالطلقات،

حتي أستطيع الخلود للنوم بعد ذلك وضعت مسدسى فى مكانه الليلى. لكنى فجأة تذكرت يسوع وحبه لى. فهو الذى سيحافظ على. لذا أخرجت طلقات المسدس وأرجعتها ثانية إلي الصندوق فى الرف العلوى. و قلت لنفسى سوف أذهب فى الصباح الباكر إلي الشرطة.

مررت بجانب المرآة ولم أصدق ما رأيت. كان هناك شعاع من نور يخرج من وجهى لم أكن قد رأيته. ابتسمت و قلت لنفسى: «هه... «نيكى» انظر لنفسك فأنت جذاب جداً. ومن السيئ الآن أن تقطع علاقاتك مع الفتيات، خاصة وأنك تتمتع بمثل هذه الجاذبية». ثم انخرطت فى الضحك ساخراً من كل هذه الأفكار. لقد كنت فرحاً وسعيداً. فقد نزع الخوف من قلبى و زال ثقله عنى . والآن أستطيع أن أضحك من جديد .

ركعت بجانب سريرى ، رفعت رأسى و صليت: «يا يسوع ». لم تخرج منى أية كلمة أخري .عدت لأقول: «يا يسوع.». أخيراً خرجت من فمى الكلمات: «شكراً لك ... شكراً... لك يا يسوع».

فى هذه الليلة ولأول مرة فى حياتى كنت أضع رأسى علي وسادتى لأنام فى سلام. فلا يوجد ما يمكن أن يؤرقنى. ولم أعد خائفاً من أى صوت خارجى. فلقد اختفت الكوابيس.

الفصل الحادي عشر
بعيداً عن البرية

فى صباح اليوم التالى خرجت إلي الشارع ، مررت علي كل من كان معى فى اجتماع الليلة الماضية. طلبت منهم أن يُحضروا جميع أسلحتهم وأن يقابلوننى عند حديقة واشنطن لأننا بعد ذلك سوف نتجه إلي مركز الشرطة.

عدت إلي غرفتى، وضعت مسدسى فى جيبى ثم حملت كتابى المقدس تحت إبطى وتوجهت نحو حديقة واشنطن لمقابلة الآخرين.

وأنا أسير فى شارع «فت جرين» نحو الحديقة، رأيت امرأة إيطالية كنت أقابلها كثيراً فى الطريق ، لكنها فى كل مرة كانت ترانى كانت تتهرب منى. فى هذه المرة كنت أحمل كتابى المقدس وقد كتب عليه اسمه بالحروف الذهبية الكبيرة فاقتربت منها.

وجدتها تحدق فى الكتاب المقدس و تقول: «من أين سرقت هذا الكتاب؟»

ابتسمت و أنا أجيبها: «أنا لم أسرقه، لكن قد أعطانى إياه مبشر مسيحى».

تعجبت جداً وسألت محذرة: «ألا تعلم بأنه لا يجب عليك أن تكذب بشأن هذه الأمور المقدسة؟ فالله سوف يعاقبك علي هذا».

فقلت لها: «أنا لست كاذباً، والله لن يعاقبنى، لأنه قد غفر لى كل خطاياى. وأنا سوف أتوجه الآن نحو مركز الشرطة لأسلمهم سلاحى». ثم رفعت القميص حتي تستطيع أن تري المسدس الموضوع فى حزام سروالى.

ظلت عيناها تنظران تارة إلي المسدس وطوراً إلي الكتاب المقدس فى تعجب شديد. ثم

صاحت : «هليلويا» كانت تصرخ فى وجهى من شدة الفرح. ثم رفعت يديها عالياً وهى تقول فرحة وبصوت عال للمرة الثانية: «هليلويا».

ابتسمت لها ، ثم توجهت بعد ذلك إلي حديقة واشنطن. تجمع حولى خمسة و عشرون عضواً من عصابة «المومس». كان «إسرائيل» قد نظمهم ثم توجهنا نحو مركز الشرطة فى شارع «سانت إدوارد» علي زاوية شارع «أيبرن».

لم نتوقف كى نتخيل كم كانت ستكون دهشة الشرطة مما كنا مقدمين عليه. إذ أن حوالى أكثر من خمسة وعشرين شخصاً من أقوي و أشد وأشرس أعضاء العصابة متوجهين نحو المركز حاملين معهم ترسانة من الذخائر والأسلحة.

لقد شكرت الله بعدها كثيراً، لأنهم لم يلاحظوا قدومنا إلا ونحن أمام باب المركز. و إلا لكانوا اعتقدوا بأننا متوجهين لشأن هجوم عليهم أو ما شابه ذلك. وربما كانوا سيمنعوننا. من المؤكد بأنهم كانوا سيغلقون الأبواب و سيبدأون فى إطلاق النار علينا ونحن ما نزال فى الشارع.

عندما وصلنا إلي مكتب المأمور قفز علي قدميه قائلاً: «ما الذى يحدث هنا؟ ما الذى تخططون له؟»

أجابه «إسرائيل»: «اهدأ يا رجل، نحن لم نأتى إلي هنا لنسبب لكم أية مشاكل. لقد جئنا لنسلم أسلحتنا».

أجابنا: «ماذا؟... جئتم .... لماذا؟ ما الذى يجرى هنا بحق الجحيم؟» التفت ونادي علي الضابط قائلا: «أيها الملازم يفضل أن تأتى إلي هنا حالاً».

جاء الملازم فوراً وقف عند الباب وقال: «ماذا يفعل هنا كل هؤلاء الأولاد؟ ما كل هذا؟»

فالتفت «إسرائيل» نحو الملازم و قال له: «لقد سلمنا كلنا قلوبنا إلي الله ونريد أن نسلم أسلحتنا إلي الشرطة أيضاً».

تقدم أحد الأولاد و قال: «نعم، فمن الممكن أن تستخدموا مثل هذه الأسلحه لتحاربوا بها الأشرار».

فضحكنا كلنا، التفت المأمور إلي الملازم وقال له: «هل هذا معقول؟! من الأفضل لنا أن

نرسل أحد رجالنا ليتفقد المكان فى الخارج فمن المحتمل أن تكون هناك خديعة».

تقدمت وقلت له وأنا أحمل الكتاب المقدس بين يدى: «يا حضرة المأمورر، انظر إلي هذا وأشرت إلي كتابى، لقد أعطانا المبشر هذه الكتب البارحة بعد أن سلمنا جميعنا قلوبنا إلي الله .

ولن نكون بعد الآن أعضاء فى أية عصابة، نحن الآن صرنا مؤمنين بالمسيح».

سألنى المأمور: «مبشر.. من هو هذا المبشر؟»

فأجبته: «دافيد ويلكرسون، المبشر النحيل الذى كان يجول هنا فى الجوار، و يتحدث إلي العصابات. وقد كان لدينا اجتماع كبير فى منطقة «سانت نيكولاس» ليلة الأمس و فيها سلمنا حياتنا كلنا إلي المسيح. وإن لم تكن تصدقنا فيمكنك الاتصال به».

التفت المأمور إلي الملازم وسأله قائلاً: «هل معك رقم تليفون هذا المبشر؟»

فأجابه: «نعم يا سيدى، فهو يمكث عند مدام «أورتيز» ».

«اتصل به إذن ليأتى إلي هنا بسرعة. فمن الممكن أن نكون هنا فى ورطة كبيرة. وإن كان هو السبب فيما يحدث هنا فسوف أزج به فى السجن حالاً».

أدار الملازم قرص الهاتف متصلاً بالمبشر ثم أعطي السماعة بسرعة إلي المأمور.«قس» ويلكرسون»؟ من الأفضل أن تأتى حالاً إلي هنا. فالغرفة مليئة بعصابة «المومومس» «وأنا لا أعرف ما الذى يجرى». سادت لحظات من صمت ثم أغلق المأمور التليفون وقال: «هو فى طريقه إلي هنا. ولكن قبل أن يأتى أريدكم أن تسلمونا كل أسلحتكم الآن».

فقال له «إسرائيل»: «بالتأكيد أيها المأمور فهذا هو سبب مجيئنا». ثم التفت إلي باقى أفراد العصابة قائلاً: «حسنا يا رفاق ضعوا كل أسلحتكم هنا علي المكتب ومعها كل الطلقات.»

لم يصدق رجال الشرطة أعينهم. فى تلك الأثناء دخل اثنان من رجال الشرطة وهما مندهشين مما تراه عيونهم إذ لم يكونا قادرين علي تصديق ما يجرى أمامهما. فقد كنا قد سلمنا كل أنواع الذخائر والأسلحة التى كانت بحوزتنا.

وعندما فرغنا من تسليم كل أسلحتنا، هز المأمور رأسه فى دهشة عجيبة والتفت إلي إسرائيل قائلاً : «حسناً جداً، والآن هل يمكنك أن تقول لى حقيقة ما يحدث هنا.»

عاد «إسرائيل» ثانية ليحكى لهم ما كان قد حدث فى منطقة «سانت ينكولاس». أخبره من جديد بأننا صرنا مؤمنين بالمسيح وبأننا قررنا أن نحيا حياة مختلفة بعد الآن. ثم سأل الملازم إن كان من الممكن أن يكتب له كلمات للذكري فى كتابه المقدس.

فرح كل رجال الشرطة بهذه الفكرة العظيمة، فتدافعنا جميعنا إليهم ليكتبوا لنا بعض الإهداءات فى كتبنا.

فى هذه الأثناء فتح القس «دافيد» الباب و دخل إلي المكتب. نظر إلينا جميعا ثم تقدم نحو المأمور. حينئذ طلب المأمور جميع الضباط أن يأتوا إلي المكتب.

وما أن حضر الجميع حتي قال: «أيها القس، أريد أن أصافحك.» نظر «ويلكرسون» حوله والحيرة تملئ وجهه، لكنه صافح المأمور بقوة.

فسأله : «كيف فعلت هذا؟ هؤلاء الأولاد كانوا قد أعلنوا الحرب علينا ولم يكونوا يسببون لنا سوي المشاكل طوال هذه السنين. والآن يأتون إلينا فى هذا الصباح وهل تعلم ماذا يريدون؟»

هز «ويلكرسون» رأسه.

«لقد سألونا أن نكتب لهم بعض الإهداءات علي كتبهم المقدسة!»

كان «ويلكرسون» صامتاً ، ثم سألنا باستغراب: «سألتم رجال الشرطة أن يفعلوا ماذا؟»

فتحت كتابى المقدس وأريته إمضاء المأمور علي الصفحة الأمامية للكتاب. فهتف دافيد حينئذ: «حسنا مجداً للرب.. مجداً للرب ! هل رأيت أيها المأمور ما الذى يحدث هنا فى«فت جرين» ؟».

خرجنا بعد ذلك كلنا إلي الشارع تاركين وراءنا المأمور وهو يهز رأسه باندهاش وحيرة مما قد حدث اليوم، لا يفتأ ينظر إلي كل الأسلحة والذخائر الموضوعة أمامه علي المكتب فى تعجب شديد.

التففنا حول «ويلكرسون» أشار «إسرائيل» إلي كتابه المقدس قائلاً : «يا «دافيد» انظر لقد قمت بقراءة كتابى طوال الليل. ورأيت بأن اسمى مكتوب فيه هنا.. هنا فى الإنجيل. ها هو اسمى يملئ كل الصفحات. انظر؟ وبدأ «إسرائيل» يقلب صفحات الكتاب وهو يقول: «هذا أنا. أنا مشهور جداً.»

بعد عدة أسابيع وحوالى الساعة الرابعة والنصف، جاء لزيارتى فى شقتى القس «إريك» مسئول الخدمة فى الكنيسة الأسبانية المسماة «بايجلاسيا دى دواس جوان» كنا أنا و«إسرائيل» آنذاك جالسين فى شقتى نمضى أوقاتاً كثيرة فى قراءة الكتاب المقدس والصلاة معاً بصوت مرتفع. فى تلك الزيارة طلب منا القس «أريك» أن نذهب إلي كنيسته فى الليلة التالية لنقدم شهادتنا فى الاجتماع العام . كانت الخدمة مساء يوم الأربعاء حيث اتفق معنا علي أن يمر علينا و يأخذنا معه بسيارته.

كانت هذه أول خدمة حقيقية أحضرها فى كنيسة. أمضينا تقريباً ساعة فى الترنيم. ثم ذهبت أنا و«إسرائيل» لنجلس بجانبه علي المنبر ومن ثم لنشهد عن عمل الله فى حياتنا، كانت الكنيسة آنذاك مكتظة بالحاضرين. وعظ القس «إريك» وعظة مطولة ، ثم دعانى بعد ذلك للشهادة عن عمل الله فى حياتى. وما أن انتهيت حتي جلست فى أول الصف و استمعت بدورى إلي«إسرائيل» وهو يشهد عن عمل الله .

كانت هذه هى أول مرة استمع فيها إليه وهو يتحدث أمام جمع غفير. كان واقفاً خلف المنبر ووجهه الوسيم يشع بحب نابع من المسيح. وبصوته الهادئ بدأ يقص الأحداث التى قادت إلي تغييره. فبالرغم من تواجدنا معاً معظم الوقت فى الأسابيع الماضية إلا أنها كانت المرة الأولي أيضاً والتى ألمس فيها عمق وحقيقة مشاعره المعبرة والتى لم أكن قد لاحظتها من قبل.

عدت بذاكرتى إلي اليوم الذى كنا فيه معاً فى منطقة «سانت نيكولاس» وفيها حاول «إسرائيل» للمرة الأولي أن يحدثنى عن الله لكنى يومها لم أكن أفهم مشاعره مع أنى كنت أري بعينى كم كان متجاوباً مع الإنجيل. تذكرت أيضاً بشاعة اتجاه قلبى من نحو «دافيد» . آه كم كنت أكرهه. لقد كان الله عالماً كم كنت أكره «دافيد» ... آه وكم كنت مخطئاً كثيراً؟ كان كل ما يحاول فعله هو أن يسمح لله بأن يحبنى من خلاله، وأنا فعلت العكس، بصقت عليه ولعنته وأردت أن قتله.

عندما ذكر «إسرائيل» اسم «دافيد» ثانية عدت إلي الواقع.

كان«إسرائيل» يقول : «كنت لا أزال أمتحن أمانة دافيد و صدقه». ـ قال ذلك وهو يسترجع المشاعر التى انتابته فى المرة الأولي التى قابل فيها «دافيد» وهو يتحدث عن المسيح فى الشارع– : «لا زلت أذكر يوم جاء «دافيد» إلى وطلب منى أن اصطحبه لمقابلة واحد من قادة العصابات. حيث كان يريد أن يدعوه هو وأفراد عصابته إلي الاجتماعات المقامة فى منطقة «سانت نيكولاس».

فوافقت. وهكذا ذهبنا معاً إلي بروكلين حيث وجدنا «جو» رئيس عصابة «كونى ايسلند دراجونس» التى تعتبر من أكبر عصابات الشوارع فى العاصمة ومن ألد أعداء عصابة «المومومس». وأنا لم أكن أريده أن يرانى لذا أشرت «لدافيد» عليه من بعيد.

قلت «لدافيد» بأنى سأعود إلي المنزل. لكنى اختبأت وراء إحدي المبانى حين رأيته يقترب من «جو» ثم بدأت أستمع إلي حديثهم معاً. نظر «جو» إلي «دافيد» من أعلي إلي أسفل نظرة احتقار وازدراء ثم بصق علي حذائه. هذه الحركة عادة هى من أكثر الحركات التى يمكن أن تعبر بها عن مدي احتقارك لشخص ما. هذا كل ما فعله «جو» فقط. بصق علي حذائه ولم ينطق بكلمة. ثم رجع وجلس علي درجات سلم قريب.

لم يكن لدي «جو» منزلاً يذهب إليه. لأنه فى الحقيقة لم يكن يمتلك شيئاً. كان معتاداً علي النوم فى الحدائق فى الصيف الدافئ. وفى الشتاء حيث تشتد البرودة وتمطر السماء، كان ينام فى الأنفاق.

وهو رجل مشاكس من الدرجة الأولي. فقد كان يسرق الملابس من صناديق المحال الكبيرة والتى كانت توضع فى زوايا المتاجر ويظل يرتديها حتي تبلي عليه. ثم يعود من جديد ليسرق ملابس أخري.

فى ذلك اليوم كان يرتدى حذاءً من القماش ضيق جداً عليه، حتي أن أصابعه كادت أن تخرج منه. وكان يرتدى أيضاً سروالاً واسعاً جداً وكأنه ملك لرجل بدين وسمين.

كنت أعلم يومها بأنه: إن كان «ويلكرسون» يمثل علينا ويرائى فإن «جو» سيكتشف أمره بسرعة. وإن لم يكن صادقاً فعلاً، لطعنه بمطواته منذ البداية.

يومها نظر «جو» إلي «ويلكرسون» و قال: «اغرب عنى أيها الرجل الغنى. فهذا ليس مكانك. لقد أتيت إلي نيويورك لتتكلم عن شخص ما يدعي الله ويغير حياة الناس. وأنت ترتدى حذاءاً و سروالاً جديداً وأنا لا أملك شيئاً. لقد طردتنى أمى من المنزل لأنه كان لدى عشرة أشقاء ومنزل الصغير، ولم يكن يوجد لى مكان هناك، حتي المال الذى تستطيع أن تنفق به علينا.

أنا أعرف الأغنياء مثلك. أنت تأتى لتتسكع هنا مثلهم، هؤلاء الذين أراهم من حولى يركبون الأتوبيس إلي «باورى». أعتقد بأنه من الأفضل الآن أن تغرب عن وجهى لأنك أن لم تبتعد عنى فسوف أقتلك.»

هل تعرفون لقد أحسست يومها ـ ولو لدرجة بسيطة ـ ما كان يشعر به«دافيد» من نحو«جو»، ربما لأنه كان يعلم بأنه يقول الحقيقة. إذ شاركنى فيما بعد بأنه كان قد تأثر بمقولة لأحد الأشخاص وهى: «من الصعب جداً أن تطيب قلب أحد هؤلاء الأولاد بمحبة الله عندما تكون أرجلهم قد أصابها الصقيع.» أرجو أن لا أكون قد اقتبست هذه المقولة بشكل خاطئ، عن ما كان قد قاله لى «دافيد»، كل أريد قوله لكم بأنه كان هناك شيئاً ما يدور فى رأسه. هل تعلمون ماذا فعل؟ جلس هناك بجانب «جو» علي درجة السلم فى الشارع و خلع حذائه عنه و أعطاه إياه.

لقد لاحظت لحظتها تماماً كيف نظر «جو» إلي «دافيد» باندهاش و قال: «ما الذى تحاول أن تبرهنه لى أيها المبشر؟ هل تحاول أن تقول لى بأنه قد رق قلبك على أم ماذا؟ اسمع أنا لن أضع حذائك القذر هذا.. فى رجلى».

أما «دافيد» فقد أجابه قائلاً: «يا رجل لقد كنت تسرق أحذية سابقاً، فما رأيك أن تضع هذا الحذاء فى رجليك وتترك فكرة قتلى؟».

قال «جو»: «أنا لم أملك أبداً حذاءاً جديداً من قبل.»

رد عليه «ويلكرسون» قائلاً: «إذاً ضعه فى قدميك يا رجل.»

فوضع «جو» الحذاء فى قدميه. وما أن فعل هذا حتي تركه «دافيد» ليعود إلي سيارته. فاختبأت خلف المبني حتي رأيت «جو» يقوم ليصطحب «دافيد» إلي نهاية الشارع. كان «دافيد» يسير حافى القدمين لمسافة مبنيين حتي وصل إلي سيارته، وكان كل من فى الشارع يضحك عليه. حينئذ اكتشفت فعلاً بأنه إنسان صادق.

توقف بعدها «إسرائيل» بعض اللحظات عن الكلام فقد كانت الدموع قد خنقته، ثم تابع قائلاً: «لم يكن «دافيد» يقول شيئاً إلا وكان يخترق به قلبى. لم يكن هذا الرجل يمثل أبداً. لقد كان يحيا ما يعظه. أدركت فى ذلك اليوم فقط بأننى لن أستطيع مقاومة هذه القوة التى يمكن أن تجعل رجلاً مثل هذا يحيا ما يقوله مثلما فعل مع «جو».»

بعد انتهاء الخدمة سرت عبر الجمع ببطء، كانت قوة حضور الله تمننى، عندما وقفت أشهد للناس عما قد فعله فى حياتى. فهل كان معني هذا بأنه يريدنى أن أعظ وأن أكرز عنه؟

وهل فعلاً هذا ما قد أراده منى؟ لا أعرف، لقد شعرت بأنى أريد بعض الوقت حتي أفكر ملياً

فى هذا الموضوع.

كان لا يزال الجمع لا يزال واقفاً علي الرصيف أمام الكنيسة. ظللت أصافح الناس إلي أن خرجت من الباب الأمامى. وفجأة سمعت صوت سيارتين تقتربان عبر الشارع. وصوت صراخ امرأة ، نظرت فى اتجاه الصوت فرأيت إحدي البنادق مصوبة نحونا. ففهمت بأن بعضاً من أعضاء عصابة البيشوب. قد بدءوا يطلقون النار علينا ، وسيارتيهم تسرع هرباً فى آخر الشارع. رأيت بعض الناس ينبطح علي الأرض و البعض الآخر يجرى فى رعب شديد إلي داخل المبنى مرة ثانية. فركضت واختبأت وراء أحد الأبواب عندما اخترق الرصاص الحجر الذى بجانبى. بعدها هربت السيارتين مسرعة فى الليل.

عندما انتهت هذه المأساة اقترب إلى واحد من الرجال المسنين ، وضع زراعه حول كتفى و قال لى: «يا ابنى لا تفقد رجاءك . فالمسيح نفسه كان قد جرب فى البرية من قبل إبليس بعدما عمد من الروح القدس. لك أن تشعر بالفخر لأن إبليس يجربك. فأنا اعتقد بأن الله يريد استخدامك بقوة إن احتملت». ثم ربت على كتفى و اختفي وسط الجمع.

لم أكن اعرف ما معني كلمة «احتمال» آنذاك. لكنى كنت أريد فعلاً أن يستخدمنى الله بقوة. لم أكن متأكداً تماماً بأنى مكرم بهذه الطريقة، لأن إبليس أرسل ورائى بعض أعضاء العصابة ليقتلنى، و لكن ليكن لما لا.

بدأت الأمور تهدأ، سرت فى طريقى عائداً إلي منزلى. كان القس «إريك» قد أخذ «إسرائيل» فى سيارته، لكنى كنت راغباً السير علي قدمى والتفكير، فالأستاذ «ديلانجو» الذى يعمل مع «دافيد» فى الخدمة، كان قد طلب منى أن أمضى هذه الليلة فى منزله. كان رجل طيباً و أنيقاً و هادئ الطباع. كنت أعتقد بأنه ربما واحد من الأثرياء. وأنا كنت محرجاً جداً من أخلاقى الوضيعة و ملابسى الرثة لذلك رفضت طلبه. فأعطانى دولاراً و قال لى بأنى إن احتجت أى شيء فكل ما على فعله هو الذهاب إليه.

شكرته جداً و سلكت طريقى إلي شقتى. وفيما أنا أعبر شارع «فانديربيلت» وجدت «لوكا» واقفة هناك أمام شقتها تنادى على قائلة: «نيكى أين كنت كل هذا الوقت؟ لقد قال لى أحدهم بأنك قد تركت العصابة فهل هذا صحيح؟» أجبتها : «نعم هذا صحيح.»

فقالت لى: «يا حبيبى نحن نفتقدك. فالأمور لم تعد كما كانت من قبل أن تتركنا. فكيف لن

تبقي لتكون معنا ثانية؟»

فجأة من الخلف التفت حولى رقبتى زراع أحد الأشخاص قائلاً لـ «لوكا»: «حسناً ، تريدنى أن أعود إليكم فعلاً؟ أليس كذلك؟» كنت أظنه فى البداية أحد أعضاء عصابتنا. لكن الرعب كان قد ملأ وجه «لوكا». فاستدرت لأري من هو، وإذ به «جو» أحد أعضاء عصابة «الاباتشى» الذى سبق لى وأن خطفته من قبل و قمت بإحراقه.

حاولت الإفلات من قبضته عندما رأيت المطواة فى يده اليمنى. لكنه أمسكنى ولوي يدى إلي الخلف مستخدماً يده اليسري،ثم بدأ يأرجح المطواة من أعلي كتفى حتي يصل قلبى. رفعت يدى اليمني لأقذف بالمطواة بعيداً عنى، لكنه طعنى فيها فيما بين أصابعى حتي وصل بها إلي صدرى.

ثم استدار وطعنى ثانية و هو يقول صائحاً : «سوف أقتلك هذه المره. إن تعتقد بأنك تستطيع الإفلات من يدى حين تختبئ فى إحدي الكنائس فأنت مخطئ. سوف أقدم أكبر خدمة للعالم بأن أقتل شخص جبان مثلك.»

صحت فى «لوكا» قائلاً: «اذهبى من هنا فهذا الولد مجنون.»

تحرك نحوى وكاد يطعنى بالمطواة للمرة الثالثة .لكنى قفزن للخلف وكسرت «إريال» سيارة كانت تقف بالجوار. وهكذا صرنا الآن متعادلين فالإريال حاد مثل المطواة تماماً.

ظللت ألف فى دوائر من حوله و أنا أضرب الهواء بالإريال الذى كان فى يدى. شعرت بالثقة فى أنى أستطيع قتله الآن. كنت أحاول التفكير فى الخطوات التالية التى قد يقوم بها. وعندما كان يقفز نحوى ليطعنى بالمطواة كنت أتراجع سريعاً حتي أكاد أفقده اتزانه. كنت أستطيع إصابته بالعمي بلكمة قوية من الخلف وأصيبه بالشلل مع لكمة أخري.

كنت أحمل الإريال بيدى اليسري ويدى اليمنى مصابة ويتساقط منها الدماء.

وكنت أهمس فى أذنيه قائلاً: «هيا يا صغيرى حاول مرة ثانية مرة واحدة فقط، ستكون هذه محاولتك الأخيرة.»

كانت عيناه مملوءتان بالكراهية من نحوى. و كنت أعرف بأن على أن أقتله ، إذ لا يوجد أى أمر يمكن أن يردعه عنى. عاد ليقترب منى فتراجعت إلي الوراء، كادت المطواة أن تصيبنى فى

بطنى. لكنه وبسبب رجوعى المفاجئ للخلف كان قد فقد توزانه . فأسرعت لألوح بالإريال نحوه كى أصبه فى وجهه المكشوف.

لكنى فجأة شعرت بأن يد الله جذبت يدى للخلف. وسمعت صوتاً يقول: «حول له الخد الآخر أيضاً.» كان الصوت حقيقياً فقد سمعته فعلاً. وما أن سمعته حتي تغير اتجاه قلبى نحو هذا الشخص، إذ لم أعد أستطيع أن أنظر إليه كعدو بل كإنسان أشعر بالأسف من نحوه وهو يقف أمامى وسط الليل والظلام ليلعننى بأبشع الكلمات و الكراهية ترتسم علي وجهه. تذكرت عندئذ نفسى من أسبوعين وأنا واقف هنا فى هذا المكان، وسط الليل أحاول قتل أحد أعدائى.

فصليت لأول مرة فى حياتى طالباً المساعدة من الله ، قائلاً : «يا رب ساعدنى.»

فأستعاد الولد اتزانه وقال لى: «ماذا تقول؟»

فقلت له : «أقول يا رب ساعدنى.» فوقف وحدق فى . فى هذه اللحظة جاءت إلى «لوكا» راكضة وهى تحمل عنق زجاجة ويسكى مكسورة وتقول: «هيا اقتله يا «نيكى».»

بدأ الولد يستعد للهرب. و«لوكا» تصيح فى قائلة: «قلت لك اقتله، القها عليه يا «نيكى»، هيا اطعنه بها.» فرفعت يدى لأفعل ذلك، لكنى بدلا من أن أطعن بها هذا الولد الهارب ألقيتها علي جانب أحد المبانى.

بعد ذلك أخذت منديلا وربطت به يدى التى كانت تنزف بغزارة. كانت الدماء غزيرةً جداً لدرجة أن «لوكا» ركضت إلي غرفتها لتأتى لى بمنشفة الحمام حتي تمتص كل هذه الدماء. كانت تريد أن ترافقنى إلي شقتى، لكنى رفضت قائلاً لها: بأنى أريد أن أسير وحدى لبعض الوقت ثم تركتها ومضيت.

كنت خائفاً جداً من الذهاب إلي المستشفي، لكنى كنت أعلم بأنى محتاج لبعض المساعدة. إذ قد بدأت أشعر بالضعف من شدة ما نزفت. وكان على عبور حديقة واشنطن كى أستطيع الوصول إلي مستشفي «كامبرلاند». لكنى مع ذلك قررت الذهاب إلي هناك قبل أن انزف حتي الموت.

وقفت انتظر علي الرصيف فى شارع «دى كالب» إلي أن تتغير الإشارة. لكنى بدأت أشعر بالدوران وكان على أن أعبر الشارع قبل أن يغمي على.

تعثرت وأنا فى وسط الشارع ، حينئذ سمعت واحداً من أفراد عصابتى ـ «المومومس» ـ يصيح

و يأتى إلى سريعاً لنجدتى. كان يدعي «طرازان» وهو مكسيكى الأصل يرتدى قبعة مكسيكية كبيرة.

قال لى: «ما الذى تحاول فعله يا «نيكى»؟ هل تريد الانتحار أم ماذا؟» لقد ظن بأننى قد فقدت عقلى لأنى سلمت حياتى للرب.

أجبته: «يا رجل إنى مصاب. وإصابتى بالغة. ساعدنى أرجوك حتي أصل إلي شقة «إسرائيل»، هل يمكنك أن تفعل ذلك ؟»

سارع «طرازان» بالمسير معى نحو شقة «إسرائيل» ثم صعدنا السلم حتي وصلنا إلي الطابق الخامس حيث يعيش. كان الليل قد انتصف عندما كنت أطرق الباب.

فتحت لى الباب والدة «إسرائيل» ودعتنى للدخول. كان يمكنها أن تري وتلاحظ مدي شدة إصابتى. جاء«إسرائيل» من الغرفة الأخري. نظر إلى و بدأ يضحك ويقول: «يا رجل ما الذى حدث لك؟»

فأجبته: «لقد طعننى واحد من أعضاء عصابة «الاباتشى».»

فقال لى مستغرباً: «معقول! لم أكن أعتقد بأن كل هذا قد حدث لك.»

وهنا صممت والدة «إسرائيل» : بأن أذهب علي الفور إلي المستشفى. فساعدنى كل من «طرازان» و «إسرائيل» فى النزول و الذهاب إلي غرفة الطوارئ بالمستشفي. اتفقت مع «إسرائيل» علي أخذ محفظة نقودى التى كان بها دولاراً واحداً و إخبار أخى «فرانك» بما حدث لى. وقف «إسرائيل» حتي انتهي الطبيب من فحص يدى. كانت الشرايين قد قطعت، وكان عليهم أن يخدرونى حتي أخضع لجراحة سريعة. شعر إسرائيل بالخوف الشديد عندما استعدوا لأخذونى إلي غرفة العمليات بسرعة. قال لى: «لا تقلق يا صغيرى سوف نقبض علي هذا السافل.»

كنت أتمني أن أقول له بأننا لسنا فى حاجة لأن ننتقم لأنفسنا بعد الآن. فالرب هو المهتم بهذه الأمور. لكنه كان قد أغلق الباب بهدوء خلفه بعد أن قال جملته هذه ومضي.

فى اليوم التالى وفى الصباح الباكر، كان «إسرائيل» معى فى غرفتى فى المستشفي. كنت لا أزال أشعر بالدوار بسبب البنج. لكنى مع ذلك استطعت أن ألحظ تغييراً كان قد طرأ عليه، وجدته و قد حلق شعر رأسه تماماً.

فقلت له: «ما الذى حدث؟»

نظر إلى تلك النظرة القديمة التى كنت أعرفها. ثم قال لى: «يا رجل، فى البداية يطلقون علينا النار ونحن واقفين أمام باب الكنيسة ثم بعد ذلك يطعنوك. هل يرضي المسيح عن كل هذا. هذا الشخص ليس من حقه أن يعاملك بهذه الطريقة. وأنا سوف أنال منه لاجلك.»

بدأت أعى ما يقول، فجلست علي السرير. وقلت له: «لا يا حبيبى، عليك أن لا تفعل هذا. أنا كنت قادراً علي قتله البارحة لكنى لم أفعل لأنى تركت هذا الأمر فى يد الرب. لا تفعل لأنك يا حبيبى إن عدت إلي الشارع فلن ترجع إلي المسيح ثانية. هل تذكر ما قاله «دافيد» عن العودة إلي الطرق ... يا رجل ، أرجوك ابقى هنا معى واترك العراك جانباً.»

شعرت بصعوبة و أنا أحاول أن الجلوس علي السرير، بعدها بدأت أدرك بأن «ليديا» و«لوريتا» قد جاءتا مع «إسرائيل».

عدت ثانية لأسترخى علي سريرى فقد كنت أشعر بضعف ووهن شديدين، بسبب كل ما كنت قد فقدته من دماء. إضافة إلي حملى لعبئ الجراحة التى أجريت لى. فقد كانت زراعى مربوطة من كتفى حتي أصابعى.

كانت «لوريتا» فتاة إيطالية جميلة ذات شعر أسود وناعم كنت قد واعدتها وخرجت معها كصديقة عدة مرات قبلاً . فتكلمت ووجهت الحديث لى قائلة: ««نيكى» «إسرائيل» علي حق. فهؤلاء الأولاد سيعودون إلي المستشفى ثانية ليقتلوك إن لم ترجع إلي العصابة مرة ثانية. هيا بنا لنعود لأيامنا السابقة مرة أخري. هيا؟ عندما تتحسن صحتك ارجع وانضم إلينا ، إلي «المومس» سننتظرك.»

فالتفت و نظرت إلي«ليديا» قائلاً: «هل هذا ما تشعرين به أنت أيضاً؟»

نظرت إلى وقالت: ««نيكى» هناك أمر مهم أريد أن أصارحك به ، لكنى أشعر بالخجل من إنى سأقوله لك الآن بعد مرور كل هذا الوقت. لقد كنت قد سلمت حياتى للمسيح منذ سنتين.»

حدقت فيها و أنا مذهول مما تقوله لى: «ماذا؟ هل تعنى بأنك كنت مؤمنة طوال هذا الوقت؟ لما لم تقولى لى هذا من قبل؟ كيف لك أن تكونى مؤمنة وأنت تقومين بما كنت تفعلينه؟ ألا تذكرى ما قد فعلناه معاً؟ .. لا .. لا .. لا تقولى لى بأنك كنت مؤمنة إذاً. فالمؤمنون لا يسلكون

بهذه الطريقة. إذ لا يمكن لهم أن لا يشعروا بالخجل من الله. أنا لا أصدقك لا يمكن لى أن أفعل.»

قضمت «ليديا» شفتيها و الدموع تنهمر من عينيها وقالت لى: ««نيكى» لقد كنت خائفة منك، من أن أكلمك عن المسيح. كنت أخشي أن تتركنى فى حال أفصحت لك عن هذا الأمر وأن رفضتنى.»

اقترب «إسرائيل» إلي جانب سريرى و قال: «هيا يا «نيكى» ، لا تبتئس... أنت يبدو عليك الحزن بعض الشيء لأنك متعب. لكنك ستتحسن قريباً فيما بعد.وأنا و «لوريتا» نعتقد بأنه من الأفضل لك أن تعود إلي العصابة من جديد .أنا لا أعرف شيئاً عن أمر«ليديا» لكن لا يهم فقط فكر فى هذا الأمر ولا تقلق. وأنا سأتكلم مع بعض الأولاد حتي نتمكن من القبض علي هذا الذى فعل بك هذا.»

ابتعدت عنه مكدراً. فجاءت إلى «لوريتا» و قبلتنى فى وجهى. ثم «ليديا» التى شعرت بدموعها الساخنة علي خدى وهى تميل لتقبلنى و تقول: «أنا آسفة يا «نيكى». اغفر لى من فضلك.»

لم أنطق بكلمة، قبلتنى وركضت خارجة من الغرفة. ثم سمعت صوت الباب و هو يغلق ورائهم.

ما أن تركونى حتي شعرت بحضور واضح لإبليس فى المكان. فقد كان يتحدث إلى من خلال «لوريتا» و«إسرائيل». و كان يمهد أمامى الطريق من خلال إحساسى بخيبة أملى فى «ليديا».

شعرت به وكأنه يهمس فى أذنى قائلاً: «نيكى، أنت غبى. وهم علي حق. ارجع و عد إلي العصابة. تذكر تلك الأيام الجميلة. تذكر ذلك الشعور الرائع بالانتقام. تذكر كم هو مثير أن تكون فى حضن فتاة حلوة. «نيكى» لماذا خيبت أمل العصابة فيك؟ لكن لا تقلق فالوقت ليس متأخراً للعودة من جديد إلي العصابة.»

وفيما هو يجربنى، دخلت الممرضة تحمل إلى الطعام. كنت لا أزال أسمع آخر همسة له وهو يقول لى: «كيف يمكن لك أن تضيع فرصة للعراك. كم أنت جبان. «نيكى كروز» الشجاع القوى يبكى، هناك فى شارع «سانت نيكولاس» و يركض هرباً من واحد من أعضاء عصابة «الاباتشى» و يتركه يهرب بفعلته هذه. كم أنت جبان.»

«يا سيد كروز» كانت هذه هى الممرضة التى جاءت لتتكلم معى بجانب السرير.«هل يمكنك أن تعدل من جلستك كى أضع لك صينية الإفطار.«لكنى قفزت فجأة من علي سريرى وطرحت الصينية من يدها علي الأرض، و صرخت فى وجهها قائلاً: «اغربى عن وجهى الآن.»

كنت أريد أن أقول المزيد، لكن لم يخرج أى شىء آخر من فمى. فأنا لم أقل سوي هذه الكلمات. لقد اختفت كل كلمات السب واللعن التى كنت معتادا عليها. لم أستطع حتي أن تذكرها عندها جلست علي سريرى وأنا مذهول، ثم وجدت الدموع تنهمر من عينى كالفيضانات.

قلت للممرضة معتذراً و أنا أبكى: «أنا آسف...آسف، من فضلك اتصلى بالقس. اتصلى بالقس «إريك».»

وبهدوء شديد تناولت الأطباق من علي الأرض ثم ربتت علي كتفى قائلة: «سأتصل به حالاً لا تقلق. استرح أنت فقط.»

فعدت واستلقيت مرة أخري علي سريرى ، وضعت رأسى علي وسادتى ثم بكيت بشدة .

وبعد وقت قصير جاء القس «إريك» وصلي معى. وما أن صلي حتي ارتحت وشعرت بالحرية من روح شرير الذى كاد أن يتملكنى. وقال لى بأنه سيرسل إلى الأستاذ «ديلاجدو» فى الصباحً الباكر حتي يتأكد من أنى بخير.

فى تلك الليلة وبعد أن ساعدتنى الممرضة فى تغيير ملابسى، جلست بجوار سريرى وبدأت أصلى. كانوا قد نقلوا إلي غرفتى عند الظهيرة رجل عجوز وحين بدأت أصلى كنت أعتقد بأنه ما يزال نائماً.

وهكذا بدأت أصلى بصوت مرتفع لأن هذه الطريقة كانت هى الطريقة الوحيدة التى كنت أعرفها. لم أكن أعلم بأنه من الممكن لى أن أصلى فى سرى. كنت أعتقد بأن على لكى أصلى أن أكلم الله بصوت مرتفع. لذلك بدأت أصلى رافعاً صوتى.

سألت الله أن يغفر للولد الذى طعننى وأن يحميه من أى أذي يمكن أن يلحق به، كى يعرف يسوع المسيح المخلص. ثم سألته أن يغفر لى الطريقة التى عاملت بها «ليديا» وأن يغفر لى أيضاً طرحى للصينية من يد الممرضة.

ثم وعدته بأن أفعل أى شىء يريده منى وأن أذهب لأى مكان يقول لى عليه.

ذكرته بعدها بأنى لا أخاف من الموت، لكنى أسأله أن يجعلنى أحيا حتي أستطيع أن أخبر أبى وأمى عنه.

قضيت وقتاً طويلاً أصلى قبل أن أجر نفسى عائداً إلي سريرى ثم غرقت بعد ذلك فى نوم عميق.

فى الصباح الباكر كنت أرتدى ملابسى مستعداً للرحيل من المستشفي عندما همس لى الرجل الذى كان معى يشاركنى غرفتى ، طلب إلى أن اقترب منه. كان رجلاً مسناً قد وضعوا له أنبوباً فى حنجرته. يرتجف ووجهه شاحب لدرجة كبيرة و بالكاد استطاع أن يهمس لى.

قال لى: «لقد كنت مستيقظاً الليلة الماضية.»

فشعرت بالخجل الشديد منه و ابتسمت له بطريقة سخيفة .فتابع كلامه قائلاً:» شكراً لك. شكراً لك.. من أجل صلاتك.»

فقلت له: «لكنى لم أكن أصلى من أجلك. كنت أظن بأنك نائم. أنا فى الحقيقة كنت أصلى من أجل نفسى.»

مد الرجل جسده نحوى، وجذب إحدي يدى . أمسكها بأصابعه الباردة. كانت قبضته ضعيفة جداً. لكنى مع ذلك شعرت به وهو يحاول الضغط على. قال لى:«آه..لا.. أنت مخطئ . لقد كنت تصلى من أجلى. وأنا أيضاً صليت معك،لأول مرة منذ سنوات عديدة صليت. وأنا أيضاً أريد أن أفعل ما يريدنى يسوع المسيح فعله. شكراً.»

كانت دموع غزيرة تتدفق من عينيه وهو يكلمنى. فقلت له:«الرب يباركك يا صديقى.»

غادرت الغرفة وأنا أفكر، لم أحاول أبدا أن أخدم أى شخص فى حياتى من قبل. لم أكن أعلم حتي كيف يمكننى فعل ذلك، لكنى الآن ، صرت أشعر بمشاعر دافئة، فقد كان روح الله هو الذى استخدمنى. وقد كنت سعيداً جداً.

قابلنى الأستاذ «ديلاجدو» فى الردهة فى الدور الأسفل. كان قد دفع لى فاتورة الحساب، بعدها اصطحبنى معه إلي سيارته. وهو يقول: «لقد اتصلت «بدافيد ويلكرسون» الليلة الماضية. هو فى«الميرا» ينظم بعض النهضات هناك. ويريد منى اصطحابك أنت و «إسرائيل» إليه غداً.»

فقلت له: «نعم ، لقد ذكر لى«دافيد» هذا الأمر عندما قابلته فى المرة السابقة. لكن «إسرائيل»

عاد ثانية إلي العصابة. ولا أعتقد بأنه سيذهب معنا.»

فقال لى الأستاذ «ديلاجدو»: «سوف أذهب أنا لأراه الليلة. لكن أريد منك اليوم أن تبقي فى منزلى حتي تكون فى أمان. وسنسافر معاً فى الصباح الباكر غداً إلي «الميرا».»

كان يبدو هذا الأمر غريباً بعض الشىء على أن أذهب إلي الميرا غداً لأقابل «دافيد». لقد كان هذا المكان هو نفس المكان الذى كانت الشرطة تريد أن ترسلنى إليه ولكن لسبب مختلف. أمضيت بقية اليوم أصلى من أجل «إسرائيل» أن لا يعود إلي العصابة ثانية، بل يرجع ليأتى معى إلي «الميرا».

فى صباح اليوم التالى استيقظنا مبكرين، منطلقين إلي المدينة فى«بروكلين» لمشروع «فت جرين». كان الأستاذ «ديلاجدو» قد أخبرنى بأن «إسرائيل» قد وافق علي المجىء معنا و اتفق معه علي أن يقابلنا عند زاوية شارع «ميرتل» و «دى كالب» فى الساعة السابعة صباحاً.

لكننا عندما وصلنا إلي هناك لم نجد «إسرائيل». وهنا بدأت أشعر بالغثيان فى معدتى. درنا بالسيارة حول المبني، إلا أننا لم نراه. فقال لى الأستاذ «ديلاجدو»: «حسناً إننا فى عجلة من أمرنا، تعال لنمر عليه فى بيته فى شارع «سانت إدوارد» المنحرف من شارع ٦٧ حتي نري ما إن كان لا يزال فى المنزل». وهكذا وبعد انتظار نظر الأستاذ «ديلاجدو» فى ساعته، ثم قال: «لابد أن نذهب الآن وإلا تأخرنا».

فقلت له: «أرجوك.. هل نستطيع أن نلف حول المبني مرة أخيرة؟ ربما لم نكن قد بحثنا عنه جيداً».

فقال لى: «انظر يا «نيكى» أنا أعلم بأنك تحب «إسرائيل» جداً وتخشي أن يعود ثانية إلي العصابة. لكن عليه أن يتعلم أخذ قراره بنفسه ولمرة واحدة. هو وعدنى بأنه سيقابلنا فى الساعة السابعة لكنه لم يأتى بعد. حسناً سنمر حول المبني للمرة الأخيرة ومن ثم سننطلق لأننا نحتاج لأخذ ست ساعات حتي نصل إلي «الميرا» و«دافيد» يتوقع مجيئنا فى الساعة الثانية ظهراً.»

درنا بالسيارة حول المبني مرة أخري، ثم توجهنا نحو«بونكس» لنأخذ معنا «جيف مورالس». كان «جيف» من «برتوريكان» و يرغب فى أن يصير قساً ذات يوم. و«دافيد» طلب منا المرور به لأخذه معنا إلي هناك حتي يترجم له خدمة الليلة فى الكنيسة.

ما أن خرجنا من المدينة حتي شعرت بالراحة. ملت بالكرسى إلي الخلف وتنهدت بعمق.

وكأن حمل قد رفع من علي صدرى. لكنى كنت أشعر بحزن شديد لأننا قد تركنا «إسرائيل» ورائنا، كان عندى شعور غريب بالحيرة علي مستقبله. لم أكن أعلم شيئاً مما يحدث له الآن، لكن مرت ست سنوات حتي قابلته ثانية.

فى تلك الليلة قدمنى «دافيد» إلي الجمع فى «الميرا» حتي أشهد عن عمل الله فى حياتى. طلب منى أن أبدأ وأقص عليهم حكايتى كما حدثت. كنت مشوشاً بعض الشيء بالنسبة للتفاصيل الصغيرة، لم أكن أتذكر شيئاً كثيراً عن ما كان قد حدث لى . فأدركت حينئذ بأن الله لم يغير فقط معظم شهواتى السابقة ، لكنه أيضاً محا معظم الذكريات من فكرى. وهكذا اجتهدت وأنا أقص تفاصيل حياتى عليهم قدر استطاعتى.

فى معظم الأوقات كنت أسبق المترجم فى الكلام، فكان يطلب منى البطء قائلاً: «من فضلك يا «نيكى» ابطيء فى كلامك قليلاً، حتي أتمكن من الترجمة.» كنت أري الناس يضحكون تارة ويبكون طوراً .وعندما قدم القس الدعوة للناس كى يأتوا ليسلموا حياتهم للمسيح، قدم الكثير إلي المنبر. وهكذا كان الشعور بأن الله يدعونى لخدمة خاصة يزداد قوة فى داخلى كلما رأيته يعمل فى حياتى.

فى اليوم التالى أتيحت لى الفرصة للتحدث مع دافيد ولوقت طويل. حينها سألنى إن كنت جاداً بشأن دخولى إلي الخدمة. فقلت له بأنى لا أعرف شيئاً عن هذا حتي أنى غير قادر علي التحدث باللغة الإنجليزية بشكل جيد، ولكنى كنت أشعر بأن يد الله علي قلبى وسوف يقودنى إلي مشيئته الصالحة. ووعدنى دافيد: بأنه سيبذل قصاري جهده كى أعود إلي المدرسة من جديد.

«المدرسة! أنا لم أذهب إلي المدرسة منذ ثلاثة سنوات يوم طردونى منها. دافيد أنا لا أريد أن أذهب إلي المدرسة. فالناظر قال لى بأنى إن حاولت أن أعود فسوف يسلمنى إلي الشرطة.»

فضحك دافيد، وقال: «لا ليست هذه المدرسة يا «نيكى». بل إلي مدرسة اللاهوت. هل تريد الذهاب إلي كاليفورنيا؟»

«أين؟»

«كاليفورنيا. فى البر الغربى.»

سألته: «هل هى قريبة من» «منهاتن؟»

فبدأ ويلكرسون يضحك ويقول: «آه يا «نيكى»، يا «نيكى». الرب لديه عمل كثير سيعمله بداخلك وفى حياتك . وأنا أظن بأنه قادر علي ذلك ، انتظر فقط وستري. فأن أموراً عظيمةً سوف تحدث لك أثناء خدمتك. أنا أؤمن بهذا.»

فهززت رأسى. لقد كنت سمعت بأن شرطة «منهاتن» قاسية جداً تماماً كشرطة «بروكلين». وإن كنت سأذهب إلي المدرسة ولابد فأنا أريد التأكد من أنى سأكون فى أى مكان لكن بعيداً عن مدينة «نيويورك».

أراد «دافيد» أن أمكث معه حتي يستطيع الكتابة إلي مدرسة اللاهوت، التى اكتشفت فيما بعد بأنها فى «لابونتو» فى «كاليفورنيا» خارج مدينة «لوس انجلوس». كانت مدة المدرسة ثلاثة سنوات للأولاد والبنات الذين يريدون أن يعدّوا للخدمة ولا يمكنهم الذهاب إلي الجامعة.

بالطبع فأنا لم أكمل تعليمى الثانوى فى المدرسة، ولكن «دافيد» كان يكتب إليهم جواباً يسألهم فيه أن يقبلونى بأى شكل من الأشكال. قال لى بأنه لم يذكر لهم أى شيء عن ماضى . لكنه كتب لهم عن طموحى فى المستقبل و يسألهم أن يقبلونى ويمتحنونى، مع أن قبولى للمسيح لم يكن يتعدي سوي بضعة أسابيع.

الأمور فى «الميرا» لم تسر علي غير ما يرام . فقد أشاع البعض بأنى لا أزال قائداً عصابة، وبأنى قد جئت إلي هنا لتكوين عصابة جديدة. وقد حزن «دافيد» كثيراً عندما سمع هذه الأخبار فقد كان متوقعاً أن تنشأ بعض المشاكل. كنت أمكث معه كل ليلة ، لكنى بدأت أخشي أن ينتقده الناس. لذلك اتفقنا علي أن نصلى من أجل هذا الأمر.

فى هذه الليلة كلمنى «دافيد» عن التعميد بالروح القدس. سمعته حتي النهاية بشكل جيد لكنى لم أكن أفهم ما الذى كان يعنيه. قرأ لى بعض الشواهد من سفر الأعمال ورسالة كورنثوس الأولي ثم أفسس. ثم شرح لى بأنه بعد أن يقبل الإنسان المسيح مخلص شخصى لحياته عليه أن يطلب منه الملأ بقوته، وبالروح القدس. شرح لى كيف تم خلاص شاول فى أعمال ٩ وأنه بعد ثلاثة أيام من تغيره قبل معمودية الروح القدس وامتلئ بقوة جديدة .

فقال لى: «هذا ما أنت تحتاجه الآن يا «نيكى». فالرب يريد أن يملئك بالقوة وأن يمنحك موهبة خاصة.»

فسألته: «ما هى هذه المواهب الذى تتكلم عنها؟»

ففتح الكتاب المقدس علي رسالة (كورنثوس الأولي ١٢ : ٨ ـ ١٠) وشرح لى المواهب التسع للروح القدس. قائلاً : «هذه ستعطي لكل من عمد بالروح القدس. ومن المحتمل أن لا تحصل عليها جميعاً ، لكن من المؤكد بأنك ستحصل علي بعض منها. ونحن المعمدانيون نؤمن أيضاً بأن كل من عُمد بالروح القدس سيتكلم بألسنة.»

«قلت له مندهشاً: «هل تعنى بأنى سأتكلم الإنجليزية دون أن أدرسها؟»

فتابع «دافيد» حديثه وهو يغلق الكتاب: «لقد طلب الرب من تلاميذه أن يصلوا حتي يحصلوا علي القوة. أنا لا أريد أن استعجل الأمور عليك يا نيكى. فكلنا سننتظر الله حتي يعمدك عندما تكون مستعداً لقبول هذا الأمر. لكن الآن لدينا مشكلة يجب أن نصلى من أجلها.»

أطفأت النور وأنا أقول له مازحاً : «إذا أعطانى لساناً آخر أتمني أن يكون بلغة إيطالية. فأنا أعرف أكثر الفتيات الإيطاليات جمالاً والتى لم تري مثلها من قبل و أنا متأكد....» فقاطعنى حيث قذف على وسادة من عبر الغرفة خبطتنى فى وجهى.

«اذهب إلي النوم يا «نيكى» فقد دخلنا فى يومنا التالى ونصف المدينة هنا تعتقد بأنك مازلت رئيس عصابة. فإن أراد الله وأعطاك لساناً تتكلم به فمن الأفضل له أن يكون بلغة يستطيع هؤلاء الناس أن يفهموها، عندما تتكلم إليهم لتقول لهم بأنك لست قاتلاً.»

فى صباح اليوم التالى وجدت«دافيد» وقد بدت عليه علامات التوتر، عندما عاد من الاجتماع المبكر. قال لى: «الأمور ليست علي ما يرام يا «نيكى». علينا أن نبعدك عن هذا المكان قبل حلول الليل ولا أعلم إلي أين أستطيع أن أرسلك لكنك الآن يجب أن لا تعود إلي نيويورك.»

فسألته: «هل تعتقد بأن الرب قد سمع لصلاتنا بالأمس؟»

انزعج «دافيد» من السؤال وقال لى: «حسناً، أنا متأكد من هذا. لهذا قد صليت لأنى أؤمن بأنه يسمع الصلاة.»

«هل صليت أن يعتنى بى الرب؟»

«أنت تعلم بأنى طلبت هذا من أجلك.»

«إذا لماذا أنت قلق لهذه الدرجة؟»

وقف «دافيد» للحظة ثم نظر لمدة دقيقة وقال: «هيا بنا هيا، لنذهب و لنتناول إفطاراً متأخراً بعض الشيء. فأنا جوعان جداً وأنت؟»

فى الساعة الثانية ظهراً رن جرس الهاتف فى غرفة الفندق. وكان المتصل هو قس الكنيسة التى يعظ بها «دافيد». كانت هناك امرأة فى مكتبه تريد أن تتحدث معنا. سمعت«دافيد» يقول لها: «سوف نكون عندك فوراً».

سرنا إلي مكتب القس الذى بدوره عرفنا علي السيدة «جونسون» التى كانت قد قادت سيارتها لمسافة مائتى ميل من بيتها فى نيويورك، وهى فى الثانية والسبعين من عمرها، رحبت بنا ثم أخبرتنا بأنه فى الليلة السابقة كلمها الروح القدس. فقد كانت قد قرأت عنى فى الجرائد وقالت بأن الروح القدس أخبرها بأنى فى مأزق وبأنه عليها أن تأتى إلى لتساعدنى.

فنظرت إلي «دافيد» ووجدت الدموع تنهمر من عينيه. قال لها: «أنت اسمك السيدة «جونسون» لا أنا أعتقد بأن اسمك الحقيقى هو السيدة «حنانيا».»

نظرت إليه المرأة نظرة غريبة وقالت: «عفواً، أنا لا أفهم شيئاً.»

قاطعها القس و قال: «هو يشير إلي «حنانيا» الذى ذكر فى سفر (الأعمال الإصحاح ٩) عندما لمسه الروح القدس وأرسله إلي بولس.»

فابتسمت السيدة «جونسون» و قالت: «أنا أعرف فقط بأن الرب قد أعطانى بعض الإرشادات لآتى وآخذ هذا الولد إلي البيت معى.»

فطلب منى «دافيد» حينئذ أن استعد للرحيل معها. و قال لى بأنه يتوقع رداً من «لابونتى» فى غضون بضعة أيام وسوف يرسل لى الرد حالما يصله. لم أكن أريد أن أذهب، لكنى و بعد أن سمعت ما كان قد حدث فى الليلة الماضية وما يحدث الآن، قررت أن الذهاب.

بعد أسبوعين تلقيت هاتفاً من «دافيد». كان فرحاً جداً. فالناس هناك فى كلية اللاهوت كتبوا له يقولون بأنهم سيقبلوننى و بأنهم ينتظروننى بغض النظر عن أية متطلبات أخري، ليس هذا فقط بل وسيقبلوننى كطالب عادى.

ثم طلب منى أن أركب أتوبيس عائدا إلي نيويورك. إذ على أن أسافر إلي كاليفورنيا فى اليوم التالى.

و الآن لم أكن أمانع من أن أعود إلي نيويورك. تذكرت الوقت الذى ركبت فيه مع دكتور «جون» ومشاعر الاكتئاب التى كانت تشعرنى بأنى أغرق فى هاوية التى لا نهاية لها. لكن هذه الهاوية لم يعد لها مكان الآن. وفى هذه المرة قد خرجت من البرية.

كنت على أن أنتظر لمدة خمس ساعات فى محطة الأتوبيس قبل أن يأتى «دافيد» و يأخذنى. فوقفت أنتظره فى الردهة حتي أبتعد عن المشاكل. لكن المشاكل دائماً ما كانت تجد طريقها إلى. وقد جاءت هذه المرة فى شكل عشرة أولاد من عصابة «الفيكرويس» الذين أحاطوا بى مشكلين نصف دائرة حولى وأنا اقرأ الجرائد.

قال أحدهم: «آه انظر إلي هذا الولد الجميل.» وكان يشير إلي بذلتى وربطة عنقى. «آه.. هل تعرف بأنك خارج منطقة نفوذك. ألا تعلم بأن هذه المنطقة هى منطقة نفوذ «الفيكرويس»؟»

فجأة قال أحدهم قائلاً: «آه، هل تعلمون من هذا؟ هذا البهلوان من عصابة «المومومس» الذى تحول إلي واعظ.»

سار نحوى ولد آخر ووضع إصبعه فى وجهى قائلاً: «أنت أيها الواعظ هل أستطيع أن ألمسك؟ فمن المحتمل أن تعطينى بعضاً من قوتك الخفية المقدسة هذه.»

دفعت يده بعيداً عنى، و خرج منى «نيكى» العتيق، ثم قلت له: «هل تريد أن تموت، إذاً المسنى فقط مرة ثانية وستصبح رجلاً ميتاً».

حينئذ رجع الولد للخلف مندهشاً، وقال: «آه، هل تسمعونه. فهو يشبه الواعظ لكنه يتكلم مثل...» ثم استخدم اسماً قذراً.

لكنه قبل أن يتحرك وقفت علي قدمى ثم لكمته فى بطنه. وعندما انحني ماسكاً بطنه ضربته من الخلف لكمة علي رأسه. فوقع علي الأرض مغشياً عليه. لم يستطع بقية الأولاد أن يتحركوا من الدهشة. فبدأ الناس فى محطة الأتوبيس يختبأون وراء المقاعد ويهربون من المكان. دفعت الباب للخلف وقلت: «أنتم أيها الأولاد، حاولوا فقط أن تقتربوا منى ولسوف أقتلكم. أنا ذاهب الآن لاستدعى عصابتى «المومومس». وسأعود فى غضون ساعة ثم سأقتل كل من فى عصابة «الفيكريوس».»

كانوا يعلمون بأنى أقصد ما أقول وكانوا يعرفون بأن «المومومس» هم فى ضعف عددهم وأكثر

وحشية وبطشاً منهم. لذلك نظروا إلي بعض البعض ثم تراجعوا نحو الباب وهم يجرون صديقهم المصاب معهم.

فصحت فيهم: «سوف أعود. فمن الأفضل لكم أن تتحركوا لأنكم لم تفعلوا هذا فستكونوا فى عداد الموتي حينئذ.»

ثم ركضت عبر الباب وسرت بمحاذاة مدخل مترو الأنفاق. لكنى فجأة وجدت أمامى كنيسة أسبانية. شيء ما فى داخلى جعلنى أبطئ ثم أستدير. سرت ببطء نحو درجات السلم فى المبني المفتوح هذا. و فكرت بأنه من الأفضل لى أن اصلى قبل أن أفكر فى العودة إلي «المومومس».

لكن ما أن دخلت الكنيسة حتي نسيت أمر «المومومس» تماماً و «الفيكريوس» أيضاً. فقد بدأت أفكر فى المسيح ثم فى حياتى الجديدة بعد ذلك. ركعت عند المذبح و مرت ربما دقائق أو ثوانى، ثم شعرت بعد ذلك بأحد يربت علي كتفى. نظرت خلفى فوجدته «ويلكرسون».

قال لى: «عندما لم أجدك فى محطة الأتوبيس اعتقدت بأنى سأجدك هنا.»

فقلت له «من الطبيعى. فأين يمكن أن تجدنى إذاً هناك فى العصابة؟» فضحك ثم سرنا إلي سيارته.

الفصل الثاني عشر
الأيـــام الدراســـية

كانت معهد دراسة الكتاب المقدس فى «لابوينتا، كاليفورنيا» صغير و بسيط. إذ كان يقع علي قطعة أرض صغيرة خارج البلدة. وكان معظم الطلبة فى المعهد من الأسبان و مستواهم الاقتصادى متوسط.

وصلت أنا و«ستيف مورالس» بالطائرة من نيويورك. كانت هذه المدرسة مختلفة أشد الاختلاف عن أى شيء اختبرته فى حياتى من قبل. فقد كانت القواعد صارمة جداً بالنسبة لى و الجداول منضبطة. كانت المدرسة منظمة جداً، والفصول تعمل من الثلاثاء إلي السبت. معظم الطلبة كانوا يعيشون فى مدينة جامعية تشبه الثكنات العسكرية.

أخذ منى الوقت عدة أشهر حتي أعتاد علي المعهد. فقد كانت لى دائماً طرقى الخاصة بى أما الآن هنا فى المعهد كان كل شئ يتم بنظام و بتوقيت، وبجرس يدق من وقت الاستيقاظ فى السادسة صباحاً حتي وقت النوم فى التاسعة والنصف ليلاً. لم يكن لدينا وقت فراغ حيث كان قد طلب منا أيضاً أن نمضى ساعتين فى الصلاة بجانب ساعات الدراسة. كانت مشكلتى الأساسية فى أنى لم أكن أتمكن من الحديث مع الفتيات. فقد كان هذا الأمر ممنوعاً منعاً باتاً وكان الوقت الوحيد الذى يمكننا أن نتكلم فيه مع بعضنا البعض هو لدقائق معدودة كنا نستغلها، وكانت هذه الدقائق هى فيما بين الحصة و الأخري، أو أثناء غسل الأطباق فى وقت العمل.

ومع ذلك، فقد كانت فلسفة المدرسة هى تعلم التلمذة والطاعة. وعلي الرغم من أن هذا كان أمراً صعباً بالنسبة لى، إلا أنه كان ما كنت أحتاجه من تدريب. فلو كان أقل صرامة، لكان سيسمح لى بحرية أكبر.

كانت الوجبات مشبعة، لكنها غير شهية. فإفطارنا العادى هو بطاطس مهروسة وخبز توست، لكن كان هناك يوم واحد فى الأسبوع نأكل فيه بيضة. هذا النوع من النظام الغذائى كان جزءً من

تدريبنا، حيث أن معظمنا سنصبح قسوساً أسبان فى مناطق فقيرة من البلاد، وسنجبر علي العيش فى أقل المستويات.

كان المدرسون صبورين جداً على. لم أكن أعلم كيف أسلك معهم ، فشعرت كثيراً بعدم الأمان . فحاولت تخبئة هذا الشعور بأن أتظاهر بالذكاء وخفة الدم.

أتذكر ذات صباح بعد مرور ثلاثة أشهر علي وجودى فى المدرسة، كنا نقف فى الفصل حيث قادتنا المدِّرسة فى صلاة طويلة ومفتوحة – كانت لفتت انتباهى منذ عدة أسابيع فتاة مكسيكية الأصل جميلة، شعرها أسود كنت أحاول جذب انتباهها لكنى لم أتمكن من ذلك– . وفى وسط تلك الصلاة دفعت كرسيّها بعيداً عن مكتبها فقد توقعت بأنها ستلتفت إلى لكنها لم تفعل. وفى قولنا «آمين» جلسنا جميعاً. إلا أنها ولأنى كنت قد سحبت كرسيها، فقد سقطت علي الأرض ثم التفتت إلى غاضبة «لقد التفتت إلىّ أخيراً لكن كانت عيناها تشعان ناراً بسبب ما حدث، حيث كنت مستغرقاً فى الضحك وأنا أحاول مساعدتها علي القيام من الأرض. حدقت بى ثم قامت من علي الأرض بدون مساعدتى. لم تقل أية كلمة ولذا لم يعد يصبح الأمر مضحكاً كما كنت أتوقع. بعدها جذبت كرسيها إلي مكانه ثم مدت قدميها ورفست مقدمة رجلى بعنف فوقعت علي الأرض. لم أتوقع أن أتألم إلي هذه الدرجة. شعرت بالدماء تتصاعد من وجهى وبأنه سيغشي على. والآن كل من كان فى الفصل بدأ يضحك. استعدت اتزانى ثم التفت إليها. فنظرت إلى نظرة ثاقبة اخترقتنى. ابتسمت لها لأنى شعرت بأننا سنكون أصدقاء. فاستدارت وجلست علي مكتبها تنظر للمدرِّسة.

بدأت المدرسة تقول: «والآن وبعد أن انتهينا من التأمل الصباحى فسنبدأ بمراجعة ما كنا قد أخذناه. والسيد «كروز» سيكون أول من يتلي علينا ما حفظه فى هذا الصباح».

نظرت إليها نظرة مستنكرة. فقالت لى: «سيد كروز! لقد راجعت دروسك أليس كذلك؟» حاولت أن أقول شيئاً ، لكن قدمى كانت تؤلمنى بشدة حتي أننى لم أكن أستطع أن أنطق بكلمة.

«سيد «كروز» أنت تعلم عقاب عدم تحضير الدرس أليس كذلك؟ أنا اعرف بأنه لديك مشكلة كبيرة مع اللغة وبأنك لم تتدرب بطريقة كافية لتعمل وتدرس بطريقة أكاديمية. نحن نحاول أن نكون صبورين معك، لكن إن لم تتعاون معنا فليس لدىّ خيار آخر إلا أن أعطيك صفر واستبعدك من هذا الفصل الدراسى. سأسألك مرة أخري هل أعددت مادتك أم لا؟»

أومأت برأسى ثم وقفت علي قدمى. كان مخى فارغاً تماماً. تقدمت ووقفت أمام الفصل كله. ونظرت إلي الفتاة الجميلة ذات العيون السوداء الساحرة. فابتسمت بلطف ثم فتحت مفكرتها حتي أستطيع أن أري الصفحة تلو الأخري من مذكراتها مكتوبة بنظام من المادة التى كنت سأسمعها. نظرت إلى المدرسة ، فقلت لها ببطء: «أعذرينى» ثم خرجت راكضاً من الغرفة إلي بيت الطلبة.

لقد جعلت من نفسى أضحوكة. كنت أعتقد بأنى أستطيع التظاهر بالخفة والذكاء والضحك مع الجميع كما كنت أفعل وسط العصابة. لكن هؤلاء الناس كانوا مختلفين. لقد كانوا يحتملوننى لأنهم كانوا يشعرون بالأسي من نحوى . لم أكن مناسباً لمثل هذا المكان. لقد كنت منبوذاً.

جلست بجانب سريرى وكتبت إلي «دافيد» رسالة طويلة. قلت له بأن الأمر شاق جداً هنا وأنى قد ارتكبت خطأً جسيماً بمجيئى إلى هنا. كنت أشعر بالأسف لأنى أحبطته. ولكنى كنت أخشى فى أنه إن مكثت أكثر من ذلك فقد أتسبب له فى حرج كبير. ثم سألته أن يرسل لى تذكرة طائرة. وضعت طابع البريد الخاص علي الجواب وأرسلته إلي منزله فى بنسلفانيا.

بعد حوالى أسبوع رد على بخطاب. ففتحته بشوق شديد ووجدت جملة قصيرة.

«عزيزى «نيكى»:

أنا سعيد لأنى سمعت أخبارك. حب الله سيطرد إبليس. أنا آسف ليس لدينا رصيد كافى لنرسل لك تذكرة الطائرة الآن. سوف أكتب لك فيما بعد عندما أحصل علي بعض المال. صديقك دافيد».

كنت محبطاً جداً ومريضاً .لكن هذه المرة كتبت إلي السيد «دلانجدو» خطاباً مطولاً وخاصاً. كنت أعلم بأن لديه المال، لكنى كنت محرجاً من أن أقول له حقيقة ما يحدث فى المدرسة. فقلت له بأن عائلتى فى «برتوريكان» محتاجة للمال وعلى أن أعود لأعمل و أعيلهم. فى الحقيقة لم أكن قد سمعت عن عائلتى أية أخبار منذ حوالى سنة تقريباً. وكانت هذه هى القصة الوحيدة التى كان من الممكن لى أن أختلقها وتكون مقبولة.

بعد أسبوع تسلمت خطاباً من ديلانجو يقول فيه:

«عزيزى نيكى»:

«لقد سعدت جداً بخطابك. لقد أرسلت بعض المال لأسرتك لذا تستطيع أن تمكث فى

المدرسة .الرب يباركك» .

فى هذه الليلة ذهبت لأتكلم مع «دين لوباز» . حكيت له عن المشاكل التى أتعرض لها . لقد كنت متمرداً علي السلطة . ففى اليوم السابق كان على أن أمسح أرض المسرح فألقيت بالمساحة علي الأرض وقلت لهم: «لقد أتيت إلي كاليفورنيا لأدرس بالمدرسة و ليس لأعمل كعبد» . كنت لا أزال أسير كراقص بهلوانى . وأعلم بأن على أن لا أفكر بطريقة «نيكى» القديمة، لكنى لم أستطع مقاومة هذا التفكير . وعندما حاول الأولاد الآخرين فى البيت أن يصلوا لأجلى طردتهم وقلت لهم بأنى أفضل ما أنا فيه . فأنا فاسد . مجرم . وهم جميعهم قديسين . كانوا يريدون الصلاة من أجلى و أن يضعوا أياديهم على لكنى رفضت أن يقتربوا منى . بكيت بمرارة عندما جلست فى المكتب الصغير اطلب المساعدة .

كان «دين لوباز» رجل قصير القامة ونحيل لونه أسمر . سمعنى بإمعان ثم أومأ إلى برأسه وجذب الكتاب المقدس الذى كان مخبئاً تحت كومة كبيرة من الأوراق .

«نيكى» ، يجب أن تتفاعل مع الروح القدس . فقد قبلت الخلاص وتريد أن تتبع المسيح ، لكنك لن تحصل علي نصرة حقيقية فى حياتك حتي تقبل معمودية الروح القدس» .

جلست هناك واستمعت إليه هو يتكلم لى من الكتاب المفتوح عن النصرة العظيمة التى يمكن أن تكون لى فيما لو قبلت الروح القدس .

قال لى: «فى سفر أعمال الرسل، كان التلاميذ فى نفس موقفك يا «نيكى» . مخلصين نعم ، لكن لم تكن لديهم تلك القوة الداخلية . كانوا معتمدين فقط علي وجود المسيح الجسدى معهم فى إعطاءهم القوة . وكلما كانوا يقتربون منه كانوا يمتلئون من القوة . ولكن عندما ينفصلون عنه كانوا بلا قوة .

لذلك كانوا دائماً معه ، مع أنهم كانوا يرون كل ما يفعل ولم تجري الا عملية شفاء واحدة هم لم يروها . وكان هذا فى حادثة شفاء خادم قائد المئة الرومانى ولكن كان عليه أن يؤمن بالمسيح حتي تتم المعجزة . وفى إنجيل متي مكتوب بأن المسيح أرسل تلاميذه الأثنى عشر وأعطاهم سلطاناً علي الأرواح النجسة ليخرجوها ويشفوا كل مرض . لكن علي الرغم من إرساليته هذه لم تكن لديهم القوة اللازمة لها . والبرهان علي ذلك يمكن أن تجده فى نفس الإنجيل عندما جاء رجل بابنه للمسيح وطلب منه أن يشفيه قائلاً: بأنه كان قد طلب من تلاميذه من أن يفعلوا هذا

لكنهم لم يقدروا أن يشفوه».

سمعت بإمعان لـ «دين» وهو يقلب صفحات الكتاب المقدس فأري خبرته الكبيرة فى الإنجيل. قائلاً: «فى بستان جسثيمانى انفصل المسيح عن تلاميذه ليصلى. لكن ما أن ابتعد عنهم حتي خاروا وصاروا بلا قوة. طلب منهم أن يمكثوا معه ليراقبوا الجند، لكنهم تركوه و ناموا».

وهنا فكرت بداخلى: «هذا أنا. أنا أعلم ما يريدنى أن أفعل، ولكن ليست لى القوة لأن أفعل. أنا أحبه وأريد أن أخدمه، لكنى بلا قوة».

ظل «دين «يتكلم» ويقلب صفحات الكتاب وكأنه يتلامس مع أقرب وأقدم صديق له. دمعت عيناه وهو يتكلم عن إلهه الغالى. » ثم تذكر فى نهاية الليل عندما وقف بطرس خارج القصر. بعد أن أخذوا منه سيده حيث فقد قوته. كيف صار جباناً روحياً. حتي أنه فى هذه الليلة عندما سألته الخادمة: «هل ممن كانوا يتبعون المسيح، بدأ بطرس يلعن سيده ومخلصه وينكر بأنه كان أصلاً يعرفه».

تحجرت فى الكرسي وقلت له: «إن كان سيرسل روحه لماذا لم يعطنى إياها بعد؟»

فوقف وهو يسير تارة للأمام وطوراً للخلف بمحاذاة مكتبه ويقول لى: «لقد أرسل روحه بالفعل ولكنك لم تقبله بعد».

«أرسله واقبله. ما هو الفرق؟»

«روح الله فيك يا «نيكى». فقد ملئ حياتك منذ الليلة التى سلمت فيها قلبك لله فى منطقة «سانت نيكولاس». إذ لا أحد يستطيع أن يقول بأن المسيح سيد ورب إلا الروح القدس. فالروح هو الذى غفر لك خطيتك. وهو الذى أعطاك القوة لتقبل يسوع المسيح سيد و رب. كذلك هو الروح القدس هو الذى فتح أمامك الأبواب لتُقبل فى هذه المدرسة. لكنك لم تدعه يملئك بالكامل».

فسألته بصدق: «كيف لى أن أفعل هذا؟ لقد حاولت أن أطهّر حياتى بالتوبة عن خطاياى السابقة. لقد صمت وصليت، لكن لم يحدث لى شىء أبداً». فابتسم وقال: «لا شىء يمكنك فعله يا «نيكى» ببساطة اقبله فقط ».

فهززت رأسى وكنت لا أزال محتاراً .

فأخذ «دين لوباز» الكتاب مرة أخري وفتحه علي سفر الأعمال. «دعنى أقص لك حكاية شاول. كان ذاهباً إلي دمشق ليعلن حرباً علي المؤمنين، لكن الروح القدس أوقفه. بعد ثلاثة أيام كان قد عُمد بالروح القدس وبدأ يبشر.وكانت هذه المرة بسبب القوة التى دخلت فيه بوضع الأيدى».

فسألته: «هل هناك أية طريقة يمكننى أن أحصل بها علي هذه القوة؟ هل يستطيع أحد ما أن يضع يده علىّ فأعمد بالروح القدس؟»

فأجابنى «دين لوباز» قائلاً: «يمكن أن يحل عليك بهذه الطريقة. ومن الممكن أيضاً أن تحل عليك وأنت وحدك. لكن عندما سيحدث هذا لك لن تبقي كما كنت».

توقف قليلاً ونظر مباشرة فى عينى وقال: «العالم يحتاج لصوتك يا «نيكى». فهناك المئات والآلاف من الشباب فى كل أنحاء الولايات المتحدة لا يزالوا يعيشون حيث كنت أنت تعيش ويسلكون بنفس طريقة سلوكك. فهم مأسورين فى الخوف و الكراهية والخطية .هم يحتاجوا إلي صوت نبوى قوى قام من بيئتهم الشعبية ليشير علي المسيح الذى هو الطريق للخروج من هذه المأساة. فهم لن يستمعوا إلي وعاظ هذا اليوم وراء المنابر. ولن يستمعوا إلي معلمى كلية اللاهوت أو مدارس الكتاب المقدس. لن يستمعوا إلي أخصائيين اجتماعيين. لن يستمعوا إلي مبشرين مخضرمين. لن يذهبوا إلي الكنائس الكبيرة، وحتي إن ذهبوا فسيرفضوا هناك. هم يحتاجون إلي نبى خارج من نفس بيئتهم يا «نيكى». والآن سأصلى بأن تكون أنت هذا النبى. فأنت تتكلم بلغتهم. عشت فى نفس المكان الذى يعيشون فيه. أنت مثلهم. كنت تكره نفس كراهيتهم. وتخاف خوفهم. والآن قد لمس الله حياتك ودعاك من المزبلة لتدعو أنت أيضاً آخرين ليتبعوا طريق الصليب».

سادت فترة صمت طويلة. ثم قال: « «نيكى» هل تريد منى أن اصلى من أجلك لتقبل الروح القدس؟»

فكرت طويلاً ثم أجبته قائلاً: «لا فأنا أعتقد بأنه على قبوله بنفسى. على أن أطلبه وحدى لأنى سأناله وحدى. أنا أؤمن بأنه سيملئنى عندما أكون مستعداً لذلك. وأنا مستعد الآن».

نظر إلى «دين لوباز» وابتسم قائلاً: «أنت حكيم يا «نيكى». فهذه الكلمات لا يمكن إلا أن تأتى من روح الله. والوقت قد اقترب كى تتغير حياتك تماماً. وأنا سأصلى من أجلك وأنت تصلى من

أجل هذا.»

نظرت إلي الساعة التى كانت علي الحائط ، كان قد مضي علينا أربع ساعات ونحن نتكلم. فالساعة الآن الثانية صباحاً.

أمضيت الخمس ليالى التالية فى تضرع وصلاة فى الكنيسة. كان يومى ملئ بالنشاطات المدرسية، لكن فى الليل كنت أعود إلي الكنيسة لأتضرع أمام الله أن يعمدنى بالروح القدس.

لم أكن أعرف أن أصلى إلا بصوت مرتفع جداً.

كنت أركع عند المذبح وأتضرع إلي الله «عمدنى.. عمدنى.. عمدنى». لكن لم يحدث لى شيء. كانت الكنيسة كصندوق لا مخارج له، حيث شعرت بأن الصلوات كانت ترجع إلى ثانية من السماء. ليلة بعد أخري كنت أذهب إلى الكنيسة أركع عند المذبح أتضرع إلي الله وألكم الأرض بيدى وأصرخ: «عمدنى، عمدنى، من فضلك عمدنى يا رب حتي أستطيع أن أحصل علي قوة يسوع». كنت حتي أحاول أن أتكلم بلسان غير مفهوم ولكن لم تخرج كلمة من فمى.

فى ليلة الجمعة بعد أسبوع طويل من الصلوات غير المستجابة حيث كنت أمضى فى الصلاة من أربع إلي خمس ساعات كل ليلة كدت أنهار. وفى منتصف الليل تركت الكنيسة و سرت ببطء نحو المخيم حينئذ سمعت صرخة من خلف مبني الفصل. فركضت إلي هناك حيث وجدت «روبرتو»، كان بائع خردة بسيط. قلت له: « روبرتو، روبرتو، ماذا حدث؟»

رفع يده فى الهواء وصاح: «مجداً لله.. مجداً لله».

قلت له: «ما الذى حدث؟ لما أنت فرحان هكذا؟»

«لقد عمدنى الله بالروح القدس. الليلة. منذ ثوان معدودة فقط ، كنت أصلى إلي الله فلمس حياتى وملأنى بالبهجة والفرح. لا أعرف كيف أتوقف. لابد إن أذهب. لابد أن أخبر العالم كله. مجدا لله يا «نيكى»، مجداً لاسمه العظيم «ثم تركنى وركض نحو بيت الطلبة وهو يقفز فى الهواء ويصيح» «هليلويا.. مجداً لله.».

فسألته بصوت مرتفع: «أنت انتظر دقيقة يا روبرتو.. روبرتو.. من أين نلت هذه المعمودية؟ أين كنت عندما حدث ذلك؟»

التفت إلىّ وهو يلتقط أنفاسه وأشار إلي مبني الفصول. «فى الفصل. فى الفصل الكبير. كنت

راكعاً علي ركبتى فملأنى بالنار.هليلويا.. مجدا لله».

لم أنتظر لأسمع المزيد بل ركضت بسرعة نحو الفصل . قلت فى عقلى إذا كان قد لمس «روبرتو» فمن الممكن أن يكون مازال هناك، و لربما سيلمسنى أنا أيضاً. اندفعت من الباب إلي المبني ومن ثم الممر بعدها إلي الفصل الكبير. ثم توقفت عند الباب لحظة بعدها دخلت. كان هناك ظلام و هدوء تام.

دخلت ببطء إلي الغرفة المظلمة الفارغة تحسست طريقى عبر المقاعد و المكاتب حتي وصلت إلي الأمام. ركعت بجانب المكتب حيث جلست الفتاة الجميلة ذات الشعر الأسود عندما جذبت من تحتها المقعد. لم يكن لدى أى وقت لأتذكر الأحداث فى ذهنى، كل ما فعلته هو أنى وضعت يدى بطريقة تقليدية ونظرت إلي السقف.

ثم وفى صوت مرتفع صرخت قائلاً: «يا الله أنا «نيكى» .. أنا هنا الآن. عمدنى..». انتظرت بتوقع أن يحدث لى شيئاً ما ، لكن لم يحدث لى أى شيء. فقلت لنفسى: «ربما أنا أتحدث إلي الشخص الخطأ. سوف أحاول ثانية» : «يا يسوع أنا هنا أنا «نيكى كروزا» فى الفصل فى «لابونتا». أنا أنتظر أن تعمدنى بالروح القدس. اجعلنى أنال هذه المعمودية. أرجوك «كان توقعى قوى جداً حتي أنى رفعت رأسى من علي الأرض، وكان فمى مستعداً للتكلم بألسنة. وقدمى مشدودتين من تحتى ومستعدتين لأن تقفز كما فعل «روبرتو» . لكن لم يحدث شيء. لا شيء. فقط صمت تام. أصبحت الأرض أكثر صلابة حتي أن ركبتى بدأتا تؤلمانى فوقفت ببطء وسرت عائداً إلي مخيم الإقامة المظلم».

كانت رائحة نسيم الياسمين الليلى تملئ الهواء. والحشائش مبللة تحت قدمى من الندى المبكر. وفى أعماق الأعشاب سمعت صوت طواحين الهواء وهى تدور وهناك فى مكان ما، كذلك كنت اسمع صوت شاحنة ديزل تصعد بمقطورتها الوادى. اختبأ القمر خلف سحابة كبيرة مظلمة مثل امرأة مغرية تدخل غرفتها وتغلق الباب من خلفها. كانت رائحة الياسمين والحشائش تملئ الهواء فى الليل وأنوار الشوارع تضيء عبر ظلال النخيل. كنت وحدى فى جنة الله.

تسحبت بهدوء إلي غرفتى حتي شعرت بالسرير تحتى. تمددت علي سريرى ويدى تحت رأسى ناظراً عبر الظلام. كنت أسمع الأنفاس الهادئة لأولاد آخرين. «يارب » وبكيت. شعرت بدموعى الدافئة تتسرب من عينى إلي أذنى ثم إلي الوسادة. «لقد كنت أطلب منك لمدة أسبوع وقد خذلتنى. أنا لست إنسانا صالحاً. أنا أعرف لماذا لم تملئنى. أنا لست صالحاً بما يكفى. فأنا

أسلك مثل الغبى بين بقية الناس. فأنا لم أعرف بعد كيف استخدم الشوكة والسكين . أنا لا أعرف القراء ة جيداً أو حتي التفكير بسرعة كى ألحق بالجميع. كل ما أعرفه هى العصابة. أنا غريب فى هذا المكان . غريب جداً . فأنا قذر و خاطئ، آه .. أريد أن أكون إنساناً صالحاً، ولكنى لا أعرف كيف أكون بدون روحك القدوس و أنت لا تريد أن تعطينى إياه لأنى لست صالحاً كما يجب».

تذكرت حينئذ صورة غرفتى فى شارع «فت جرين» ٥٤ فبدأت أرتعد بشدة حتي أنى لم أستطع السيطرة علي نفسى. «أنا لا أريد أن أعود إلي هناك يا رب. ولا أستطيع النجاح هنا. كل هؤلاء الأولاد والفتيات أنقياء وقديسين وأنا خاطئ وقذر. أنا أعرف عندما أكون غريباً فى المكان. سوف أعود غداً».

التفت ثم نمت نوماً متقطعاً. بعد الحصة الدراسية الأولي فى اليوم التالى ذهبت إلي غرفتى لأعد حقائبى. فقد قررت أن أهرب من هذه المدرسة وأن وأعود إلي مكانى الأول. فقد كان الأمر لا رجاء منه.

فى هذا المساء جلست علي سريرى فبدأت الأفكار تتداعي لذهنى، عندها قاطعنى أحد الطلبة قائلاً: « « نيكى» أنت من كنت أريد أن أراه».

ففكرت بينى وبين نفسى: «وأنت الشخص الذى لم أكن أرغب فى رؤيته».

«نيكى» أكمل كلامه قائلاً وهو مبتهج «عندنا درس للكتاب المقدس وخدمة صغيرة فى» جوافا بولفارد«. أريدك أن تأتى معى».

هززت رأسى وقلت له: «لا ليس الليلة يا «جين» .أنا أشعر ببعض التعب وعندى بعض المذاكرة .اسأل أحد هؤلاء الأولاد الآخرين».

«لكن لا يوجد أولاد آخرين حولنا. وبجانب هذا فقد طلب منى الروح أن أسألك أن تأتى معى».

«ماذا، الروح؟ حسناً فقد قال لى الروح أن أبقي هنا لأنال قسطاً من الراحة حيث أنى كنت مشغولاً طوال الأسبوع أتكلم. والآن اذهب عنى واتركنى لأستريح».

ثم نمت علي السرير وأعطيته ظهرى.

فقال لى، «لن أتركك إلا بعد أن تأتى معى». ثم جلس علي سريرى وربع قدميه.

كنت مستاءً ... من المؤكد بأن هذا الولد مجنون. «ألم يفهم بأنى لا أريد الذهاب؟»

قلت له: «حسناً سأذهب معك. ولكن لا تفاجئ إذا ما استغرقت فى النوم أثناء الخدمة بالكنيسة».

فقال لى، «جين» وهو مبتهج ويجذب ذراعى: «هيا بنا لنذهب. فقد تأخرنا الآن وأنا على أن أعظ».

قررت أن أذهب معه ثم أتسحب بعد العظة وأهرب من البلدة. حشرت فرشاة أسنانى و بعض من احتياجاتى الأساسية فى جيبى فقد أدركت حينها بأنى أستطيع ترك بقية أغراضى. فلم تكن تساوى شيئاً علي أية حال.

وصلنا فى الساعة السابعة والنصف لحضور الخدمة. كان الكنسية مبنية من طين اللبن البنى ومزخرفة بالجبصين من الداخل. أما المقاعد فقد كانت من الخشب الخام مليئة بجمع صادق من الشعب الأسبانى البسيط. فكرت: «علي الأقل أنا الآن بين جمع بسيط وصالح. وبالرغم من ذلك فهؤلاء الناس هم أفضل منى.علي الأقل هم هنا لأنهم يريدون أن يكونوا فى هذا المكان. أما أنا فهنا لأنى أجبرت علي ذلك».

وعظ «جين» لمدة خمسة عشر دقيقة ثم دعا الناس للتقدم إلي المذبح. كنت جالساً فى آخر مقعد بجانب رجل كانت رائحته عبارة عن عرق مع قذارة. وملابسه رثة حيث كان قد أتي من إحدي المزارع و لم يغتسل بعد. عندما صلي «جين» بدأ الرجل الذى بجانبى يبكى. وظل يهمس قائلا: «يسوع.. يسوع.. يسوع.. شكراً لك يا يسوع.. آه .. شكراً لك يا يسوع».

تحرك فى نفسى شىء ما . وكأن واحداً قد أدار زر الكهرباء الخاص بى ببطء أولاً. ثم بدأ يزداد . ظل المزارع يقول بجانبى: «شكراً لك يا يسوع، شكراً لك».

فبكيت وقلت: «آه يا رب... آه يا يسوع... يا يسوع». كانت أسنانى تتخبط فى بعضها البعض ولم أستطع السيطرة عليها، لكن السد كان أخيراً قد انفجر فركضت عبر الممر حتي وصلت إلي الأمام وأنا أتعثر، وقعت أمام المذبح وظللت أتلوى وأبكى دون أن أستطيع السيطرة علي نفسى.

شعرت بيد «جين» علي رأسى. «نيكى» كنت لا أستطيع أن أجيبه كثرة بكائى. «نيكى» الله لم

يكن ليدعك أبداً تهرب الليلة. لقد ملأنى روحه القدوس منذ ساعة مضت وأرسلنى إلي بيت الطلبة لآتي بك إلي هذا الاجتماع. كنت أعلم بأنك كنت تنوى الهروب. و هو أرسلنى لأمنعك».

كيف علمت بهذا الأمر؟ لا أحد سوي الله هو الذى كان يعرف».

«فلقد أرسلنى الله إليك يا «نيكى». وكل الأولاد والمدرسين فى المدرسة كانوا يصلون من أجلك اليوم. نحن نشعر بأن الله قد وضع يده عليك بطريقة عجيبة وغريبة. و بأنه سيستخدمك بقوة عظيمة. نحن نحبك يا «نيكى». نحن نحبك. نحن نحبك».

كانت الدموع تنهمر من عينى بغزارة. كنت أريد أن أتكلم، لكنى لم أستطع قول شئء. شعرت به وهو قادم يأتى إلى من علي المذبح أيضاً وهو يضع يده حول كتفى ويركع بجانبى. ويقول: «هل أستطيع أن أصلى لأجلك يا «نيكى»؟ هل أصلى كى يعمدك المسيح بروحه القدوس؟»

حاولت أن أجيبه لكنى كنت ازداد بكاءً. أومأت له برأسى وأخرجت منه بعض الكلمات المفككة. لكنه ترجمها لى بالتالى بإجابات واضحة وهو يصلى.

لم أكن مدركا لمعني صلاته. لم أكن أعرف حتي إن كان قد صلى لى أم لا. لكنى فتحت فجأة فخرجت منه أجمل الأصوات التى لم أسمعها من قبل. شعرت وكأنى أغسل من الداخل كان جسدى يتطهر من أسفل قدمى حتي رأسى من فوق. كانت اللغة التى أسبح بها الله ليست الإنجليزية أو حتي الأسبانية. كانت لسان غير معروف. لم أكن أعى ما أقوله، لكنى كنت مدركاً بأنى أسبح الله القدوس بكلمات لم أنطق بها من قبل.

لم أشعر بالوقت وصلابة الأرض التى كنت راكعاً عليها لم أشعر بشيء. كنت أسبح الله بالطريقة التى كنت أحلم دائماً أن أسبحه بها ولم أستطع التوقف. شعرت بعد دقائق بـ «جين» وهو يهز كتفى ويقول: «نيكى لقد حان الوقت لنرجع إلي البيت. يجب أن نعود إلي المدرسة».

كان مصراً علي العودة، وقال: « «نيكى» يجب أن نذهب. يمكنك أن تكمل ما قد بدأته بعد أن نعود، لكن علينا أن نعود الآن إلي المدرسة».

رفعت رأسى فلم أجد أحداً بالكنيسة، كانت فارغة لم يكن موجودا فيها إلا نحن الاثنين. «أين الجميع؟»

«يا رجل الساعة الحادية عشر مساءً، لقد عادوا من ساعة إلي منازلهم».

«هل تعنى بأنى كنت أصلى هنا لمدة ساعتين؟ «أنا لا أصدق»».

«أشكرك يا يسوع أشكرك.. هكذا صحت فيه وركضت إلي السيارة».

أنزلنى «جين» أمام البيت ثم قاد عائداً إلي منزله. ركضت للداخل وأضأت الأنوار. كنت أرنم وأقول: «قدوس، قدوس، قدوس، يا الله». بأعلي صوتى.

فبدءوا الناس من حولى يصيحون: «ماذا يحدث هنا؟ ماذا بك؟ أطفأ الأنوار.هل أنت مجنون أم ماذا؟ أطفأ الأنوار».

فصحت فيهم «اسكتوا فالليلة هى يوم عيد بالنسبة لى.أنتم لا تعلمون ما قد حدث لى، لكنى أنا أعلم وسأغنى... أشرقى يا شمس، أشرقى فى نفسى اليوم...» فجأة وجدت مجموعة من قذائف الوسادات تلقي على عبر الغرفة ومن كل اتجاه وأصوات تصيح . «أطفئ النور» لكنى كنت أعلم بأن النور مضاء فى نفسى ولا يمكن أن يطفأ أبداً. ولسوف يضاء إلي الأبد».

فى هذه الليلة حلمت للمرة الأولي منذ أن خلصت. وفى الحلم وقفت علي تل بالقرب من «لاس بيادرس» فى «برتوريكان» حيث كنت معتاداً أن أقف هناك من قبل فى الكوابيس التى كانت تراودنى سابقاً. نظرت إلي السماء ورأيت شكل طائرٍ مألوفٍ بالنسبة لى. ارتعدت فى نومى وحاولت أن أوقظ نفسى. قائلاً: «يا رب لا تجعلنى أرجع ثانية إلي كوابيسى. من فضلك». لكن الطائر اقترب منى أكثر فأكثر. لكن هذه المرة لم يكن طائراً بلا أقدام أو حتي حمامة. ولكنه كان يمامٌ يقف برقة علي رأسى. ثم تلاشي الحلم واستغرقت فى نوم عميق ومريح.

الفصل الثالث عشر
حيث تخاف أن تطأ الملائكة

كانت الأيام التالية أياماً مليئة بالفرح والنصرة. وكان أول تغيير لاحظته هو تغيير فى سلوكى. فلم أعد بهلوانا بعد الآن. كنت أركز أثناء الصلاة عندما كنت أصلى مع قائدى. فبدلاً من التظاهر بالذكاء كنت أهتم بالآخرين وخاصة تلك الفتاة التى كانت تجلس أمامى ذات العيون السوداء الجميلة.

كان اسمها «جلوريا». عندما قمت بقص شهادتى أمام الفصل جاءت إلىّ وصافحتنى بكل احترام قائلة لى: «الرب يباركك يا «نيكى». لقد كنت أصلى من أجلك.»

شعرت حينئذ بأنها إذا كانت فعلاً تصلى من أجلى فسوف أقع ميتاً. ولكنى كنت أعلم بأنها سعيدة بلمسة الله لى. كان هذا ظاهراً فى ابتسامتها الجميلة وعيناها السوداء التى تشبه النجوم المتلألئة فى منتصف الليل.

فى الأسبوع التالى استجمعت شجاعتى وطلبت منها أن تأتى معى فى الخدمة المرسلة التى كنا مسئولين عنها فى الكنيسة الصغيرة بجانب المخيم. ابتسمت لى و ظهرت غمازاتها عندما هزت رأسها بالموافقة.

فى أثناء هذه السنة حضرنا عدة خدمات فى الكنيسة معاً. فعلي الرغم من وجودنا وسط مجموعة كبيرة من الناس لكنى عرفت الكثير عنها. فقد ولدت فى أريزونا. من أب إيطالى وأم مكسيكية. انتقلوا إلي كاليفورنيا وهى فى الخامسة من عمرها حيث فتح أبواها باراً فى «أوكلاند». فى أثناء السنة النهائية لها فى المدرسة الثانوية قبلت المسيح مخلصاً شخصياً لها ثم قررت بعد ذلك أن تدرس فى مدرسة الكتاب المقدس. فاقترح عليها القس المسئول عنها «سيكستو سانشيز» أن تكتب لمعهد الكتاب المقدس لتلتحق به. فوافقوا علي طلبها ودخلت المدرسة فى خريف هذه

السنة.

عندما اقتربت السنة الدراسية من الانتهاء شعرت بأن«جلوريا» تعانى من بعض الصراعات. فقد كانت تعانى من نظام المدرسة الصارم. وفى نهاية العام قالت لى بأنها لا تعتقد أنها سوف تعود إلي المدرسة مرة أخري. خاب أملى جداً، لكنى جعلتها تعدنى بأن تكتب لى.

مكثت أول صيف لى فى «لوس أنجلوس». أخذنى إليها بعضاً من أصدقائى حيث وفروا لى مكاناً للإقامة. لكنى كنت أفتقد «جلوريا» كثيراً. وعندما بدأ العام الدراسى الجديد كنت سعيداً بأن أجد خطاباً ينتظرنى. لقد وفّت بوعدها.

قالت لى فى جزء من الخطاب عن أسبابها لترك المدرسة. «اختبارى مختلفاً عنك جداً يا «نيكى». إذ مع أن أبى وأمى كانا يديران باراً لكنهما ربانى فى جو صحى إلي حد ما. وعندما قبلت المسيح مخلص تطرفت جداً فى حياتى. تعلمت بأنها خطية أن أتبع أى من أساليب العالم. فتخلصت من كل ماكياجى ورفضت ارتداء المايوه ولم أرتدى أى مجوهرات. و كل ما كان يخصنى كان سلبياً. ولذلك عندما جئت إلي المدرسة كان الأمر أصعب بكثير. فكدت أنهار. كنت أريد أن أشاركك بهذا الأمر ولكن لم يتسني لنا وقت حتي ننفرد فيه ببعض. أتمني أن تكون قد فهمت وأن تبقي تصلى من اجلى. و لكنى لن أعود إلى المدرسة.»

مرت السنة الثانية لى بالمدرسة بسرعة. تحسنت جداً درجاتى وبدأ بعض الطلبة الآخرين يقبلونى. فُتحت لى فرص كثيرة لأعظ فى الشارع وأشهد عن عمل الله فى حياتى فى بعض من الكنائس القريبة منا.

تلقيت فى شهر إبريل رسالة من«دافيد». حيث كان لا يزال يعيش فى بنسلفانيا ، طلب فيها منى أن أعود إلي نيويورك فى هذا الصيف وأن أخدم وسط العصابات فى «بروكلين» . فقد وضع خطة بأن يستأجر شقة لى فى منطقة «كلينتون بين فولتون وجيتس» وكان قد هيأ لى الخدمة مع «ثورمان فيسون» و«لويس ديلاجدوا» فى حال جئت إلي هنا. لم يكن هناك الكثير من المال ولكنه كان سيتدبر أمر فرش الشقة وسيصرف لكل واحد منا حوالى سبعة دولارات كل أسبوع.

فى هذه الليلة بعد أن فرغت من المذاكرة ذهبت إلي مكتب «دين» وطلبت «دافيد» بالهاتف. ظل الهاتف يرن لمدة طويلة حتي رد على فى النهاية و صوته لا يزال نائماً. ثم وافق علي أن يقبل دفع الفاتورة.

«يا دافيد أهلا، أنا «نيكى» .هل انتهيت من عشائك؟»

«نيكى» هل تعلم كم الساعة الآن؟»

«بالطبع يا صديقى الساعة الآن العاشرة ليلاً.»

«نيكى» كان صوته يبدو عليه علامات السخط. «ربما هى العاشرة عندكم فى كاليفورنيا، لكنها الواحدة هنا بعد منتصف الليل وأنا و«جوين» كنا نائمين منذ ساعتين تقريباً. والآن قد أيقظت الطفل أيضاً.»

«لكن يا «دافيد» كنت أريد أن أقول لك أخباراً سعيدة. «كنت أسمع صوت الطفل و هو يبكى فى الخلفية.»

«ما هى هذه الأخبار السعيدة التى لا تستطيع أن تنتظر إلي الصباح يا «نيكى»؟»

«لن أستطيع أن انتظر يا «دافيد». فأنا سوف آتى إلي نيويورك لأعمل هناك خلال فصل الصيف. لقد أحسست بأن الله يريدنى هناك.»

«هذا عظيم يا «نيكى». هذا بالفعل خبر عظيم. أنا متحمس جداً لمجيئك. وكذلك «جوين» والطفل أيضاً. سوف أرسل لك تذكرة الطائرة. تصبح علي خير.»

ظللت مستيقظاً طوال الليل لأخطط لعودتى إلي «نيويورك».

فرحلة العودة ستساعدنى لأري كم تغيرت، وكأن حياتى كلها تبدلت وخرجت للحياة من جديد. عندما نزلنا إلي أرض المطار فى «آيدلوايلد» بـ«نيويورك» شعرت وكأن قلبى يخفق من البهجة والذكريات. لمحت ظل مبني إمبراطورية الدولة فى الأفق ثم رأيت كوبرى «بروكلين». لم أكن أدرك مدي المساحة الكبيرة لهذه الولاية إلا عندما رأيتها من فوق مئات الأميال من الطائرة. بدأ قلبى يخفق بالحب والرحمة نحو ملايين البشر هناك المأسورين فى هذه الغابة الإسفلتية لليأس والخطية. وعندما كنا نلف حول الولاية امتلأت عينى بالدموع. فقد كنت حزيناً وفرحاً فى نفس الوقت، خائفاً وقلقاً. لقد عدت إلي البيت.

قابلنى «دافيد» فى المطار فأخذنا بعض بالأحضان والبكاء دون أن نخجل ممن حولنا. اصطحبنى إلي السيارة وهو يضع يده حول كتفى ونحن نتجاذب أطراف الحديث عن حلمه الجديد.

استمعت إليه وهو يحدثنى عن خططه للمستقبل والتحدى الذى سيقابله مع الشباب فى سن

المراهقة. لكنه لاحظ بأن هناك شيئاً ما يزعجنى، فتوقف عن الحديث ليسألنى ماذا بى.

«دافيد» هل سمعت أية أخبار عن «إسرائيل» ؟ أين هو؟ هل هو بخير؟»

رفع دافيد رأسه ونظر إلىّ بكآبة و قال لى: «لا يا «نيكى» الأمور ليست علي ما يرام. لم أذكر لك أى شيء عن هذا الأمر فى خطاباتى، لأنى كنت أخشي أن تُحبط. لكن أظن بأنه من الأفضل أن أقول لك الآن حتي تتحد معى فى الصلاة.»

جلسنا فى السيارة حيث كانت واقفة فى أماكن انتظار السيارات بالمطار عندما بدأ دافيد يقص لى حكاية «إسرائيل».

«إسرائيل» فى السجن الآن يا «نيكى». لقد تورط فى جريمة قتل فى ديسمبر الماضى بعد أنهيت أنت المدرسة، دخل هو السجن فى هذه الأثناء. وأنا لم أسمع هذه الأخبار حتي سجن بالفعل وأرسلوه إلي «الميرا». فذهبت إلي «نيويورك» لأري والدته. التى بكت كثيراً عندما رأتنى وقالت لى بأن حياته كانت قد تغيرت جداً عندما قبل المسيح، ولكن بعد أن أصيب بالإحباط عاد ثانية إلي العصابة.»

«ما هو هذا الإحباط؟»

«ألا تعرف؟»

«هل تعنى بسبب تعرضى للطعن بالمطواة؟ لقد قال لى يومها بأنه سينال من الولد الذى فعل هذا.»

«لا، كان الأمر أعمق من هذا. قالت لى أمه بأنه فى يوم خروجك من المستشفي جاءه السيد «ديلاجدو» وطلب منه أن يقابلكم فى «الميرا» فى اليوم التالى. وقد كان «إسرائيل» متحمساً جداً وقرر أن يذهب معكم. فأيقظته أمه فى الصباح الباكر الساعة الرابعة و كوت ملابسه ورتبت له حقيبة السفر. وذهب فعلاً إلي «فلاتبوش» ثم انتظر هناك من الساعة السادسة إلي التاسعة صباحاً. وبطريقة ما لم يراكم. فعاد إلي المنزل وألقي بحقيبته علي الأرض وقال لأمه بأنّ كل المؤمنين هم حفنة مزيفة. وفى تلك الليلة عاد إلي العصابة.»

شعرت بالدموع وهى تملأ عينى و أنا التفت نحو «دافيد» ، ثم قلت: «بحثنا عنه فى كل مكان. طلبت من السيد «ديلاجدو» أن ينتظر قليلاً ، لكنه أصر علي الذهاب. آه يا «دافيد» لو كنت أعلم فقط. ربما لو كنا بحثنا عنه بجدية أكثر ولفترة أطول لكان من الممكن أن يكون معى الآن

فى المدرسة» .

أكمل «دافيد» حديثه وهو يمسح أنفه: «بعد أن عاد ثانية إلي العصابة قام هو و أربعة آخرين من الأولاد بإطلاق النار علي صبى من شارع «انجيلس» الشمالى أمام «بينى أركاد» . وقد مات فى الحين. أدين «إسرائيل» بقتله عمداً وأرسل إلي السجن لمدة خمس سنوات فى ولاية الأحداث. وهو هناك الآن.»

سادت فترة صمت طويلة، بعدها سألت «دافيد» إن كان قد سمع عن أية أخبار أو حتي رآه منذ أن أرسل إلي السجن.

«لقد كتبت له ولكنى اكتشفت بأنه لم يكن يستطيع الكتابة لى. فقد كان مسموحاً له بمراسلة عائلته فقط. حتي مناهجه الدراسية كانت تُرسل له عن طريق مسئولى السجن. لقد صليت لأجله طوال الصيف الماضى ثم بعد ذلك ذهبت فى رحلة إلي «الميرا» لأراه. كانوا يستعدون لنقله إلي مخيم عمل فى «كومستاك» ولم يدعونى أن أراه إلا لبضعة دقائق فقط. كان فى حالة جيدة علي ما أظن ولكنه مازالت لديه ثلاث سنوات أخري ليمضيها بالعمل فى السجن.»

جلسنا فى صمت لمدة طويلة ثم قلت له أخيراً: «أنا اعتقد بأننا يجب أن نصلى من أجل «إسرائيل» .»

انحني «دافيد» بعد ذلك علي عجلة القيادة وبدأ يصلى بصوت عال أما أنا فقد التفت وركعت علي أرض السيارة سانداً يدى علي المقعد ثم بدأت أصلى من أجله. أمضينا تقريباً ربع ساعة نصلى من أجله فى مكان انتظار السيارات. وعندما انتهينا قال دافيد لى: «لقد فعلنا كل شيء من أجل «إسرائيل» الآن يا «نيكى» لكن هناك مدينة مليئة بأناس آخرين أيضاً مثله من الممكن أن نربحهم للمسيح .فهل أنت مستعد للعمل الآن؟»

فقلت له: «هيا بنا. ولكنى كنت أعلم بأنه لن تكتمل خدمتى إلا عندما يطلق سراح «إسرائيل» . قاد «دافيد» السيارة إلي وسط الزحام فى المدينة. كنت متحمساً جداً لخدمة الله. فقلت له: «أريد أن أزور العصابة غدا، لأنى أريد أن أكلمهم عن المسيح» .

انطلق دافيد بالسيارة فى الطريق السريع حتي توقف فى الإشارة. نظر إلى ثم قال: «لو كنت مكانك لكنت انتظرت قليلاً بشأن هذا الأمر يا «نيكى» . فلقد حدثت أمور كثيرة منذ غيابك هنا. هل تتذكر عندما أصبحت مؤمناً؟ كادوا يقتلونك. فلو كنت مكانك فسأكون أكثر حذراً. هناك

الكثير من الأمور يجب إنجازها دون أن نتشابك مع عصابة «المومومس» الآن. الأغبياء فقط هم الذين يطئون المكان الذى تخاف الملائكة أن تطأه بأقدامها.»

تغير لون الإشارة فانطلقنا بالسيارة مرة ثانية فسبقنا أتوبيساً لأننا كنا مسرعين. قلت له:«من الممكن أن أكون غبياً يا «دافيد»، لكن هذه المرة سأكون غبياً من أجل يسوع المسيح. فهو سيأتى معى وسيحمينى. فالملائكة من الممكن أن تخاف من أن تطأ منطقة نفوذ عصابة «المومومس» ولكنى سأذهب مع المسيح.»

ابتسم «دافيد» ثم هز رأسه راضياً وهو يلف من منطقة «كلينتون». توقف أمام مبنيّ سكنى و قال لى: «هو الذى سيقودك لست أنا. اعمل ما سيقوله لك وسوف تشهد دائماً عن النصرة. تعال أريدك أن تقابل «ثورمان» و «لويس»».

كان اليوم التالى يوماً كبيراً مليئاً بالأحداث. فقد مكثت معظم الليل أصلى. ارتديت بذلتى وربطة عنقى ووضعت كتابى المقدس الجديد تحت ذراعى ثم ذهبت إلي مشروع «فت جرين». كنت فى طريقى لمقابلة «المومومس».

لم تتغير المدينة كثيراً. فقط بعض المبانى القديمة كانت قد أزيلت ولكن كل شئ آخر كان كما هو منذ أن تركته من حوالى سنتين. لكنى كنت أنا المختلف. فقد صرت بديناً بعض الشىء وحلقت شعرى، ولكن كان الاختلاف الأكبر هو داخل نفسى. كنت «نيكى» المولود من جديد.

عندما عبرت حديقة واشنطن بدأ قلبى يخفق بشدة. كنت أبحث عن «المومومس» ومع ذلك كنت قلقاً للمرة الأولي عن كيفية مقابلتى لهم وما الذى سيقولونه عنى عندما يرونى. كيف سأعرّف نفسى؟ لم أكن خائفاً، لكنى كنت أريد الحكمة التى بها أستطيع أن أتعامل مع هذا الموقف لمجد الله.

عندما وصلت إلي الحديقة وجدت أحد أعضاء العصابة مستندا علي حائط مبني سكنى. فتذكرت كلمات دافيد لى: «الأغبياء فقط هم الذين يطئون فى المكان الذى تخاف فيه الملائكة أن تطأ.» ولكنى صليت للروح القدس بصوت عال أن يأتى معى ويقودنى ويذهب معى لمقابلة العصابة.

كان هناك حوالى ثلاثة عشر ولد وسط هذا الجمع. رأيت «ويلى كورتز» فربت علي ظهره من الخلف وقلت: ««ويلى» يا حبيبى...»

فالتفت إلىّ وحدق فىّ وقال: «لا تقل لى أنك «نيكى» ؟»

«نعم يا رجل أنا هو«نيكى».»

«يا رجل أنت تشبه القديسين أو الملائكة.»

«انتظر دقيقة يا حبيبى. لقد جئت لتوى من «كاليفورنيا». وقد كانت الأمور تسير علي نحو جيد بالنسبة لى. فأنا الآن مؤمن وأذهب إلي المدرسة.»

جذبنى من كتفى وظل يلفنى أمامه عدة مرات وهو ينظر إلي ملابسى وهيئتى الجديدة ثم قال لى: ««نيكى» يا رجل أنا لا أصدق نفسى.لا أصدق.»

ثم التفت بعد ذلك إلي بقية أعضاء العصابة الذين كانوا يحملقون فىّ بشوق لمعرفة ما يحدث ثم قال: «يا أولاد اخلعوا عنكم قبعاتكم. لقد كان هذا المهرج رئيسنا هنا. وكان له تاريخ مع عصابة «المومس». لقد كان أقسي وأقوى شخص فيهم كلهم.»

خلع الأولاد القبعات عنهم. كان «ويلى» هو الوحيد الذى عرفته فى المجموعة كلها. فقد كان معظمهم أصغر سناً. لكنهم كانوا منبهرين بى جداً. فلقد سمعوا الكثير عنى فالتفوا حولى وهم يحاولون لمسى.

وضعت يدى حول كتف «ويلى» وابتسمت له: « «ويلى»، لنتمشي قليلا فى الحديقة. أريد أن أتكلم معك.»

مشينا بعيداً عن المجموعة إلي الحديقة. كان ويلى يسير ببطء بجانبى ويداه فى جيبه وهو يصنع صوت بحذائه علي الأرض الصلبة. فكسرت حاجز الصمت و قلت: «ويلى، أريد أن أخبرك عن عمل المسيح فى حياتى.»

لم يرفع «ويلى» رأسه، لكنه ظل يسير وأنا أتكلم. شاركته عن شعورى أثناء وجودى بالعصابة لمدة سنتين مضت وكيف سلمت حياتى إلي المسيح. شاركت معه أيضاً عن الطريقة التى قادنى بها الله خارج برية الغابة الحقيقية هذه إلي مكان أصبحت فيه الآن إنساناً مبدعاً بحق.

قاطعنى «ويلى» بصوت مرتجف: « «نيكى»، هل لك أن تبتعد عنى؟ أنت تجعلنى أشعر بأنى إنسان فاسد. فما أن تتكلم حتي أشعر بشىء ما يتحرك فى صدرى. هناك شىء غيّر حياتك. فأنت لم تعد أنت.. «نيكى» الذى اعتدت أن أعرفه من قبل. أنت تخيفنى الآن.»

«أنت علي حق يا ويلى هناك شئ ما قد غير حياتى. دم يسوع المسيح غيرنى و طهرنى.أنا إنسان مختلف الآن. لم أعد خائفاً. صرت أحب الآن. وأنا أحبك يا ويلى. وأريد أن أقول لك بأن المسيح يحبك أيضاً.»

ذهبنا إلي مقعد حتي يجلس «ويلى». جلس وظل ينظر إلى قائلاً: «نيكى» حدثنى أكثر عن الله.»

لأول مرة فى حياتى أدركت أهمية الحديث عن المسيح لأصدقائى. كنت أري الوحدة التى كان يعانى منها فى عينيه، كذلك الإهمال والخوف. فقد كنت مثله منذ سنتين مضت. ولكنى الآن أريد أن أشاركه عن الطريق للخروج من هذا المأزق.

جلست بجانبه وفتحت كتابى المقدس علي الفقرات التى علّمت تحتها بالخط الأحمر. قرأت الفقرات التى تخص خطية الإنسان. وعندما كنت أقرأ «لأن أجرة الخطية هى موت»، نظر إلىّ ويلى والرعب يملئ وجهه.

«ماذا تعنى يا «نيكى»؟ فإن كنت خاطئاً فسيقتلنى الله علي خطيتى، إذاً ما عساى أن افعل؟ أنا أعنى ما أقوله يا رجل على أن أفعل شيئاً. ما الذى يجب أن أفعله؟» كانت عيناه مليئة بالترقب والشوق وهو يقفز ويقف علي قدميه.

«اجلس يا «ويلى» فنحن لم ننته بعد. دعنى أقرا لك بقية الفقرة. الله يحبك. ولا يريدك أن تذهب إلي الجحيم. ولأنه يحبك كثيراً لذلك أرسل ابنه الوحيد ليدفع ثمن خطيتك. لقد أرسل يسوع المسيح ليموت من أجلك حتي تستطيع أنت أن تنال حياة أبدية. فإذا ما قبلته يا «ويلى» واعترفت به فسيخلصك.»

جلس «ويلى» ثانية علي المقعد ونظر إلى نظرة مليئة باليأس. جلست أنظر إليه و عيناى تملئها الدموع. أغلقتهما وبدأت أصلى لكن الدموع جرت من بين جفونى علي وجهى. وعندما عدت وفتحت عينى مرة أخري كان ويلى يبكى أيضاً.

«هل تعرف يا ويلى معني التوبة؟»

هز ويلى رأسه بالرفض.

«معناها أن تتغير. أن تستدير وأن تعود وترجع مرة ثانية. «ويلى»، إذا لم تمانع أريد أن أطلب منك شيئاً، من الممكن أن يجرح كبريائك. لكنى أريد أن أصلى لأجلك. فهل تركع معى؟»

لم تكن لدى أدني فكرة بأن «ويلى» قد يوافق علي أن يركع معى. فالناس كانوا يسيرون ذهاباً وإياباً من أمام مقعدنا علي الرصيف، لكن وبدون أدني تردد ركع «ويلى» علي الرصيف وحني رأسه ليصلى. ثم نظر إلى وقال: «إذا كان الله قد غيرك هكذا يا «نيكى» فهو من الممكن أن يغيرنى أنا أيضاً. هل تصلى من أجلى الآن؟»

وضعت يدى علي رأس «ويلى» وبدأت أصلى. فشعرت بجسده يرتجف تحت يدى وسمعته يبكى بحرقة. بدأ يصلى. كان كل منا يصلى بصوت مرتفع. بدأت أصلى وأنا أبكى وأصرخ لله، «يا رب ألمس حياة «ويلى». ألمس حياة صديقى «ويلى». خلصه. أجعله قائداً ليرشد آخرين إليك أيضاً.»

كان «ويلى» يصلى بصوت مرتجف ومرتفع و يقول: «يا يسوع، يا يسوع، ساعدنى، ساعدنى» كان يحاول أن يأخذ أنفاسه أثناء وهو يصلى ويصرخ: «آه يا يسوع خلصنى.»

ظللنا فى الحديقة بقية اليوم.عند الغروب عاد «ويلى» إلي منزله بعد أن وعدنى بأن يأتى ببقية العصابة إلي منزلى غداً ليلاً. وقفت ونظرت له وهو يسير عائداً فى غروب الشمس. لقد لاحظت التغيير من ظهره. فهناك شيئاً ما خرج منى لحياة «ويلى كورتز». لم أكن أصدق بأنى عدت فعلاً إلي منطقة «كلينتون» فى هذه الليلة، ولكنى كنت أطفر فرحاً وأسبح الله بكل قوتى. تذكرت عندما ركضت عبر الوادى الكبير الذى كان أمام منزلى فى «برتوريكان» وأنا أفرد يدىّ وأحاول الطيران كطائر. الليلة رفعت رأسى و تنفست بعمق. أخيراً صرت حراً كطائر.

مكثت بقية الصيف مع العصابة أبشر بالإنجيل وأعمل بعض المشورة الشخصية. بدأت أصوم من الساعة السادسة صباحاً يوم الأربعاء حتي الساعة السادسة صباحاً من يوم الخميس.

أدركت بأنه عندما كنت أصوم وأصلى كان الله يصنع أموراً عظيمة فى حياتى.

كنت أيضاً آنذاك أراسل «جلوريا» فبدأت تظهر فى خطاباتها نبرة حميمة فى علاقتنا وكأنها بدأت تستمتع بالكتابة لى. ولم تكن قد خططت بعد للسنة القادمة فى حياتها فمكثت فترة أصلى لأجلها.

بعد حوالى أسبوعين من عودتى إلي المدرسة جاءنى أحد رجال الأعمال المؤمنين الذى كان ضمن المجلس الاستشارى الخاص «بدافيد» وترك لى شيكاً. ثم قال لى بأن أعضاء المجلس قرروا إعطائى هذا المبلغ الإضافى كمكافأة علي العمل الذى قمت به، واقترحوا على بأن أشترى به

تذكرة طائرة إلي «برتوريكان» لزيارة عائلتى، قبل عودتى مرة ثانية إلي المدرسة. كانت هذه هى أكثر الأمور إثارة فى حياتى.

وهكذا وصلت إلي «سان جوان» بعد ظهيرة يوم الاثنين ثم ركبت أتوبيساً لينقلنى إلي «لاس بيادرس».

بدأ يحل الظلام عندما نزلت من الأتوبيس واتجهت أسير نحو القرية فى طريقى المعتاد الذى كان يقودنى إلي التل الأخضر ثم إلي المنزل ذا الواجهة البيضاء فوق الهضبة الصغيرة.

تدفقت إلي قلبى وذهنى مئات الذكريات. فجأة صاح أحدهم: إنه «نيكى» إنه «نيكى كروز» ثم رأيت رجلاً يركض نحوى علي التل ليخبر أمى وأبى بأنى قد عدت إلي المنزل. بعد ثوان وجدت الباب يفتح بقوة وأربعة من أخوتى الأولاد الصغار يركضون نحوى علي التل. كنت لم أرهم منذ حوالى خمس سنوات، ولكنى أدركت بأنهم أشقائى الأولاد. كانت خلفهم امرأة تعدو ورائهم فتتطاير «تنورتها» خلفها، فعرفت بأنها أمى تلك التى كانت تجرى خلفهم. ألقيت بحقيبتى وركضت عبر التل لمقابلتهم. تعانقنا فى شوق ودموع وأحضان وقبلات. التف الأولاد من حولى وهم يدفعونى علي الأرض ليلعبوا معى. كانت أمى تجلس علي ركبتيها تعانقنى وتقبلنى بشوق.

بعد أن وقفت وجدت اثنين من أشقائى يحملون لى حقيبتى عائدين بها إلي المنزل. نظرت إلي منزلنا وهناك رأيت رجلاً طويلاً يقف باستقامة هيئته العسكرية أمام باب المنزل، كان أبى ينظر إلى. سرت نحوه ببطء. لكنه ظل واقفاً فى مكانه يراقبنى. ثم بدأت أركض نحوه فبدأ هو أيضاً ينزل درجات السلم ويسير نحوى حتي ركض هو الآخر وقابلنى أمام المنزل. ثم احتضنى بين ذراعيه الكبيرتين وحملنى من علي الأرض قريباً من حضنه و قال لى: «مرحباً بك يا حبيبى يا طائرى الصغير مرحباً بك فى بيتك.»

كان فرانك أخى قد كتب لأمى وأبى وأخبرهم كم تغيرت حياتى، كذلك بأنى عدت إلي المدرسة بكاليفورنيا مرة ثانية. وهكذا شاعت أخبارى سريعاً فى البلدة بأنى صرت مؤمناً مسيحياً، فجاء الكثير من شعب الكنيسة فى «لاس بيادرس» إلي منزلى فى هذه الليلة ليرونى.

قالوا لي بأن آخرين كانوا يريدون المجىء لكنهم خافوا من الحضور إلي منزل السحرة. فهم يعتقدون بأن أبيك يستطيع أن يتكلم مع الموتي، لذا كانوا يخافون المجىء إلي منزلك. بعد ذلك سألونى رأيى فى إقامة اجتماعات فى بيوت بعض المؤمنين فقد كانوا يريدون دعوتى إلي هناك حتي أقص عليهم شهادتى وأعظ لهم. لكنى قلت لهم بأنى سأجهز هذه العظة لكن فى بيتى.

نظروا إلي بعضهم البعض ثم إلي قائدهم وقالوا: «لكن يا «نيكى» كثير ممن نعرفهم يخافون المجيء إلي هذه المنزل الملىء بالأرواح الشريرة. فهم يخافون من أبيك.»

قلت لهم بأنى سأتولي كل هذه الأمور ولكن غداً مساءاً سأعقد الاجتماع هنا فى منزلى.

فى ذلك المساء عندما علم أبى ما كنت قد خططت له اعترض بشدة قائلاً: «لن اقبل هذا. لن تكون هناك أية خدمات مسيحية فى هذا البيت. هؤلاء الناس سيدمرون وظيفتى هنا. إذا أقمنا أى خدمة مسيحية هنا فالآخرين لن يأتوا إلى أبداً. لذا سيدمر هذا الأمر سمعتى كروحانى. أنا أرفض بشدة.»

لكن أمى تناقشت معه قائلة: «ألا تري كم غير الله حياة ابنك؟ لابد بأن هناك شيئاً ما فى هذا الأمر. فآخر مرة رأيته فيها كان شبيهاً بالحيوان. والآن هو واعظ مسيحى. لا سنعمل هذه الخدمة عندنا هنا فى المنزل وستحضرها أنت أيضاً.»

كانت أمى قليلاً ما تعارضه، لكنها كانت تعلم تماماً بأنها إن بدأت معه فى نقاش ما فستأخذه لصفها، وقد ربحته هذه المرة لصفها. فى الليلة التالية امتلئ البيت بالناس من كل البلدة. جاء أيضا بعض الوعاظ من بلدان أخري مجاورة لنا لحضور الخدمة. كان الجو حاراً ورطباً جداً عندما وقفت فى الأمام وبدأت أشاركهم اختبارى. دخلت فى تفاصيل كثيرة عن الكيفية التى كان الشيطان قد قيدنى فيها بقوة. عن المسيح الذى حررنى بقوته.

كان الناس يعبرون عن أنفسهم أثناء حديثى ويدمدمون مع بعضهم البعض بالموافقة حيناً وبالصراخ والتصفيق بفرح فى أحيان أخري ، وخاصة عندما ابدأ أشرح التفاصيل المختلفة لحياتى.

فى نهاية الخدمة طلبت منهم أن يحنوا رؤوسهم للصلاة. ثم سألت كل من يريد أن يقبل المسيح مخلصاً شخصياً لحياته أن يتقدم إلي الأمام ويركع، ثم بعد ذلك أغمضت عينى و صليت بصمت.

كان هناك حركة وكنت أشعر بأناس يتقدمون للأمام. كنت أسمعهم وهم يبكون أمامى. بقيت فى مكانى وعينى مغمضة ورأسى نحو السماء. كنت أشعر بأنفاسهم علي وجهى وظهرى والبعض منهم كان راكعاً بجانب رجلى. كنت أتصبب عرقاً من كثرة الحرارة التى كنت أعظ بها. ولكنى كنت أشعر بالله وهو يعمل من حولى أثناء صلاتى.

ثم سمعت امرأة أمامى تصلى. كنت أعرف هذا الصوت ففتحت عينى وأنا فرحان جداً وغير مصدق ما يحدث. كانت هناك تركع أمامى ووجهها بين ركبتيها تبكى، لقد كانت أمى واثنان من أشقائى الصغار. وقعت علي الأرض أمامها ووضعت ذراعى حولها وهى تبكى بحرقة.

«آه يا «نيكى» يا ابنى يا ابنى. أنا أيضا أؤمن به. أريده أن يكون سيداً علي حياتى. لقد سئمت من الأرواح الشريرة والشياطين وأريد أن يخلصنى المسيح.» ثم بدأت تصلى بعد ذلك استمعت إلي نفس الصوت الذى أرسلنى مرة إلي غرفة نومى، ثم بعد ذلك إلي قبو المنزل فى بكاء هستيرى ملىء بالكراهية. لكن الآن، وهو يصرخ إلي الله طالباً الغفران والخلاص، لقد هزتنى بكائها الحارق، وهى تصلى للغفران. «من فضلك يا الله اغفر لى لأنى خذلت ابنى. اغفر لى لأنى طردته بعيداً عن المنزل. اغفر لى خطيئتى لأنى لم أؤمن بك. ولكن الآن أنا أؤمن. أنا الآن أؤمن بك. خلصنى يا الله خلصنى يا الله من فضلك.»

ففتحت ذراعى وأخذت أشقائى الصغار فى حضنى كان واحداً فى الخامسة عشر من عمره والآخر فى السادسة عشر واحتضنا بعضا علي الأرض نصلى و نسبح الله.

بعد ذلك وقفت ونظرت إلي الجمع. فقد جاء أناس آخرين وركعوا علي الأرض يصلون و يبكون. وضعت يدى علي واحد تلو الآخر وأنا أصلى من أجله. وأخيراً وقفت و نظرت إلي آخر الحجرة . فهناك كان يقف الرجل ذا الهيئة العسكرية مستنداً علي الحائط بطوله الفارع ورأسه المنحنية. نظرنا إلي بعضنا البعض لمدة طويلة، كان ذقنه يرتجف بطريقة ظاهرة. ثم امتلأت عيناه بالدموع ، لكنه استدار وسار إلي خارج الغرفة.

لم يعلن أبى عن إيمانه بوضوح. لكن حياته اختلفت من الآن وصاعداً. وبعد هذه الليلة لم تعد تقام فى منزلنا أية خدمات روحانية خاصة بالأرواح. عدت إلي نيويورك بعد يومين ثم قام واحد من قسوس البلدة بتعميد أمى وأخوتى الاثنين فى ماء المعمودية بعد حوالى أسبوع.

بقى لدى أقل من أسبوع قبل أن أذهب إلي «كاليفورنيا» لأنهى السنة الدراسية الأخيرة لى فى المدرسة. فى الليلة التالية، كان على أن أسافر من هناك إلي سباق الشباب فى «اجليسيا دى دويس جوان» نحو الساعة السادسة والنصف. لذلك قمنا بمجهود كبير لدعوة عصابة «المومومس». فقد أصبحت أقرب الأصدقاء «لستيف» رئيسهم الجديد الذى أخبرنى بأنه إن كنت سأذهب فسيتأكد من حضور كل العصابة للخدمة.

كنت أقف فى الردهة قبل أن تبدأ الخدمة افحص ثقوب الرصاص التى كانت هناك منذ

حوالى سنتين عندما حضرت آنذاك عصابة «الموموس» إلي هذا المكان. والآن حضر إلي هنا أكثر من خمسة وثمانون فرداً إلي الخدمة. ازدحمت الكنيسة الصغيرة بالجمع. صحت فيهم و هو يدخلون: «يا رجل، هذه منطقة نفوذ الله. اخلعوا عنكم قبعاتكم.» فأطاعونى بفرح. كان أحد الأعضاء يقف فى الزاوية البعيدة للردهة مع أحد أعضاء عصابة «الديبس». صاح قائلاً: «يا «نيكى» هل أستطيع أن أحتضن فتاتى هنا؟»

فصحت فيه قائلاً: «حسناً يا رجل، هيا احضنها لكن ممنوع القبلات أو ممارسة الجنس هنا.» فضحكت بقية العصابة ثم ذهب الجميع إلي القاعة.

فى نهاية الخدمة سألنى القس أن أشاركهم قصتى. فالتفت ونظرت إلي الأولاد. كنت عالم بأنى راحل غداً إلي «كاليفورنيا». فجأة شعرت بقشعريرة تسرى فى جسدى. إذ من الممكن أن يكون بعض هؤلاء الأولاد موتي أو فى السجن عندما أعود ثانية. فوعظت. وعظت كإنسان يحتضر، يعظ إنساناً آخر يحتضر أيضاً. نسيت كل شيء عن كبح جماح مشاعرى فوعظت بكل قلبى. كنا ماكثين فى الكنيسة منذ حوالى ساعتين لكنى وعظت فى خمسة وأربعين دقيقة أخري. لم يتحرك أحد خلالها. عندما انتهيت كانت الدموع تنهمر من عينى، فطلبت منهم أن يأتوا ليسلموا حياتهم للمسيح تجاوباً مع العظة، فخرج للأمام ثلاثة عشر ولداً حيث ركعوا أمام المذبح. آه لو كان فقط «إسرائيل» هنا.....

كان واحد من الأولاد الذين تقدموا للأمام من أقدم أصدقائى وهو«هوريكان هيكتور». فتذكرت اليوم الذى ألحقته بالعصابة والوقت الذى تشاجرنا فيه وهرب منى لأنه خاف من أن أقتله لأنه كان سرق المنبه الخاص بى. والآن كان «هوريكان» يركع أمام المذبح.

بعد انتهاء الخدمة ذهبت إلي شارع «فت جرين» مع «هوريكان». كان مستشار المعارك للعصابة. فقد كنت عاملاً مهماً فى التحاقه بالعصابة، لذلك شعرت بثقل كبير علي قلبى من أجله. سألته أين يقيم.

«أنا أقيم الآن فى شقة مهجورة.»

«يا رجل كيف، ألم تعد تعيش مع أسرتك.»

«لقد طردونى. فهم يخجلون منى جداً. هل تتذكر لقد كنت ضمن هؤلاء الأولاد الذين جاءوا فى تلك الليلة إلي«سانت نيكولاس» معك أنت و«إسرائيل». بعد عدة أسابيع سألت أسرتى أن

تذهب معى إلي الكنيسة فقبل أفرادها المسيح مخلصاً. وكنا كلنا نخدم بنشاط فى الكنيسة حيث كنت أخدم أنا السن الصغير. تركت يومها العصابة، حيث سارت الأمور معى كما سارت معك أنت «وإسرائيل». لكن الكنيسة كانت متزمتة جداً. كنت أرغب فى إقامة الحفلات من أجل الشباب الصغير، لكنهم لم يؤمنوا بالحفلات. فى النهاية أصابنى الإحباط فتركت كل شىء وذهبت.»

كانت هى نفس القصة القديمة. فقد تقابل أخري مع «المومـوس» فطلبوا منه العودة إلي العصابة كما فعلوا معى أنا أيضاً. و قالوا له: بأن المسيحيين هم مجموعة من الحثالة والجبناء والأغبياء والمتزمتين وأنّ العصابة هى المجموعة الوحيدة التى تملك الإجابة علي أسئلة كثيرة فى هذه الحياة. وهم حقاً قد بشروه لكن ليس بالمسيح بل بالعودة إلي العصابة.

ثم بعد ذلك قامت الشرطة باعتقال الكثيرين فحاولت أسرته أن تتكلم معه ثانية، لكنه كان مصمماً علي رأيه وأخيراً يأسوا منه فهددوه بتركه للمنزل إن لم يخضع لقوانينهم. فاختار أن يترك المنزل ومنذ ذلك الحين كان يقيم فى مبني مهجور وقديم.

قال لى: «أحياناً كثيرة كنت أجوع ، لكنى كنت أفضل التضور جوعاً علي العودة إلي أبى وطلبى الطعام منه. كان فعلاً إنساناً متزمتاً. وكل ما كان يفعله الذهاب إلي الكنيسة و قراءة الكتاب المقدس. كنت مثله فى وقت من الأوقات، لكنى الآن عدت إلي مكانى فى العصابة.»

وصلنا إلي شقته. كانت النوافذ كلها مغلقة، لكنه قال لى بأن هناك مكان فى الخلف يستطيع أن يدخل منه إلي المبني حيث كان يقيم وينام هناك فوق مرتبة علي الأرض.

«كيف أتيت إلي هنا فى هذه الليلة يا «هوريكان»؟» سألته وأنا متحير من أنه قد تجاوب أيضاً مع ندائى وجاء راكعاً أمام المذبح.

«لقد جئت لأنى كنت من أعماقى أريد أن أكون صالحاً. أريد أن أتبع الله. ولكنى لم أجد الإجابات الصحيحة. ففى كل مرة أعود إليه ثم ابتعد عنه كانت الأمور تزداد صعوبة. كنت أتمني أن تكون قد عدت إلي العصابة معى يا «نيكى». فمن يدرى ربما كنت حينها سأعود إلي المسيح إن كنت أنت معى هنا.»

جلسنا معا علي الرصيف وتحدثنا بقية الساعات القليلة فى النهار. سمعت الساعة تدق الرابعة بعد الظهر فى البرج. «هوريكان أنا أشعر بأن روح الله يقول لى أن أقول لك هذا. الساعة الآن

تدق الرابعة بعد الظهيرة. والوقت متأخر. لكن إن سلمت قلبك إلي المسيح فسوف يأخذه ثانية. نعم ربما الوقت متأخر. وأنت تشعر بالذنب ولكن الله قد غفر لك. فهل ستأتى ثانية إلي المسيح؟»

وضع «هيكتور» رأسه بين يديه وبدأ يبكى. لكنه ظل يرتجف ويقول: «لا أستطيع لا أستطيع. أريد أن أعود. لكنى لا أعلم إن عدت هل سأذهب إلي العصابة غداً أم لا. لا أستطيع أن أجازف بأخذ هذا القرار. إنى فقط لا أستطيع.»

فقلت له: «هيكتور لن تبقي حياً سنة أخري إن لم ترجع إلي المسيح الآن. لسوف تكون ميتاً فى هذا الوقت من السنة القادمة. سوف يقتلونك.» نطق قلبى بهذه الكلمات المتدفقة التى لم تكن منى ولكنها كانت كلمات نبوية خاصة به.

هز «هيكتور» رأسه قائلاً: «فليكن هذا يا «نيكى» إن حدث، لن أستطع أن أفعل شيئاً حيال ذلك».

كنا جالسين علي الرصيف فى منطقة «لافاييت». فسألته إن كنت أستطيع أن أصلى لأجله. فابتعد بكتفه وقال لى: «لن يفيد هذا الأمر، لن ينفع يا «نيكى». أنا أعلم تماماً ما أقوله جيداً.»

وقفت فى النفق الصغير، وضعت يدى علي رأسه وصليت إلي الله كى يلين قلبه القاسى حتي يتمكن من العودة إلي المسيح ثانية. وعندما انتهيت تصافحت معه و قلت :«هوريكان أتمني أن أراك عندما أعود. لكن عندى شعور قوى بأنك إن لم ترجع الآن للمسيح فلن أراك ثانية.»

ثم بعد ظهر اليوم التالى رحلت إلي كاليفورنيا. و لم أكن أعرف حينها كم كانت نبوئتى صادقة فعلاً.

الفصل الرابع عشر

جلـوريـا

وجودى فى نيويورك فى ذلك الصيف، كان قد غير حياتى بالكامل غير فى طريقة تفكيرى وفى وجهة نظرى. عدت إلي كاليفورنيا وأنا عاقد العزم علي الوعظ. لكنى لم أكتشف البركة الحقيقية إلا عندما عدت إلي المدرسة فى «لابونتا». فقد عادت «جلوريا» إلي المدرسة. ولم أكن أدرك حتي رأيتها للمرة الثانية مدي افتقادى لها.

لكن الوضع فى المدرسة كان لا يزال مستحيلاً. كان كل شيء وكأنه معد ليفصلنا عن بعضنا البعض. كانت القوانين صارمة كما كانت فى السنتين الماضيتين عندما واجهنا معاً نفس الاحباطات. كان الحديث علي المنضدة محدوداً حيث اقتصر فقط علي: «هل من الممكن أن تناولنى الملح من فضلك». فقد كان الأساتذة يراقبوننا طوال الوقت ونحن نتحرك فى المخيم. مع أنى كنت أكره فترات العمل ولكنى تطوعت لغسل المزيد من الأطباق حتي أستطيع أن أكون قريبا من «جلوريا». كان المطبخ بكل ضوضائه لا يصلح لأن يكون مكاناً خلوياً لنا ولكنى اعتقدت بأننا إن استطعنا أن نتجاذب بعض أطراف الحديث أثناء غسلنا للأطباق فى الحوض فهذا أفضل من لا شيء. كنت أضع يدى داخل الماء الدافئ والصابون لأغسل الأطباق ومن ثم كانت «جلوريا» تشطف وتنشف الأطباق.

عندما مضت عدة شهور اكتشفت كم كنت واقعاً فى حبها. ظلت درجاتى تتحسن وانفتحت شهيتى للطعام كثيراً، ربما بسبب كثرة التمارين الذى كنت أمارسها أثناء تطوعى لغسل الأطباق. ولكنى كنت محبطاً فأنا لم أستطع التعبير عن حبى لها. وفى كل مرة كنا نختلى فيها ببعضنا البعض كان دائماً هناك ما يقاطعنا. حاولت مرة دخول الفصل مبكراً ولكن لسوء الحظ كان بعض من الطلبة قد بدأوا يتدفقون إلي الفصل فى نفس الوقت الذى كنت سأفتح فيه الموضوع بجدية معها. كاد الإحباط أن يقودنى إلي الجنون. حتي مع أنى من أصل أسبانى لكنى وجدت بأنه من الصعوبة العمل فى جو رومانسى مع كل هذه الصحون المتسخة فى المطبخ وسط الطلبة الذين كانوا يدندنون بالترانيم.

ذات ليلة ، فى يوم خميس أخذت من البيت موافقة بأن أتمشي بعض الوقت فى البلدة. ثم توقفت فى إحدي أكشاك التليفون لأطلب «جلوريا» فى بيت الطالبات. عندما أجابنى المسئول وضعت منديلاً علي السماعة وتكلمت بصوت هادئ ومنخفض لأسأل عن الآنسة «ستيفانى». بعد فترة صمت طويلة، سمعت ذلك المسئول ويهمس لـ «جلوريا». «اعتقد بأنه والدك.»

ابتسمت «جلوريا» عندما سمعتنى أتلعثم فى الجهة الأخري من التليفون، فقد كنت محبطاً جداً ويائسا. لكنى قلت لها: «أريد أن أكون معك.»

«نيكى» ماذا تقول؟» كانت تهمس إلىّ، تذكرت حينها بأنها كانت تتحدث مع والدها.

تلعثمت وتأتأت فى الكلام، لكن لم أستطع أن التعبير بالكلمات الصحيحة أبداً. فقد كان كل حديثى هو مع الفتيات اللواتى كن علي نطاق العصابات فقط، ولم أكن أعلم كيف أتكلم مع فتيات أنقياء وحساسين مثل «جلوريا». «أعتقد بأنى إذا رأيتك وجهاً لوجه سأتمكن حينئذ من مصارحتك بطريقة أفضل. أعتقد بأنه من الأفضل لى الآن أن أعود إلي غرفتى والتوقف عن مضايقتك.»

«نيكى» وسمعتها تصرخ: «لا تغلق فى وجهى السماعة.» ثم سمعت بقية الفتيات فى الغرفة يضحكن. فقد كانت «جلوريا» مصممة علي إخراج الكلام منى.

«شششش. فالكل يعرف أنه أنا الآن.»

«أنا لا يهمنى من يعرف ماذا. ولكن الآن قل لى ما الذى تحاول أن تقوله لى.»

استجمعت شجاعتى وقلت لها فى النهاية: «أنا أفكر فى أن أسأل هل من الممكن لنا أن نقترب من بعضنا البعض فى المدرسة خلال هذه السنة.» فقالت لى: «ماذا تعنى بنقترب من بعضنا؟ ماذا تعنى هذه الكلمة نقترب من بعضنا؟» كانت «جلوريا» تصيح هذه المرة وكنت اسمع الفتيات وهن يضحكن بصوت عال.

فأجبتها وأنا محرج جداً: «هذا فقط ما أريده.» كنت أشعر بالدماء وهى تحبس بوجهى بالرغم من أنى كنت أحدثها عبر كشك التليفون الذى يبعد حوالى ميل تقريباً عن البيت.«كنت أفكر فقط هل تودين فى الاقتراب منى فى هذا الوقت.»

فسمعت «جلوريا» تهمس لى: «هل تعنى أن أكون فتاتك؟»

فقلت لها وأنا أشعر بالخجل محاولاً تخطيه وأنا بداخل كشك التليفون«نعم هذا ما أعنيه تماماً.»

كنت أعرف بأن فمها قريب جداً من السماعة، فقد كنت أسمع أنفاسها. «نعم بالطبع يا «نيكى» فقلت: «إن هذا لأمر عظيم جداً. كنت أشعر بأن الله يقربنا من بعضنا البعض لهدف ما، «ثم أخبرتها بأنى سأكتب لها رسالة كبيرة وأعطيها إياها فى الخفاء غداً علي الإفطار.»

وهكذا بعد أن أغلقت السماعة وقفت لمدة طويلة جداً فى كشك التليفون. كانت ليلة دافئة ولكنى كنت أتصبب عرقاً وكانت يدى ترتجفان كالورق علي الأغصان.

علمت بعد ذلك بأنه بعدما أغلقت «جلوريا» السماعة نظر إليها المسئول وقال فى صوت حاد: «جلوريا لماذا يتصل بك «نيكى» فى هذه الساعة من الليل ويسألك بأن تكونى قريبة منه؟»

فتحدثت عنها إحدي الفتيات وسط ضحكاتهن وقالت: «لأن اسم أبيها هو نيكى.»

ثم احمر وجه «جلوريا» من الخجل عندما انفجرت الغرفة كلها بالضحك. فليس من المعتاد أن تتلقي فتاة دعوة من فتي أحلامها لمصادقته، أمام أربعين فتاة تستمع إلي المكالمة.

كان المسئول ساخطٌ جداً، أعطاهم فرصة ثلاثة دقائق ليذهبوا فيها إلي النوم. لكن جلوريا مكثت مستيقظة ورأسها تحت وسادتها حتي منتصف الليل، كان القليل من النور آتياً من الشارع حين كانت تكتب لى حرفاً من اسم حبيبها. لم أستطع فيما بعد فهم ما كتبته، لكن ما كتبته كان أكثر الحروف تقديراً لدى من كل ما كنت قد حصلت عليه قبلاً.

بعد عدة أسابيع عرض على أحد الأساتذة واسمه«ايستبن كاستيللو» بأن أذهب معه فى بداية عمل كمرسل له فى«سانت جبرائيل» بالقرب من المدرسة. وقال لى بأنه كان طلب من خمسة تلامذة آخرين العمل معه أثناء عطلة نهاية الأسبوع. فقد اكتشف مبنيً لكنيسة صغيرة مهجورة ومغلقة. وكان هو والطلبة يذهبون يوم السبت ليدعوا كل الجيران إلي حضور الخدمة فى الكنيسة. كذلك كان الطلبة يساعدون فى تنظيف المكان و يعلمون فى مدارس الأحد والأستاذ«كاستيلو» يعظ فكان قساً ومعلماً فى نفس الوقت.

شعرت بالتقدير من هذه الدعوة وفرحت أكثر عندما علمت بأنه قد دعا «جلوريا» أيضاً للعمل معنا فى هذا الحقل المرسلى. فقلت له وأنا ابتسم: «أنت حقاً أستاذ تمتاز بالحكمة. وأنا اعتقد بأننا سوف ننجز عملاً عظيماً للرب مع هذه اللجنة المتميزة التى اخترتها.»

فقال لى مبتسماً: «وأنا أعتقد بأنك ما أن تفرغ من عمل الرب فسيكون لديك متسع من وقت أكثر

لتتفرغ لأمور هامة فى حياتك.»

أدركت حينها بأنه قد شاع خبر قبول «جلوريا» مصادقتى، أعنى أن تصير فتاتى. كنت حقاً شاكراً لهذا الأستاذ الحكيم والمتفهم الذى استطاع أن يوفر لنا الطريقة المناسبة التى يمكن لحبنا أن ينمو فيها بشكل صحى وطبيعى وبالطريقة التى اختارها الله.»

كنا نعمل فى أول يوم سبت من كل شهر، فى المبني المرسلى الصغير. ثم نذهب إلي البيوت ندعو الناس لحضور خدمة يوم الأحد.وأخيراً أتيحت لنا الفرصة أنا و«جلوريا» كى نمضى معنا يوماً كاملاً. كنا دائماً نري بعضنا البعض فى حضور أناس آخرين. لكن اليوم ولأول مرة كانت لدينا ثلاث ساعات منفردة لم نقاطع فيها من أحد. أحضرت فيها «جلوريا» حقيبة للرحلات وبعد صباح ملئ بالعمل لدعوة الناس إلي الخدمات ذهبنا إلي حديقة لنأكل و نتكلم.

بدأنا الحديث فى نفس الوقت فضحكنا من الخجل. ثم قالت لى جلوريا: «أنت أولا يا «نيكى». وأنا سأستمع إليك.» تحولت الدقائق إلي ساعات ونحن جالسين نتكلم. كنت متحمساً جداً لأشاركها بكل تفاصيل حياتى. تكلمت معها طوال الوقت، فجلست هى تستمع إلىّ بكل انتباه وهى مستندة بظهرها علي جذع كبير لشجرة ضخمة. فجأة أدركت بأنى أنا الذى كنت أتكلم طوال الوقت وكل ما كانت تفعله هى هو أن تستمع لى.

فقلت لها: «أنا آسف يا جلوريا ولكن هناك الكثير فى قلبى أريد مشاركتك به. كل شئ سيئ كان أو صالحاً. أريد أن أشاركك بكل لحظة فى حياتى السابقة. والآن كلمينى أنت. حدثينى بما علي قلبك.»

بدأت تتكلم ببطء فى البداية ولكن بعد ذلك صارت الكلمات تخرج بسهولة وهى تشارك كل ما فى قلبها لى. لكنها توقفت فجأة وصممت.

«ماذا حدث يا جلوريا ؟ أكملى.»

«إنى أشعر بالبرد يا «نيكى» ثم تابعت كلامها» لقد أدركت عندما عدت إلي البيت سر التغيير الذى حدث فيك .فأنت مختلف الآن يا «نيكى». لست غبياً بعد أو تتصرف بعدم أمان كما كنت من قبل. لقد نضجت و أصبحت أكثر روحانية. فأنا أري فيك حياة مستسلمة لله. و يا «نيكى».....» وبدأت عيناها تمتلئان بالدموع: «أنا.. أنا.. أنا أريد أن أكون هكذا. أريد هذا السلام. هذه الثقة. الثقة التى فى حياتك. لقد أصبحت جافة روحياً. مع أن الله شفانى وقادنى لأعود إلي المدرسة و لكنى

مازلت باردة روحياً. أحاول أن أصلى ولكن لا يحدث لى شيء. أنا فارغة. ميتة. أريد ما أراه الآن بك.»

وضعت رأسها بين يديها. فرفعت يدى و وضعتها علي كتفها ونحن تحت ظلال الشجرة. التفتت إلي ثم وضعت رأسها فى حضنى. فضممتها بذراعى وأنا احتضنها وهى تبكى وأنا أهدئها . التفتت «جلوريا» بنظرة ثاقبة إلى، فتقابلت شفتانا فقبلنا بعضنا بعضاً قبلة حب طويلة.

انزلقت الكلمات من شفتاها وقالت، «أحبك يا نيكى. أحبك من كل قلبى.»

لم نتحرك حينها بل بقينا هكذا لفترة طويلة، متعانقين ممسكين ببعضنا البعض بقوة كعودين كرمة يتعانقان للسماء.

قلت لها: «جلوريا أريد أن أتزوجك. كنت أعرف هذا منذ مدة طويلة. أريد أن أعيش بقية حياتى معك. لكن ليس لدى شيء أقدمه لك. لقد أخطأت إلي الله بعمق و لكنه قد غفر لى. فإذا كنت وجدت مكاناً فى قلبك فاغفرى لى أنت أيضاً أريدك أن تكونى زوجتى.»

شعرت بذراعيها تحتضنى بقوة وهى تدفن رأسها فى كتفى. «نعم بالطبع يا حبيبى بالطبع يا حبيبى. فإذا سمح الله بذلك فسوف أكون لك للأبد.»

ثم رفعت رأسها وقبلنا بعضنا البعض ثانية .ثم رجعت إلي الخلف مستنداً علي الشجرة فجذبتها نحوى. كنا مسترخيين علي الحشائش ونحن محتضنين بعضنا البعض.

شعرت بأنى أتحرق شوقا إليها. لكن كان الله قريباً منى إلا أنى شعرت بالماضى يعود إلي داخلى. لكن ثمة نور أضاء ذهنى، فهذه الفتاة هى من أجمل مخلوقات الله. فهل سأفسدها الآن بشهوتى الخاطئة؟ فقد كان شعورى بالتحرق يزداد قوة.

فجأة انتصبت ودفعتها للخلف فتدحرجت علي العشب، كانت تصرخ وتقول: ««نيكى» ما الذى حدث؟»

فقلت لها: «نمل هنا. ملايين من النمل هنا، لقد صعدوا على، وبدأت أركض وأنا أهز قدمى وأركل برجلى. كانت جواربى فعلاً مليئة بكثير من الشياطين الزاحفة الحمراء الصغيرة. كنت أشعر بهم فى كل قدمى حتي ركبتى فقد كانوا صاعدين إلي الأعلي.ولم يوجد ما يستطيع أن يوقفهم من هز وركل وخبط علي قدمى. كانت «جلوريا» تحملق فى غير مصدقة ما يحدث لى وأنا أركض فى

دوائر وأضرب رجلى بيدى وأركل بهما.

فصحت فيها: «أديرى رأسك. انظرى إلي الاتجاه الآخر. بسرعة. فاستدارت و نظرت إلي الجهة الأخري من الحديقة. فصرت أتحسس حزامى باهتياج شديد حتي فتحته».

فبدأت تلتفت إلىّ وتقول: «نيكى .....»

فصحت بها: «انظرى فى الاتجاه الآخر لا تنظرى إلى. أدركت حينها ما الذى كنت سأفعله فأطاعت أمرى والتفتت إلي الاتجاه الآخر».

أخذ الأمر منى مدة طويلة حتي نزعتهم من علي ساقى. حاول بعضهم الحفر تحت جلدى. فكان على أن أضرب كل النمل الذى كان علي الشجرة حتي أنزعهم من علي جلدى. و أخيراً كنت مستعداً لأقول لـ «جلوريا» بأن الأمر قد استقر وتستطيع أن تلتفت إلى الآن.

عدنا أدراجنا إلي المدرسة. فى الحقيقة كانت هى تسير، لكنى كنت أعرج. كنت أحاول أن أتماسك من الغضب لأنها كانت تضحك على. إلا أنى لم أكن أري أى شىء مضحك فيما قد حدث لى.

تركتها أمام قسم الطالبات ثم ذهبت إلي القسم الخاص بالطلبة حيث أخذت حماماً. و أنا أقف تحت الماء البارد وأغسل جسمى بالصابون فى المناطق التى لدغها النمل شكرت الله علي «جلوريا» وعلي قوة روحه التى استطاعت أن تحمينى. فتكلمت إليه و الماء يتدفق على : «يا رب، أنا أعلم بأنها ستكون زوجتى. وهذا النمل قد برهن لى الأمر. أنا أسبح اسمك لأنك قد أعلنت هذا لى وأصلى بأن تعلن لى المزيد مرة ثانية.»

فى الليلة التالية يوم الأحد جاء دورى فى الوعظ فى إرسالية «سان جبرائيل». شعرت بروح الله علىّ وأنا أشهد عن عمل الله فى حياتى لمجموعة صغيرة من الناس الذين أتوا إلي الخدمة. فى نهاية الخدمة قمت بدعوة الجميع. رأيت حينئذ «جلوريا» وهى تقوم من مقعدها فى الخلف وتتقدم إلي الأمام. تعانقت أعيننا وهى تركع عند المذبح ثم أحنت رأسها فى صلاة. بعدها شعرت بيد «جلوريا» علي كتفى وروح الله يملئ قلبها. كانت يد الله علينا معاً.

فى عيد الميلاد ذهبت مع «جلوريا» إلي منزلها فى «أوكلاند». فرتبت لى أن أمكث مع بعض الأصدقاء فقد كانت أسرتها غير مشجعة لها تعليمها فى هذا المعهد. وقف وقتها القس «سانشيز» حيث

أعلن خبر خطبتنا فى الكنيسة الأسبانية الصغيرة لإرسالية «بثانيا». بعدها أمضيت بقية الأيام مع «جلوريا» حيث كنت أعظ فى الليل. لم يكن هناك أى شيء يمكن أن يسعدنى أكثر من هذا.

فى خريف السنة الأخيرة استقبلت خطاباً من «دافيد» يقول فيه بأنه ينوى شراء منزل كبير فى منطقة «كلينتون» ليفتح بذلك مركزاً للمراهقين و متعاطى المخدرات. وقد كان يدعونى للعودة إلي نيويورك بعد تخرجى من المدرسة لأذهب للخدمة مع هيئة تحدى المراهقين.

ناقشت هذا الأمر مع «جلوريا». وكان واضحاً بأن الله يدعونا معاً لتحقيق خطته لنا. لكن رأينا أن لا نتزوج الآن وأن ننتظر سنة أخري إلي أن تتخرج «جلوريا» من المعهد. ولأن كل الأبواب كانت تنفتح أمامنا مما كان واضحاً بأن الله كان يريد منا العودة إلي نيويورك. لذلك قررت العودة ومعى «جلوريا».

فكتبت إلي «دافيد» وقلت له بأنى محتاج أن أصلى لأجل هذا الأمر. وقلت له أيضاً بأنى سوف أتزوج «جلوريا». فكتب لى «دافيد» ثانية يدعونى ويرحب بـ «جلوريا» معى.

وهكذا عقدنا قراننا فى نوفمبر وبعد شهر تقريباً عدنا إلي نيويورك لقبول دعوة «دافيد» لنا حتي نبدأ الخدمة مع الهيئة.

كان المبني الكبير الذى نقطن فيه رقم ٤١٦ بمنطقة «كلينتون» يقع وسط مجمع سكنى قديم فى بروكلين ويبعد قليلاً عن مشروع «فت جرين». فى هذا الصيف جاء إلى طلبة الكليات ليساعدونى فى تنظيف المكان لنبدأ الخدمة. أعد «دافيد» الخدمة للمتزوجين حديثا ليأتوا ويعيشوا فى هذا المنزل الكبير كمشرفين للخدمة. كذلك كانوا قد أعدوا لى أنا و «جلوريا» شقة صغيرة فى طرف هذا المنزل بالجراج.

كان منزلنا صغيراً وبسيطاً. فقد كان الحمام فى الجوار فى المركز الرئيسى وكان السرير الوحيد هو أريكة ولكنه بالنسبة لنا كان وكأنه من السماء. لم يكن لدينا شيء ولم نكن نحتاج إلي شيء. كنا فقط لبعضنا البعض وكانت عندنا رغبة كبيرة فى خدمة الله بأى ثمن. عندما اعتذر لنا «دافيد» عن هذا المكان الفقير الذى كنا نعيش به ذكرته بأنه لا توجد أية تضحية فى خدمة يسوع المسيح بل كل التقدير.

وقبل عيد الميلاد بقليل ذهبت إلي زيارة منطقة نفوذ «المومس». فقد كان قلبى قلقاً علي «هوريكان هيكتور» وكنت أريد أن أجده لأعمل معه بطريقة شخصية الآن لأنى عدت ثانية إلي «بروكلين»

لأمكث فيها. فوجدت مجموعة من «المومومس» فى متجر للحلوي فسألتهم : «أين هوريكان؟»

فنظروا بعضهم إلي بعض وقالوا: «اسأل ستيف، رئيسنا، فسوف سيحكى لك ما حدث.»

كنت خائفاً من الحقيقة، لكنى ذهبت إلي منزل ستيف. وسألته بعد أن صافحته: «أين هيكتور؟»

هز ستيف رأسه وحملق فى الحائط وقال: «تعال معى لننزل إلي الأسفل وسأخبرك ما قد حدث .فأنا لا أريد لأمى أن تسمع ما سأقوله لك». نزلنا درجات السلم ووقفنا وراء الباب حتي نتفادي الهواء البارد حيث كان ستيف يحكى لى القصة.

«بعد أن تكلم معك فى الليلة التى سبقت عودتك إلي «كاليفورنيا» أصبح شخصاً غير مستقر. كان قد فقد صبره. لم أره هكذا من قبل. كنا فى مشاجرة كبيرة مع «الاباتشى» و كان كرجل متوحش يحاول أن يقتل كل من يقف فى طريقه حتي ولو كانوا من «المومومس». ثم بعد ثلاثة أشهر قتل.»

«كيف حدث هذا ؟ سألته والاكتئاب يملئ قلبى ورئتى حتي أنى كنت ألتقط أنفاسى بصعوبة. من فعل هذا ؟»

«كان «هوريكان» و«جيلبرت» واثنان آخرين قد ذهبوا معاً لقتل واحد من أعضاء عصابة «الاباتشى». كان يعيش وحده فى شقة فى الطابق الخامس. علمنا بعد ذلك بأنه الشخص الخطأ. لكن «هوريكان» كان قد قرر قتل هذا الولد فذهبنا معه لمساعدته. كان مع «هوريكان» مسدساً».

قرعنا الباب. كان المكان مظلماً. ولكن كان هذا الولد ذكياً جداً. فقد رأي «هوريكان» و معه المسدس عندما فتح الباب ببطء، فقفز إلي الممر وحطم مصباح النور فأظلم المكان. كانت هذا هو واحد من المصابيح المتدلية من السقف فحطمها. لم نستطع أن نري شيئاً. كان هذا الرجل كالمجنون يلكم ويتأرجح ببندقيته فى كل مكان. فأطلق «هوريكان» مسدسه ثلاث مرات ثم سمعنا صرخة كبيرة بعد ذلك: «قتلنى، قتلنى.» لم نكن نعرف من قتل من فظننا بأن «هوريكان» هو الذى قتل عضو «الاباتشى». فركضنا علي السلم من الطابق الخامس ثم إلي الشارع فى الخارج.»

التفت ستيف إلي سلم شقته ليري إن كان أحد ما يستمع إليهم وقال: «عندما خرجنا إلي الشارع رأينا بأن «هوريكان» لم يكن معنا. فركض «جيلبرت» عائداً إلي نفس المكان فوجدنا «هوريكان» يقف إلي الحائط والسكين مرشوقة بداخله. فقال «جيلبرت» بأن السكين كانت قد خرجت من ظهره أيضاً. وعضو «الاباتشى» قد عاد إلي غرفته وأغلق الباب عليه. لم يكن «هيكتور» قد مات بعد لكنه كان

يبكى خائفاً. ومستنداً علي الحائط وهذه السكين الكبيرة مرشوقة فى معدته، حيث كان يتوسل إلي «جيلبرت» أن ينقذه من الموت لأنه خائفاً منه موت. كان يحاول أيضاً أن يقول له شيئاً عن الساعة التى تدق ثم وقع علي الأرض فى الممر علي السكين ومات.»

كان ريقى قد جف وشعرت بأن لسانى قد ألتصق بحلقى كقطعة قطن. فقلت: «لماذا تركته أنت و «جيلبرت» ؟»

«لأننا كنا خائفين. مرتعبين. فنحن لم نري موتاً كهذا فى حياتنا. وكل الأولاد تشتتوا وركضوا بعيداً. ثم جاءت الشرطة وحققت ولكن لم يكن هناك أى دليل ضد عضو «الاباتشى» فتركته الشرطة يرحل. لقد هزتنا هذه التجربة كثيراً.»

التفت لأترك «ستيف» فسألنى: ««نيكى» هل تعلم ما الذى كان يعنيه بأن الساعة تدق؟»

فهززت رأسى وقلت: «لا أعرف الآن أى شيء سأراك لاحقاً.»

كنت أشعر بالدوار أثناء عودتى إلي المنزل فى منطقة «كلينتون». ومع كل خطوة كنت أستطيع أن سماع صوت الساعة فى«برج فلاتبوش» وكنت أستطيع سماع صوتى وأنا أقول لـ «هوريكان هيكتور»: «الوقت متأخر ولكن ليس متأخراً جداً. ولكن إن لم تسلم قلبك للمسيح فلن أراك ثانية.»

فهمست وقلت: «يا ربى العزيز، من فضلك لا تدعنى أترك أحداً من أصدقائى فيما بعد قبل أن أحاول إلي النهاية معه مجتهداً لأن يقبل نعمتك وخلاصك.»

كان مرتبى فى البداية عشرة دولارات فى الأسبوع بالإضافة إلي الإقامة و الطعام. فالمنزل الصغير الذى بالجراج لم تكن فيه أية إمكانيات للطبخ، لذلك كنا نأكل وجباتنا فى المنزل الكبير. كنا أنا و «جلوريا» نحب جداً الطعام الأسبانى الساخن. ولكن فى المركز كان علينا أن نأكل طعاماً متنوعاً، لذلك كنا نصرف معظم المال الذى معنا علي الطعام الأسبانى فى الخارج. كان هذا هو متعتنا الإضافية فى الحياة.

بدأنا العمل فى الشوارع. كان «ويلكرسون» قد كتب نبذة صغيرة كنا نسميها «نبذة الدجاج.» تحمل رسالة تحدى لمن هم فى سن المراهقة تتحداهم بقبول المسيح، و إلا فسيكونوا جبناء كالدجاج. كنا نوزع النبذ علي الآلاف فى شوارع «بروكلين» و «هارلم».

كان واضحاً بأن عملنا الأساسى سيكون مع متعاطى المخدرات. فمعظم أعضاء العصابة كانوا

يتعاطون البانجو وشرب النبيذ ثم يتدرجوا بعد ذلك إلي تعاطى الهروين.

كانت الطريقة التى نتبعها جريئة. إذ كنا نسير إلي مجموعة من الشباب الواقف بالشارع ونبدأ معهم حواراً.

«يا عزيزى هل تريد أن تنتصر علي عاداتك؟»

كانوا دائماً ما يجيبون أسئلتنا: «نعم يا رجل ولكن كيف؟»

«تعالوا إلي مركز«كلينتون» لتحديات المراهقة. وسنصلى من أجلكم .نحن نؤمن بأن لله سيستمع إلي الصلاة. تستطيعوا أن تقلعوا عن هذه العادات بقوة الله.» بعد ذلك كنا نقدم لهم نسخة من نبذة الدجاج.

«إذاً يا رجل هل هذا هو كل ما فى الأمر؟ حسناً من المحتمل أن اتصل بك أو أمر عليك يوماً ما.» كان الأمر بطيئاً جداً فى البداية. فقد كنت أقضى معظم الوقت واقفاً هناك فى جوانب الشارع أتحدث معهم. فالمدمنين لا يعملون، لكنهم يحصلون علي المال من السرقة والنشل والخطف. فهم مثلاً قد يقتحمون أحد المنازل ويسرقون الأثاث ليبيعوه. يسرقون المحافظ والحقائب والملابس المنشورة واللبن الموضوع أمام الباب وأى شي يمكن أن يجلب لهم المال ليشبع عاداتهم. وعلي طول طريق «ويليامسبرح» هناك عصابات صغيرة مكونة من ثمانية إلي عشرة أفراد يقفون علي زوايا الشوارع يخططون للسرقات أو لطريقة يبيعون بها ما سرقوه من أشياء.

فى الميلاد كان معى أول شخص يقبل المسيح فى المركز. كان «بردو» الذى كان عضواً فى «المومومس» .وهو ولد ضخم وطويل وملون، كان يعيش مع امرأة متزوجة. فى يوم من الأيام واجهه زوجها فى إحدي البارات فأصابه «بردو» بالمطواة. كان هذا الزوج عضواً فى عصابة «السكوربيون» التى تقطن وسط المدينة وكان قد سمع «بردو» بأن هذه العصابة تلاحقه. وجدته ذات ليلة واستمعت إلي قصته فعرضت عليه أن يلجأ إلي المركز. فقبل هذا العرض بحماس شديد . بعد ثلاثة أيام من لجوئه إلي المركز قبل المسيح مخلصاً شخصياً لحياته.

لمدة ثلاثة أشهر تلت عشنا وتنفسنا وأكلنا مع «بردو». أمضينا أنا و«جلوريا» أول عيد للميلاد لنا معاً فى منزلنا الصغير المكون من غرفتين حيث كان «بردو» ضيفنا. كان يشاركنا فى كل الوجبات ويذهب معنا إلي كل مكان نذهب إليه. حتي أثناء الخدمات كان يأتى يرافقنا.

ذات ليلة فى شهر مارس خلدت إلي النوم متأخراً. كانت «جلوريا» قد ذهبت للنوم فى غرفتنا الأمامية علي الأريكة السرير. كنت أعتقد بأنها نائمة فخلعت ملابسى بهدوء حتي لا أوقظها. لكن وأنا أدخل إلي السرير وضعت يدى بلطف حول كتفها فأدركت بأنها كانت تبكى. كنت أشعر بجسدها يرتجف من تحتى وهى تبكى.

«ماذا حدث يا عزيزتى؟»

كان هذا هو كل ما قلته لها لكنها بدأت تجهش فى بكاء حارق بعد ذلك. جلست بجانبها وأنا أربت علي ظهرها لأهدئها حتي سكنت وبدأت تتكلم: «ماذا حدث يا «جلوريا»؟ هل تشعرين بوعكة أم ماذا؟»

«لا ليس الأمر كذلك يا «نيكى» .آنت لا تفهم ولن تفهم أبداً.»

«أفهم ماذا؟» كنت متحيراً جدا من اتجاهها الغريب هذا.

«هذا المتطفل. هذا المتطفل«بردو» .ألا يستطيع أن يفهم بأنى أريد أن أمضى معك بعض الوقت وحدنا. لقد تزوجنا منذ أربعة أشهر فقط وهو يأتى معنا إلي كل مكان نذهب إليه. لم يبقي إلا أن يأخذ حمامه معنا، لكن الحمد لله فالمكان لا يتسع إلا لفرد واحد.»

فقلت لها، «هيا إذا يا حبيبتى .هذه ليست «جلوريا» التى أعرفها. أنت تشعرين بالكبرياء. هذا أول شخص يتجدد وسطنا. كان من المفترض أن نسبح الله»

«لكن يا «نيكى» أنا لا أريد أن يشاركنى فيك أحد معظم الوقت. لقد تزوجتك أنت

وصرت زوجى، فمن حقى إذاً علي الأقل أن أمضى معك بعض الوقت وحدنا «بردو» يذهب معنا إلي كل مكان، وتقول: «مجدا لله.»

«هل أنت جادة بما تقولين يا «جلوريا»؟»

«أنا لم أكن جادة أبداً فى حياتى كما الآن. يجب أن يترك أحدنا المنزل. أما أن تبقي زوجى أو تذهب لتنام مع «بردو». وأنا اعنى ما أقول. لكن لن تستطيع أن تحصل علي كلينا معاً.»

«آه اسمعى يا عزيزتى. إذا أرسلناه ثانية إلي الشارع فسيعود إلي العصابة أو إلي «السكوربيون» الذين يريدون قتله. يجب علينا أن نحافظ عليه.»

«إذاً، فإذا كان سيعود ثانية إلي العصابة فهناك شيء ما خطأ بشأن إلهه. ما هو نوع هذا الإله الذى سلمه «بردو» حياته؟ إله سيتخلي عنه فى أول مشكلة يقابلها؟ أنا لا أؤمن بذلك. أنا أؤمن بأن إن كان لدي شخص ما اختباراً حقيقياً وحياً للتغيير، فالله سيكون أميناً بأن يحافظ عليه إلي الأبد. ولكن إن كنا سنلعب دور الممرضة لكل شخص تدعوه إلي هنا فسوف أترك المنزل حينئذ» وهنا كان قد علا صوت «جلوريا» جداً وهى تكلمنى فقد بدت جادة فعلاً.

«لكن يا «جلوريا» هذا أول شخص يتجدد علي يدى.»

«من الممكن أن يكون الخطأ كامناً هنا، فيك وفيه فهل هذا أول شخص يتجدد لك، أم للمسيح؟. إن كان قد لك فمن المحتمل أن يعود للعصابة أما لو كان ما قد حدث لك هو عمل الله فيجب إذاً أن لا تقلق بشأنه هكذا من احتمال عودته إلي العصابة مرة ثانية.»

«حسناً من الممكن أيضاً أن يكون هذا خطأك أنت، فأنت لا تريدينه أن يكون معنا. لكن مازال من واجبنا أن نوفر له مكاناً للسكن. وتذكرى يا «جلوريا» بأن الرب قد دعانى لهذه الخدمة وقد تزوجتنى وأنت تعلمين بدعوته لى.»

«نعم يا «نيكى» ولكن ليس أن يشاركنى دائماً أحد فيك.»

عانقتها وقلت لها، «لست مضطرة لأن يشاركك أحد فى الآن. غداً سأتكلم مع «بردو» وأري إن كان لديه أى شئ آخر يفعله بدلاً من أن يلازمنا طوال الوقت؟»

«حسنا.» هكذا تمتمت وهى تضع رأسها علي كتفى وتعانقنى.

وصل «سونى» فى إبريل الماضى مع نبوة عن سقوط الثلج فى شهر مايو. كان أول مدمن أعمل معه. دخلت إلي الكنيسة الصغيرة فى هذه الليلة فوجدت ولداً شاحب الوجه يجلس فى الجانب البعيد من الغرفة. كنت أعلم بأنه مدمن فذهبت إليه.

جلست بجانبه. ثم وضعت يدى حول كتفه بعدها بدأت أتحدث معه بصراحة. كانت رأسه منحنية ويحملق بعينيه فى الأرض وأنا أكلمه قلت له: «أنا أعلم بأنك مدمن وتاجر مخدرات أيضاً. وأستطيع القول لك بأنك مدمن لسنوات طويلة ولم تستطع أن تقلع عن هذه العادة. هل تعتقد بأنه لا يوجد من يهتم بأمرك. ولا من يستطيع مساعدتك. دعنى أقول لك بأن الله يهتم بك. وهو يستطيع مساعدتك.»

رفع الولد حينئذ رأسه ونظر إلى نظرة ميتة. وأخيراً قال لى بأن اسمه «سونى». علمت فيما بعد أنه كان تربي فى منزل متدين، لكنه هرب منه ثم وضع بالسجن لعدة مرات لإدمانه ولارتكابه السرقة. لقد كان عليه الإقلاع عن هذه العادة، بوضعه فى السجن عدة مرات، لكنه فشل.

كان «سونى» مدمناً ملتزماً لديه طريقة فريدة فى جمع المال ليصرف بها علي إدمانه. فقد كان لديه صديق يركض فى الشارع ويسرق حقيبة أية امرأة تسير، وعندما تبدأ فى الصراخ كان يجرى إليها سونى قائلاً: «لا تصرخى يا سيدتى، فأنا أعرف هذا السارق. ولسوف أستعيد لك حقيبتك. فقط انتظرينى هنا وسأعود خلال دقيقة.» فتتوقف المرأة عن الصراخ علي رجال الشرطة، وتقف هناك منتظرة، فى الوقت الذى يكون فيه «سونى» قد هرب بعيداً عن الشارع لينضم إلي أصدقائه ليقتسموا ما سرقوه.

ركعت بجانبه فى الكنيسة الصغيرة ثم قلت له: «أريد أن أصلى من أجلك. أنت تحتاج إلي يسوع المسيح فى حياتك.» شعرت حينئذ بدفء فى مشاعرى من نحوه وبدأت أبكى وأنا أصلى. «يا رب ساعد هذا الرجل. إنه يحتضر. أنت الوحيد الذى تستطيع أن تساعده. فهو فى حاجة إلي الرجاء والحب. من فضلك ساعده.»

عندما انتهيت قال لى سونى: «على أن أعود إلي المنزل.»

«سوف اصطحبك إلي بيتك.»

«لا. لا لن تستطيع أن تفعل هذا.» هكذا قال لى وعلي نظراته يبدو القلق والرعب.

كنت أعلم بأنه كان يتهرب منى حتي يخرج ليأخذ جرعته من المخدرات. «إذا سوف أبقيك معى هنا.»

فقال لى ثانية: «لا، لا، يجب أن أذهب إلي المحكمة صباحاً. فهم يريدون أن يلقونى بالسجن. فى الحقيقة، أنا لا أعلم لماذا أنا هنا الآن.»

«أنت هنا لأن الله أرسلك. والله سيستخدمنى لأساعدك. ابق معنا هنا فى المركز هذه الليلة وسوف أذهب معك غداً إلي المحكمة.» لكنه أصر علي الذهاب إلي المنزل فوعدته بأن أمر به الساعة الثامنة صباحاً.

فى صباح اليوم التالى ذهبت معه إلي المحكمة. لكننا ونحن فى طريقنا إلي هناك قلت له:

«سأصلى إلي الله كى يجعل القاضى يؤجل قضيتك لمدة شهرين حتي تستطيع أن تقلع عن المخدرات وتقبل المسيح. إذ بعد ذلك من الممكن أن تأخذ براءة.»

هزأ «سونى» بكلامى وقال: «هذا أمر مستحيل. فهذا القاضى المقزز لا يؤجل أى قضية أبداً. سوف يزجنى بالسجن قبل الظهيرة. انتظر فقط وستري.»

سكت للحظة وأنا علي درجات سلم المحكمة، بعدها بدأت أصلى لله بصوت مرتفع: «يا رب أنا أسألك باسم يسوع المسيح أن ترسل روحك القدوس ليلمس هذا القاضى ليؤجل قضية «سونى» حتي يستطيع أن يصبح مؤمناً. أشكرك يا رب لأنك تسمع الصلاة.آمين.»

نظر إلى «سونى» وكأنى مجنوناً. جذبت يده بقوة وقلت له: «هيا لنذهب فأنى أستطيع الآن أن أسمع القاضى وهو يأمر بتأجيل قضيتك.»

دخلنا قاعة المحكمة، حلف «سونى» اليمين أمام الجميع. ثم جلس فى مكانه مع متهمين آخرين وأنا جلست فى الخلف.

سمع القاضى ثلاثة قضايا متتالية وأمر بسجن المتهمين فيها لمدة طويلة. لكن واحداً منهم بدأ يصرخ عندما حكم القاضى عليه. وقفز من فوق المنضدة محاولاً الوصول إليه وهو يصرخ ويصيح بأنه سوف يقتله.بعدها وقف كل من كان فى قاعة المحكمة علي أقدامهم أثناء مجىء رجال الشرطة لأخذ المتهم إلي السجن. و فيما هم يخرجون به من الباب الجانبى كان يصرخ ويركل بقدميه فرفع القاضى حاجبيه وقال: «القضية التالية». وقف «سونى» وقد تملكه القلق الشديد فى الوقت الذى كان القاضى فيه يتفحص قضيته.

ثم نظر إليه من أعلي نظارته، قائلاً: «لسبب ما فإن التحقيقات لم تكمل بعد. وأريدك أن تعود فى غضون ستون يوماً.»

التفت إلى «سونى» وهو غير مصدق ما قد حدث. فابتسمت له وتوجهت نحوه ليأتى معى. كان أمامنا طريق صعب يجب أن نسلكه معاً، لكن علينا أن نبدأه أولاً.

كانت تجربة الإقلاع عن الهروين تجربة مريرة بالنسبة لنا جميعاً. جهزت غرفة لـ «سونى» فى الطابق الثالث للمركز. كنت أعلم بأن هذا الأمر سيتطلب منى إشرافاً مستمراً لذلك أخبرت «جلوريا» مسبقاً بأنه على أن أقضى الثلاثة أيام القادمة مع «سونى». وهكذا حضرت ألبوماً لشرائط روحية

وقررت أن أجلس بجانبه فى الغرفة حتي يستطيع التخلص من الإدمان ويهدأ.

فى اليوم الأول، كان غير مستقر يمشى ذهاباً وإياباً ويتكلم بسرعة كبيرة. وفى الليل بدأ يرتجف. جلست بجانبه طوال الليل وهو يمر بفترات رعشة من البرد ثم بدأت أسنانه تتخبط بعضها ببعض وكانت كل الغرفة تهتز. فى أحيان كثيرة كان يهرب منى ويركض نحو الباب ولكنى كنت قد أغلقته حتي لا يستطيع أن يكسره ويهرب.

فى فجر اليوم الثانى بدأ ارتجافه يقل واستطعت أن أساعده لينزل معى إلي الإفطار. ثم اقترحت عليه أن نذهب فى مشية قصيرة حول المكان ، لكن ما خرج للخارج حتي بدأ يتقيأ. انحني علي الرصيف وهو ممسك ببطنه يتأوه. وعندما جذبته لينتصب وقع منى فى الشارع علي الأرض مغشياً عليه. فجذبته إلي الخلف نحو الرصيف.

ثم رفعت رأسه وأسندته علي ركبتى حتي عبر من حالة التشنج هذه واستعاد قوته. ثم عدنا بعد ذلك إلي غرفتنا فى الطابق الثالث لننتظر ونصلى.

عند حلول الليل صرخ وقال: ««نيكى» لا أستطيع التغلب عليه. فأنا قد تماديت جداً فى الإدمان لدرجة أنى لن أستطيع العودة ثانية عنه. يجب أن آخذ حقنة بجرعتى الآن.»

«لا يا«سونى» سوف نتغلب علي هذا الأمر معاً. سيعطيك الله القوة لتتغلب عليه.»

«لا أريد أية قوة للتغلب عليه.أريد حقنة الآن. يجب أن آخذها. من فضلك من فضلك يا «نيكى». لا تجعلنى أمكث هنا. من أجل الرب اتركنى لأذهب. دعنى أذهب.»

«لا يا سونى من فضلك أنت ، لن أتركك أبداً . أنت غالى جداً علي الرب. فهو يريد أن يستخدمك، لكنه لن يستطيع أن يفعل هذا طالما هذا القيد متملك منك. من أجل الرب، سوف تمكث هنا أنت حتي تتغلب علي إدمانك تماماً.»

جلست معه طوال الليل وهو يتصبب عرقاً ويرتجف حتي كدت أشعر بأن معدته ستخرج خارج فمه. ثم غسلت رأسه بمنشفة مبللة وأدرت له الفونوغراف علي أعلي صوت وبدأت أغنى له مع «بيف شى» و«ستيتمين كوارتيت».

فى اليوم التالى كنت أشعر بتعب شديد حتي أنى لم أكن قادراً علي الوقوف علي قدمى. للمرة الثانية حاولت أن أطعمه، لكنه عاد ليتقيأ كل شىء مرة ثانية. جلست بجانب سريره وصليت لأجله

حتي الغروب.

فغرق فى النوم وهو يتأوه و يتلوي . ثم قام مرتين من السرير محاولاً الوصول إلي الباب. فى المرة الأخيرة كان على إمساكه وجذبه إلي السرير ثانية.

فى منتصف الليل تقريباً وأنا جالس بجانبه علي السرير شعرت بسحابة سوداء من النوم تهبط على. حاولت أن أقاومها بشدة ولكن كان قد مضي على اثنان وأربعون ساعة بدون نوم. كنت أعلم بأنه إن خلدت إلي النوم الآن فمن الممكن أن يتسحب من ورائى ويهرب وقد لا يعود ثانية. كنا قريبين جداً من الانتصار، لكنى لم أستطع التغلب علي النوم أكثر من هذا ، إذ قد شعرت بأن ذقنى تلمس صدرى. فبدأت أفكر بأنه: «من المحتمل إنى إذا خلدت إلي النوم لدقيقة....»

استيقظت فجأة. كانت الأنوار فى الشارع تنعكس علي الغرفة الكبيرة الفارغة فى الطابق الثالث من المبنى. لم أكن أعتقد أبداً بأنى كنت نائماً لأكثر من دقائق، لكن كان هناك شيء ما فى داخلى يقول لى بأنى قد نمت لمدة طويلة. نظرت إلي سرير «سونى». كان فارغاً. كانت الأغطية مرمية من علي السرير إلي الخلف. كان قد هرب.

بدأ قلبى يخفق بشدة . وقفت علي قدمى وتوجهت إلي الباب حتي رأيته راكعاً علي الأرض بجانب النافذة. اجتاحتنى موجة من الراحة وأنا أسير ببطء إلي النافذة وركعت بجانبه علي الأرض الصلبة. كان ثلج الخريف يتساقط ويعكس نور الشارع علي الرصيف. كان الرصيف والشارع مغطي بطبقة من الثلج بيضاء كأنها سجادة و كانت أغصان الأشجار خارج النافذة بأزهارها الصغيرة قد بدأت تتساقط وتلمع فى بياض الثلج. وكل قشرة منها كانت تتلألأ كل واحدة بمفردها وهى تطفو علي ضوء الشارع فتذكرنى بمنظر يمكن أن يرسم علي بطاقة لعيد الميلاد.

قال«سونى» : «إنه منظر جميل. لا يوصف. لم أري فى حياتى منظراً بهذا الجمال من قبل. أليس كذلك ؟»

كنت أحملق فيه. كانت عيناه صافية و صوته متزناً. وكان هناك شعاع ما فى وجهه. لم يعد لسانه ثقيلاً كما كان حتي حديثه أيضاً.

ابتسم لى وقال: «الله صالح يا «نيكى». إنه عظيم. فقد حررنى الليلة من قيدى الذى كان أشبه الجحيم. لقد حررنى من قيودى.»

نظرت عبر النافذة إلي هذا المنظر الخلاب فى الخارج وهمست : «أشكرك يا رب أشكرك.» ثم سمعت صوت «سونى» يتمتم: «شكراً لك يا رب.»

كانت أول مرة لى اترك فيها «سونى» وحده عائداً إلي شقتى. كانت رأسى غير مغطاة والثلج يتساقط عليها برقة فيلتصق بشعرى ويدخل بين قدمى وأنا أصعد السلم.

قرعت بخفة علي الباب ففتحت «جلوريا» لى وقالت وهى نعسانة : «كم الساعة الآن؟»

«حوالى الساعة الثالثة صباحاً.» ثم وقفنا علي الباب وأخذتها بين أحضانى

وهى تشاهد الثلج الأبيض الرقيق ومغطياً كل ما هو أسود أو قذر بلونه الأبيض الجميل كغطاء من النقاء و البراءة.

قلت لها: «لقد قبل سونى المسيح. فقد ولد من جديد فى الملكوت.»

فقالت «جلوريا» برقة : «أشكرك يا رب». كانت هناك فترة صمت طويلة ونحن نقف وراء الباب نشاهد البانوراما الجميلة التى بالخارج أمامنا. ثم شعرت بيد «جلوريا» تلتف حول خصرى وتقول: «سونى» لم يكن الوحيد الذى ولد فى الملكوت من حديد. لم يكن لدى الوقت لأخبرك عما حدث لأنك كنت مشغولاً جداً خلال الثلاثة أيام الماضية، لكن هناك حياة جديدة ولدت بداخلى أنا أيضاً يا «نيكى». سوف نرزق بطفل.»

فحملتها بين ذراعى وضمتها إلي صدرى بحب وفرح وقلت لها: «آه يا «جلوريا» أنا احبك جداً.» .ثم ركلت الباب حتي أغلق من خلفى وصارت الغرفة مظلمة. حملتها إلي أريكتنا ووضعتها ببطء علي السرير. جلست بجانبها ووضعت يدى رأساً بخفة علي بطنها وأنا أعانقها قريباً منى علي قدر ما أستطيع لقد كنت أريد أن أضم هذه الحياة الجديدة التى بداخلها. رفعت يدها ووضعت رأسى بين يدها فخلدت فى نوم عميق وهادئ. بعد هذا الحديث عرفنى «سونى» بالمدينة الكبيرة والمظلمة و أرانى عالم المدمنين والعاهرات والمجرمين.

ثم أمضينا أنا و «جلوريا» ساعات طويلة بالشارع نوزع النبذ وأرقام تليفونات المركز. فقد كان لدينا عدد قليل جداً من المراهقين. وكان معظمهم من الفتيان. ففتحنا الطابق الثالث ليكون منزلاً للنساء. كانت «جلوريا» تساعد الفتيات وأنا أعمل مع الرجال كمدير فقط، حيث كنت مسئولاً عن المجموعتين.

انتقل دافيد إلي منزل فى جزيرة «ستاتن» كان يأتى كل يوم لزيارتنا عندما كان فى المدينة كى يشرف علي العمل فى المركز. كنا قد اشترينا أتوبيساً يحمل تسعة ركاب وكانت «جلوريا» وواحد من الأولاد يذهبان إلي الخارج ليأتوا ببعض أعضاء العصابات إلي المركز للخدمة.

تركنا «بردو» ليستأجر شقة فى «جيرسى» لكن مكث «سونى» معنا حتي سبتمبر ليتركنا إلي «لابونتا» للدراسة فى معهد الكتاب المقدس هناك. فى نفس هذا الصيف كانت الشقة فى الطابق الثانى فارغة فانتقلت أنا و«جلوريا» للسكن فى «٤١٦ كلينتون». وهكذا كانت غرف الرجال فى نهاية الطابق الثانى. وفى الأسفل كان مكتبنا والمطبخ و قاعة الطعام

وغرفة كبيرة جداً كنا نستخدمها ككنيسة صغيرة. كنت أتمني أن يخف توتر «جلوريا» بعد أن انتقلنا إلي المنزل الكبير، لكن فى الحقيقة الحياة مع أربعين من مدمنى المخدرات فى نفس المنزل لم يكن يعطينا أى شعور بالهدوء أو الراحة.

وهكذا استمر التوتر.فقد كانت لى أنا و «جلوريا» ساعات قليلة فقط كى ننفرد بها معاً حيث أنى كنت منشغلاً طوال ساعات يقظتى بالعمل مع المدمنين. وفى خريف ١٩٦٢ كان على أن أقوم بزيارة سريعة إلي «بورتوريكان». كانت أمى قد أرسلت خطابا إلي فرانك تخبره بوفاة والدى. فأخذ فرانك زوجته وأنا أخذت معى «جلوريا» وذهبنا إلي خدمة الجنازة. لقد عدت كخادم مسيحى ولم أكن أعرف قط إن كان أبى قد قبل المسيح مخلصاً شخصياً له أم لا. دفنته وأنا متأكد بأنه كان قد حدث فى حياته بعض التغيير وبأن الله فى محبته ورحمته سيحكم عليه طبقا لقلبه. لقد مات«الرجل العظيم» ولكن ذكريات الحب الذى تعلمتها بأُن أتبادلها مع أبى كانت لا تزال تملئ قلبى.

ولدت «إليشيا آن» فى يناير١٩٦٣. وولادتها ساعدت فى ملء الفراغ الموجود فى حياة «جلوريا» حيث صار لديها الآن شخصاً لتبادله حبها فى أثناء أوقاتها الطويلة الفارغة. كنت أحرص علي تمضية بعض الوقت معهم ، لكن رغبتى المستمرة فى الخدمة كانت تبقينى دائماً بعيداً عنهم من الفجر حتي منتصف الليل. وكنت قد حذرتها من أن لا يحمل أى أحد سوانا الصغيرة علي الرغم من أنى كنت أحب المدمنين، لكنى كنت أعلم بأن ذهنهم كان محطماً تماماً من المخدرات ويمكنهم فعل أى شيء.

لكنى لم أكن أعرف كم عدد الليالى التى بكت فيها «جلوريا» حتي خلدت إلي النوم فى وحدتها فى شقتنا. كانت لابد أن تكون اختيار الله لحياتى. إذ لا أعتقد بأن أية امرأة أخري كانت ستتحمل كل هذا الضغط طوال الوقت.

الفصل الخامس عشر

رحلة إلى الجحيم

كنت خارج البلدة مدة يومين، حين عدت حدثتنى «جلوريا» عن ماريا البالغة من العمر الثامنة والعشرين، كانت قد جاءت مصابة بالصقيع الشديد ، تعانى من أعراض سحب الهيروين حيث كانت علي حافة الموت. طلبت منى «جلوريا» أن أذكرها هذه الليلة بشكل خاص أثناء تقديم عظتى فى الكنيسة الصغيرة.

بعد الخدمة جاءت «جلوريا» بـ «ماريا» إلي مكتبى. كانت تتلعثم فى كلامها وهى تتحدث معى حيث كانت لا تزال تعانى من أعراض السحب.

قالت لى: «الليلة كان عندى شعور غريب بأنى أريد أن أتخلص من طريقة حياتى الباطلة هذه. وعندما كنت تعظ كنت أشعر بأنى أريد الموت عن حياتى السابقة التى اعتدت أن أحياها . وأخيرا ولأول مرة فى حياتى أصبحت أرغب فى الحياة. لا أستطيع أن أفهم ما الذى حدث لى.»

شرحت لها بأن ما تختبره الآن هو ما يقول عنه الكتاب «التوبة». «ماريا أنت لن تستطيعى أن تحصلى علي الحياة فى المسيح إلا إذا قررت أن تتركى طرقك السابقة. قولى لى هل تريدين ترك طرقك القديمة؟ هل تريدين التخلص من حياة المخدرات و العهر وأن تدفنيها و تنسيها للأبد؟»

«بالطبع، نعم، نعم، نعم.» كانت تبكى بحرارة. «فأنا أريد أن أفعل أى شىء لأتخلص مما أنا فيه.»

سألتها، «هل ترغبين فى الموت عن ذاتك؟»

فأجابتنى: «نعم ، عن حياتى و ذاتى.»

«إذن دعينى أقول لك عن المحبة الرائعة و الجميلة و العظيمة التى يمكنها أن تقبل حتي شخص مثلك و تطهره و تعيد له الحياة و النقاء. دعينى أحدثك عن يسوع.» و صرت أتحدث معها لمدة عشر دقائق عن محبة الله التى انسكبت لنا فى يسوع المسيح.

وضعت رأسها بين يديها وبكت بحرقة. توجهت إليها واضعاً يدى علي كتفها. «ماريا لنركع معاً ونصلى...» وقبل أن انهى كلامى كانت علي ركبتيها تصلى. كنت أشعر بالثورة التى بداخلها. لقد قبلت ماريا المسيح مخلصاً شخصياً لحياتها.

بعد حوالى شهر جاءت ماريا إلى مكتبى. كانت رغبتها الشديدة تجذبها نحو المخدرات من جديد وكانت تريد ترك المركز حيث كان صديقها جونى قد ترك المركز لتعاطيه المخدرات مرة ثانية فى منتصف الليل.

قمت وأغلقت الباب من خلفها و قلت: « «ماريا» لا يوجد شىء آخر أهم فى حياتى من مستقبلك. لنتكلم بشأن ما قد حدث فى حياتك.»

كانت مستعدة. رجعت بذاكرتها إلي سن التاسعة عشر من عمرها عندما تخرجت من الثانوية العامة. تركتها تتكلم.

«كان «جونى» هو أول من علمنى تدخين الماريجوانا. يومها حدثتنى صديقاتى عن خبرتهن فى تدخينها. فقالت لى بأنها لا بأس بها طالما لن أتمادي فيما هو أقوي منها. كان «جونى» دائماً لديه جرعات إضافية وكنا نشعر بالمتعة و نحن نقوم بهذا معاً.»

توقفت «ماريا» عن الحديث بعض الشىء، و كأنها قد تذكرت أول أيامها فى السقوط إلي الهاوية، كنت أشعر بأنها مثل بقية كل المدمنين الذين كانوا يأتون إلي المركز. إذ أن تسعين فى المئة منهم بدأ بتعاطى «الماريجوانا» وانتهي «بالهيروين». كنت أعلم تماماً ما الذى ستقوله و لكنى أردت أن تعبر هى عما بداخلها. «حدثينى يا «ماريا» ماذا كانت النتيجة؟» فهدأت بعض الشىء فى مقعدها و كانت نصف عيناها مغلقتين وهى تقص لى بقية الحكاية.

«كنت أعتقد أن مشاكلى سوف تتبخر بعد أن أتعاطي المخدرات. فى يوم مرة شعرت بأنى أحلق أميالاً و أميالاً فوق الأرض. ثم بدأت أنهار. تركت أصابع يدى لتحلق وحدها فى الفضاء ثم تركت كفى. بعدها تركت ذراعى ثم قدمى ثم جسدى. وهكذا تحولت إلي ملايين الأجزاء التى تحلق فى الفضاء الهادئ.»

صمتت ثانية حتي استجمعت نفسها وقالت: « لكنى لم أتوقف عند هذا الحد. كنت أرغب دائما باحتياجى إلي ما أقوي بكثير. كان ذهنى قد سيطر عليه بالكامل.»

«وهكذا أعطانى «جونى» جرعتى الأولي. بعد أن ظل لعدة أسابيع يحدثنى عنها. وذات مساء كنت أبكى طوال اليوم.فقد كان كل شيء فى حياتى يسير فى الاتجاه المعاكس ضدى، فى هذا اليوم دخل جونى على ومعه حقنة وملعقة. كنت أعلم ما الذى كان سيقوم به ولكنه كان يشعر بالثقة الشديدة من أنه سيساعدنى فتركته يساعدنى بالفعل. لم أكن أعلم شيئاً عن إدمان المخدرات حينئذ. ولكنه أكد لى بأنى سأشعر بتحسن كبير».

شد الحزام بقوة حول ذراعى حتي ظهر الوريد تحت جلدى. فافرغ كل المسحوق الأبيض الذى يشبه السكر البودرة من ظرف فى الملعقة. أضاف ماءً من القطارة وأشعل ثقاب الكبريت تحت الملعقة حتي بدأ السائل يغلى. استخدم القطارة مرة ثانية ليشفط بها سائل «الهروين». ثم بخبرته الفائقة أفرغه مرة أخري فى الحقنة حيث حقننى فى الوريد. ثم و بحرص شديد أفرغ السائل فى نهاية الحقنة. ثم وضع القطارة إلي جانب حتي اختفي السائل فى الوريد. لم أشعر بشيء إلا وهو ينزع الحقنة. لم أكن أعرف حينئذ بأنى قد أصبحت مدمنة.

قلت له: «جونى أنا أشعر بالغثيان.»

فقال لى: «سوف تتحسنين الآن يا عزيزتى. اهدئى وبعد قليل ستشعرين بأنك تحلقين فى السماء. لقد وعدك «جونى» وهو لا يرجع أبداً فى كلمته. أليس كذلك؟»

«لكنى لم استطع أن أسمع ما يقوله. فبدأت أرتفع وقبل أن أتحرك تقيأت علي الأرض. ثم سقطت من علي السرير وبدأت أرتجف وأتصبب عرقاً. فجلس «جونى» بجانبى وأمسك بيدى. بدأت أهدأ وبعد قليل صرت أشعر بدفء السائل وهو يتدفق فى جسمى. ظننت بأننى أحلق نحو سقف الغرفة كنت أرى أمامى وجه «جونى» وهو يبتسم لى. انحني نحوى وهمس لى قائلاً: «كيف حالك الآن يا عزيزتى؟»

فهمست له: «رائع، إنه لأمر رائع جداً. بدأت حينئذ بدأت رحلتى نحو الجحيم.»

«لم أحصل على الجرعة الثانية إلا بعد أسبوع. وهذه المرة عندما عرضها «جونى» على كنت مستعدة تماماً لها . فأعطانى الجرعة الثالثة بعد ثلاثة أيام. ثم لم يكن جونى مضطراً لأن يعرضها على لأنى كنت أطلبها منه. لم أكن أعرف آنذاك ما الذى أفعله، لكنى أصبحت مدمنة

وسقطت فى هاوية الإدمان.»

وهكذا جاء جونى فى الأسبوع التالى إلي منزلنا و كنت قد بدأت أرتجف فطلبت منه جرعة.

فقال لى: «الآن استمعى لى يا عزيزتى أنا أحبك وبيننا علاقة وكل هذه الأمور، لكن هذه الجرعة ستتكلف أموالاً طائلة. فهل تعرفين ذلك؟»

«من فضلك يا «جونى» أتوسل إليك. لا تغيظنى. ألا تري بأنى فى حاجة إلي جرعة أخري الآن ؟»

توجه « جونى» نحو الباب قائلاً لى ليس اليوم فأنا لا أملك المال أو الوقت حاولى أن تتماسكى اليوم». فصرخت به: « جونى، لا تتركنى . من فضلك لا تتركنى.لكنه كان قد ذهب و سمعته وهو يغلق الباب من خلفه.»

حاولت أن أسيطر علي نفسى لكنى لم أستطع فعل شىء. فذهبت إلي النافذة

و رأيته يقف فى نهاية الشارع يتكلم مع فتاتين. كنت أعرف من هم . كانتا تعملان لحسابه. كان يشير إليهما وكأنهما جزء من إسطبله الخاص. فقد كانتا عاهرتين تجلبان المال ليشترى به المخدرات فكانت هذه هى تجارتهما. كان جونى يعطيهما جرعتهما بانتظام فتبيعان للزبائن أيضاً المخدرات التى يحتاجون إلي شرائها.

«وقفت هناك فى النافذة أشاهده وهو يضع يده فى جيبه ويعطى كل فتاة ظرفاً أبيضاً صغيراً. كنت أعلم بأن به المخدرات. ظللت أشاهده وهو يعطيهم « الهيروين» العزيز على ولم أكن أستطيع الاحتمال أكثر من هذا. لماذا يعطيهما الهروين ولا يعطينى أنا شيئاً؟ يا رب إنى فى حاجة له».

«فجأة وجدت نفسى أصرخ، جونى، جونى» كنت أصرخ من النافذة بأعلي صوتى. فنظر إلى وعاد إلي شقتى. عندما دخل كنت علي السرير أبكى وأرتجف. كنت قد فقدت أى سيطرة علي نفسى.

فأغلق الباب من خلفه . وجلس بجانبى علي السرير، حاول أن يكلمنى. لكن قبل أن أنطق بكلمة شعرت بيده وهى تصفعنى بقوة علي فمى.

فكان يصرخ فى: «ما الذى تحاولين فعله بحق الجحيم؟ هل تريدين أن يقبضوا على أم ماذا

«جونى من فضلك ساعدنى. أنا احتاج إلي جرعة أخري. رأيتك وأنت تعطى الفتيات «الهروين». لماذا لا تعطينى منه؟ من فضلك؟».

كنت وقتها قد وصلت إلي درجة كبيرة جداً من اليأس. كنت أرتجف وأبكى فى نفس الوقت الذى كنت أتذوق فيه طعم الدماء الخارجة من فمى، لكنى لم أكن آبه لها. كل ما كنت أريده هو الحقنة.

ابتسم « جونى» قائلاً : « والآن استمعى لى يا عزيزتى أنت مختلفة جداً عن كل هؤلاء الساقطات اللواتى فى أسفل. أنت من مستوي اجتماعى عال جداً، لكن هذه المخدرات ليست بلا مقابل. فهى تتطلب تكلفة ما وهى غالية جداً. فهؤلاء الفتيات هناك فى الأسفل يعملون لجلب المخدرات الخاصة بهم. فما الذى ستفعلينه أنت من أجل شراء جرعتك ؟ هه؟»

«سوف أعمل يا « جونى». سوف أعمل ما تريده .لكن أعطينى فقط الحقنة.»

فقال « جونى» : «أنا لا أعلم. فأنت فى مستواك الاجتماعى المرتفع جداً لا يمكننى معه من أن أدعك تعملين معهم فى الشارع.»

« « جونى» سوف أفعل أى شئ. فقط قل لى ما الذى تريدنى أن أفعل. ركعت عند قدميه و وضعت يدى حول ركبتيه وقدميه حتي لا أسقط علي الأرض».

«هل تعنين بأنك سوف تفعلين أى شئ أطلبه منك، حتي ولو كان الوقوف فى الشارع مع العاهرات؟» ثم صمت للحظة، ثم قال بحماس: «إذا أنت تستطيعين أن تقومى بهذا العمل يا عزيزتى، أنا أعلم بأنك تستطيعين إن أردت ذلك. ياه، فأنت ستنجحين أكثر من كل هؤلاء لأن الرجال سيتهافتون عليك من كل مكان وسنستمر فيما بيننا فى علاقتنا بكل قوة. ما رأيك؟ فسوف أحصل بهذه الطريقة علي أموالاً طائلة، أستطيع بها أن أشترى لك المخدرات التى تحتاجينها. ولن تضطرى لأن تعانى فيما بعد. ما رأيك؟ هل هذا ما تريدينه؟»

« نعم يا « جونى» نعم، نعم. أعطنى فقط الحقنة.»

«سار « جونى» إلي الموقد وأشعله. اخرج ملعقته ونثر عليها بعضاً من البودرة البيضاء فى أسفل الملعقة و مررها فوق النار. ثم ملأ الحقنة و سار نحوى حيث كنت جالسة علي الأرض.»

«يا حبيبتى هذه بداية تحقيق أحلامنا معاً. وأنت تساندينى هكذا سوف نلمس القمر.» ثم شعرت بالحقنة وهى تخترق وريدى. توقف حينئذ الارتجاف فى ثوان معدودة. فساعدنى «جونى» علي الوقوف ووضعنى علي السرير حيث خلدت فى نوم عميق. لكن «جونى» كان مخطئا. لم تكن بداية للحياة السماوية. لكنها كانت بداية لرحلة طويلة وكابوس مفزع استمر لمدة ثمانى سنوات مريرة. لم تكن هذه هى السماء، لكنها كانت الجحيم.

«بل كانت فى أعمق هوة للجحيم، حيث تستمر فى السقوط للأسفل وكأنك لن تصل للأرض أبداً. ففى الوقوع فى إدمان المخدرات ليست أمامك أية فرصة للتوقف أو الاكتفاء عند حد معين. وليست هناك أية طريقة أخري تستطيع بها أن تسيطر علي نفسك. لقد كنت فى طريقى إلي الهاوية التى لا توجد نهاية لها.»

لم يكن «جونى» ليستخدمنى هكذا إن لم أكن مدمنة. وعندما أصبحت عبدة للمخدرات صرت أيضا عبدة له. كان على أن أفعل ما يطلبه منى. وكان يطلب منى أن أصبح عاهرة حتي أجلب له المال. كان لدى ما يكفينى من المخدرات دائماً، لكنى لم أشعر أبداً بأنى أحلق فى السماء كما كان يقول.

وبعد فترة علمت بأن «جونى» كان علي علاقة بامرأة أخري. كنت أعلم بأنه لم يكن راغباً فى الزواج بى ولكنى لم أظن أبداً بأنه كانت لديه فتاة أخري غيرى. غير أنى اكتشفت هذا الأمر بأصعب طريقة ممكنة.

كان كل شىء يسير ببطء فى الليلة السابقة ثم نهضت وذهبت إلي الشارع بعد الظهيرة لأتسوق قليلاً. كنت أحب أن أخرج لبعض الوقت وحدى حتي أنسي ما أنا فيه و أتظاهربأنى مثل باقى الناس. كنت أقف علي زاوية الشارع فى «هيكس و اتلانتك» انتظر تغيير الإشارة حين شعرت بأن هناك يداً توضع علي كتفى وتجذبنى للخلف.

«هل أنت ماريا أليس كذلك؟» كانت امرأة سمراء شعرها طويل وأسود يتطاير علي كتفها. كانت عيناها تتقدان بالشر. وقبل أن أجيبها قالت: «نعم أنت هى. فقد رأيتك من قبل. أنت التى علي علاقة بزوجى. سوف ألقنك درساً أيتها العاهرة الرخيصة.»

حاولت أن أبتعد عنها، لكنها صفعتنى علي وجهى. ثم تغيرت الإشارة وبدأ الناس يعبرون الطريق و لكن لم يدفعنى أحد بهذه الطريقة أبداً من قبل. فرفعت يدى وحاولت الإمساك بشعرها

ثم دفعتها للخلف فى نفس الوقت.

فصرخت مثل امرأة متوحشة وقالت لى:«أيها الساقطة. تنامين مع زوجى. سأقتلك.» كانت هائجة جداً. فضربتنى بحقيبتها بعنف فتراجعت. لكنى ألقيت بجسدى عليها فوقعت علي الأرض أمام حاجز مدخل النفق . شعرت بأن بأنفاسها تلهث فقد كان ظهرها قد اصطدم بعنف علي حاجز أنبوب حديدى. جذبت رأسها بيدى ودفعتها للخلف علي الأنبوب ثم إلي أسفل درجات السلم الأسود الذى كان يقود إلي النفق. كنت أريد أن أضع أظافرى فى عينيها لأنى كنت أعلم جيدا إنى أستطيع أن أصيبها. شعرت بجلدها يتمزق وأنا أخرج يدى من فمها وهى تصرخ من شدة الألم.

وعندما بدأت أتراجع وجدت شخصاً يجذبنى من الخلف وتدخل الجمع فيما بيننا ليفرقونا. الرجل الذى جذبنى من الخلف دفعنى للوراء حيث تعثرت وسقطت. كان الجمع لا يزال حول المرأة الأخري فهرعت أنا عبر الشارع إلي الرصيف علي الجانب الآخر.

لم أنظر إلي الوراء أبداً ، لكنى ظللت أركض نحو شقتى حيث نقعت يدى وطلبت من جارتى أن تضمد لى جرحى... ولم أرها بعد ذلك.

لم أعد يومها بأى التزام من «جونى». لأنى كنت أعلم بأنى أستطيع أن أجلب ما أريده من مخدرات من خلال أى رجل آخر أنا علي علاقة به حيث كان سيرحب أياً منهم بالعمل معى. لذا فقد أصبح الإدمان كابوساً لا ينتهى. وهكذا كنت انتقل من رجل لآخر. كلهم كانوا مدمنى مخدرات. كنت أبيع جسدى لهم وهم كانوا يسرقون المخدرات لى.

تعلمت أن أعمل مع فتاة أخري. كنا نستأجر غرفة لمدة ليلة. ثم نذهب إلي الخارج فى الشارع وننتظر. كان بعض الرجال زبائن معتادين. وكان معظمهم غرباء. زنوج. شرقيين. «برتوريكانس». بيض.....لكن أموالهم كانت هى العنصر المتشابه فيما بينهم.

كنت أقضى بعض الليالى بدون عمل . و فى ليال أخري كنت أعاشر من تسعة إلي عشرة أشخاص فى الليلة الواحدة. حيث كانت هذه هى الليلة المربحة بالنسبة لى.

لكن بعد ذلك كان يتطلب منى الأمر أربعين دولاراً حتي أجلب لنفسى المخدرات كل يوم وكان معني هذا بأنه على أن أعاشر خمسة زبائن فى الليلة الواحدة، كى أستطيع الاستمرار فى شراء جرعتى المعتادة.

كانت حياتى بمثابة الجحيم. عندما كنت أنام أثناء النهار كنت أستيقظ من هول كوابيسى. فقد كنت سجينة جسدى وأنا السجان. ولم يكن هناك أى مخرج لى بسبب الخوف وبشاعة الخطية.

كنت أخشى المخمورين. كان بعضهم سادى وعدوانى ومتوحش. إذ أن معظم الفتيات كانت قد تعرضت للتعذيب بأفعال غير طبيعية. فقد ذهبت إحدي الفتيات ذات مرة مع رجل كان يحصل علي متعته معها من ضربها بالحزام. كان دائماً نصف مخمور وإلي أن يدخلوا الغرفة حتي يصاب بجنون الإثارة، فيجعلها تخلع ملابسها ثم ينزع حمالة صدرها ويربط بها يدها إلي مقبض الباب و يضربها علي بطنها وصدرها بحزامه حتي تعيا من كثرة الصراخ.

كنت أفضل أن استخدم الغرفة التى استأجرتها بنفسى. ففى بعض الأحيان كان الرجال يريدون منى الذهاب معهم إلي شقتهم أو إلي غرفهم بالفندق الذى يقيمون فيه. كان بعضهم رجال أعمال يأتون إلي المدينة سواء فى الرحلات أو المؤتمرات. لكنى كنت أخاف الذهاب إلي غرفة أى رجل. فقد حدثت أمور رهيبة لم يعد فيها بعض الفتيات ثانية.

وكان بعض الرجال يخافون أن يذهبوا معى إلي غرفتى لئلا يقبض عليهم فيما لو قبض على . كانوا يريدون منى أن أذهب معهم فى سياراتهم.

بعد تجربتين مريرتين وضعت حداً لهذا الأمر. فقد تركنى رجل منهم فى الجانب الآخر من المدينة وكى أستطيع العودة إلي شقتى عبر النفق اضطررت أن أقضى الليل كله أسير علي قدمى لأنه كان قد سرقنى. رجل آخر أخذنى إلي شارع مهجور. كان مخموراً جداً فأمرنى بأن أعيد له ماله. وعندما رفضت صوب المسدس نحو رأسى وشد الزناد. لكن الطلقات أخطأتنى فهربت وكانت هذه هى آخر مرة أذهب فيها فى سيارة مع أى شخص.

لم يكن الرجال الذين بالشارع هم فقط من يسبب لى المشاكل. لقد كنت فى مشاكل دائمة مع الشرطة. زج بى فى السجن إحدي عشر مرة عبر الثمانى سنوات الماضية لإدمانى. كان أقصي عقاب أمضيته بالسجن ستة أشهر. وكنت قد سجنت لعدة أسباب. سرقة المتاجر، إدمان المخدرات، التشرد وبالطبع الدعارة.

كنت أكره السجن . ففى أول مرة لى فى السجن ظللت أبكى و أبكى. ووعدت نفسى بأن لا أتورط فيما بعد فى أى شيء يمكن أن يزج بى فى السجن. ولكن بعد أربعة أشهر عدت إلي طرقى مرة ثانية. وهكذا رجعت عشرة مرات.

كانت الشرطة تزعجنى دائماً. حيث كان يأتى إلىّ رجل شرطة كل يومين، وأنا واقفة بالشارع محاولاً أخذى لأنام معه. لكنى كنت أعلم بأنى لن أحصل منه علي المال لذا لم أكن أذهب معه قط.

إلا أن احتياجى «للهيروين» كان يمزقنى. تذكرت أول جرعة زائدة أخذتها بنفسى. كنت لا أزال أعمل فعدت لانتقل للإقامة مع أمى. تركت «جونى» حينئذ ، كانت أمى تعمل فى مصنع و أنا أعمل فى مكتب. فقلت لها بأنى أريد شراء بعض الملابس الجديدة لعملى و رجوتها أن تأخذ قرضاً من البنك.

يومها عدت إلي شقتى باكراً وأخذت المال من المكتب و ذهبت إلي «هارلم» حيث يقطن تاجرى المخدرات و اشتريت منهم «هروبين». خبأته فى حمالة صدرى ثم ذهبت بعد ذلك إلي قبو منزل حيث كان يعيش هناك بعض من المدمنين. كنت يائسة مرتجفة. ملئت الحقنة من غطاء الزجاجة الصغيرة وحقنت نفسى فى الوريد. كنت أعلم حينئذ بأننى أخطئت فى أمر ما. أصبت بالدوران ثم أغشى على. ثم شعرت بأن هناك شخصاً ما يداعبنى و يحاول أن يوقفنى على قدمى.

ربما خاف منى عندما لم أتجاوب معه. بعد ذلك نزع شخص آخر حمالة الصدر عنى ثم بقية ملابسى بعدها جذبنى إلي خارج القبو تاركاً إياى ملقاة علي الرصيف.

عندما استيقظت وجدت نفسى فى «بيلافيو» . فقد كانت الشرطة قد وجدتنى فأخذتنى إلي المستشفي. بعض المدمنين كان قد سرقنى. كل المال الذى كان بحوزتى سرق.

وهناك حول سريرى وجدت ثلاثة من رجال الشرطة يلقون على الأسئلة فى نفس الوقت. فقلت لهم بأنى كنت أحتسى الخمر، لكن وضع لى أحدهم شيئاً فيه. و كان الطبيب قد كتب فى سجلى «جرعة زائدة». هذه هى أول مرة من ثلاثة مرات تالية.

وآخر حادثة لى كادت تقتلنى.

كنت أحتسى الخمر فى غرفتى. كانت توليفة من نبيذ رخيص مع جرعة زائدة من «الهروين» وهى التى كادت أن تقتلنى.

سقطت نائمة علي سريرى و وقعت السيجارة علي شعرى. أتذكر هذا الشعور الغريب فعندما

كنت أحلم أحسست بأن يد الله لمستنى و ظلت تهزنى لفترة. أتذكر نفسى لحظتها وأنا أقول:«اللعنة، اتركنى وحدى. أوقف هذا الاهتزاز.» لكن لم يتوقف الهز أبداً. فاستيقظت وأنا أشعر بأن هناك خطأ ما فى مكان ما.كنت أستنشق رائحة فاسدة كرائحة لحم يحترق. حاولت أن أقف لكنى سقطت علي الأرض. فصرت أحبى نحو المرآة ثم وقفت ونظرت لنفسى. لم يكن هذا هو وجهى. كنت صلعاء. لقد احترق شعرى كله. كان وجهى ملىء بالتقرحات وجلدى محترق. كانت أذناى تقريباً محترقة. والدخان الخارج منها يشبه دخان رغيف يحترق ويخرج من أذنى الاثنتين. كانت يداى محترقتين والتقرحات تملأها. عندها بدأت أحاول إطفاء النار.

صرت أصرخ. فجاء إلى رجل من عبر الممر كان قد سمع صراخى الهستيرى و كان يعلم بأنى مدمنة فقرع الباب بقوة. حاولت الوصول إلي الباب فوضعت يدى علي مقبضه لكن التصق جلدى بالمقبض عندما حاولت أن فتحه. فانسلخ الجلد عن يدى و لم استطع فتح الباب.

بطريقة ما استطاع هذا الرجل فتح الباب من الجانب الآخر. كان يريد أن ينقلى إلي المستشفى لكنى رفضت. وسألته أن يأخذنى إلي شقة صديقتى «إيناس». ففعل كما طلبت منه. أمضيت الليلة هناك.

لكن الحروق كانت من الدرجة الثالثة والألم لا يحتمل. كنت أخاف من المستشفي. فقد ذهبت هناك من قبل. وكنت أعلم بأنى إذا ذهبت كان على إذاً أن أقلع عن المخدرات وأن أشفي تماماً. ظننت بأننى لن أستطيع تحمل كل هذه المشقة. كنت سأموت ولكنى كنت أخشي الموت.

لكن فى اليوم التالى أجبرتنى «إيناس» علي الـذهاب إلي المستشفي. وهى لم تكن مضطرة لأن تضغط على أكثر من ذلك.لأنى كنت أعلم بأنى سأموت إن لم أذهب إلي هناك. مكثت فى المستشفي شهراً ونصف الشهر حتي تماثلت حروقى للشفاء.

بعد أن خرجت من المستشفي ذهبت ثانية إلي الشارع. أخذت أول جرعة لى بعد خروجى من المستشفي بخمس وأربعين دقيقة وفى تلك الليلة عدت من جديد إلي طريقى القديم. لكن الآن صار الأمر شاقاً على فبسبب الحروق والندوب. فلم يكن هناك من يرغب فى . كانت ملابسى مغطاة بحروق السجائر وبقع القهوة. كان جسدى قذراً جداً وذا رائحة كريهة. كنت أحيانا أسير فى الشارع أشحذ. وكاد الإدمان يدفعنى إلي الجنون.

لكن كان هناك صديق لى أسبانى اسمه «رينيه» اعتاد أن يتكلم معى فى الشارع. كان مدمناً

لكنه تعرف علي هيئة تحديات المراهقين هذه وشفى من الإدمان.ثم أصبح مؤمناً وأثناء الأشهر السابقة كان يلاحقنى لأذهب معه وأتغلب علي إدمانى.

وفى ليلة باردة من ليالى شهر مارس كنت أتحرق بشدة لأخذ جرعتى المعتادة. فتعثرت فى الشارع عند زاوية «٤١٦ كلينتون» وسقطت علي درجات السلم بجانب المكتب.

كان «ماريو» جالساً وراء طاولة المكتب فى تلك الليلة لكنه رآنى. فنادي «جلوريا». فرفعتنى برفق واستندت عليها ثم سرنا نحو الباب الجانبى أمام المكتب فى الكنيسة الصغيرة.

قالت لى، «أركعى يا ماريا، أركعى وصلى.» كنت فى غيبوبة وشعرت بأنى أموت. ولكن إن كان هذا سيبقينى علي قيد الحياة فسوف أفعله. فركعت علي الأرض وراء أحد المقاعد ولكن قبل أن أركع بدأت أتقيأ. تقيأت كل ما بداخلى علي ملابسى وعلي الأرض. بدأت أبكى وأرتجف ثم سقطت تماماً علي الأرض ويدى الاثنين أمامى علي قيئ.

نظرت لفوق حيث كانت تلتف حولى بعض الفتيات الأخريات. تعرفت علي بعضاً منهم لأنهن كن معى فى السجن، لكنهن أصبحن مختلفات الآن. فقد كانت هذه الفتيات كالملائكة تحلقن فى الهواء من خلال المقاعد والمناضد ويتوجهن نحوى ببطء. كن يبتسمن لى . فقد كان هناك بريق ما علي وجوههن. كانت عيونهن تلمعن ليس من المخدرات، لكن من ضوء داخلى يشع إلي أعماقى.

كنت أشعر بالدوران كان رأسى يلف ويلف. كانت «جلوريا» بجانبى وكنت متيقنة بأنى مستلقية علي قيئى. استدرت برأسى محاولة البكاء، لكنى لم أستطع حتي أن التنهد.

التففت الفتيات من حولى وكنت أسمعهن يصلين. وقفت «جلوريا» علي قدميها ثم شعرت بيدها علي رأسى. فسارت فى داخلى قوة كهربائية روحية حتي أنى سقطت علي الأرض وهكذا كانت تنقل بيدها الرقيقة إلي كل أنحاء جسدى المحترق.

سمعت صوت موسيقى. كانت بعض الفتيات يرنمن. فقمت لكنى تقيأت مرة ثانية.

بعدها قلت لهم: «من فضلكم هل أستطيع الذهاب إلي الفراش؟»

شعرت بيد قوية توضع من تحت ذراعى حيث حملتنى تقريباً إحدي الفتيات إلي أعلي السلم. ثم سمعت صوت الماء وهو ينزل علي جسدى وشعرت بالملابس توضع على. كنت مريضة جداً

لدرجة أنى لم أكن أهتم بما يحدث لى . كنت أعتقد بأنى سأغرق. ثم ظننت بأنهن مجموعة من مجموعة من الأشرار يريدون قتلى.

ومع ذلك لم أكن اهتم لكل هذا.

وضعونى برفق تحت الماء ونظفونى تماماً. كانت أول مرة لى منذ شهور أستحم فيها حيث كان هذا الأمر منعشاً لى .ثم ساعدونى لأجفف نفسى وأضع ملابس نظيفة على بعدها وضعونى فى سرير موجود بغرفة كبيرة مليئة بأسرة أخري.

سألتهم: «هل أستطيع أن أدخن.» فقالت لى «جلوريا»: «أنا آسفة يا ماريا فنحن لا ندخن هنا. لكن لدينا هنا بعض الحلوي. جربيها. أعتقد بأنها ستساعدك قليلاً».

سقطت علي السرير وبدأت أرتجف. وكل واحدة أخذت دورها فى تدليك ظهرى. وفى كل مرة كنت أسال فيها عن سيجارة كانت «جلوريا» تضع الحلوي فى فمى.

جلسن معى ليومين و ليلتين. فى أثناء الليل كنت أستيقظ مرتجفة فأري «جلوريا» بجانبى تقرأ لى الكتاب المقدس أو تصلى بصوت مرتفع. لم أكن وحدى أبداً.

فى الليلة الثالثة قالت لى « «جلوريا»: «ماريا» أريدك أن تأتى معى إلي الأسفل لتستمعى للخدمة فى الكنيسة.» لقد كنت أشعر بضعف شديد. لكنى نزلت إلي الكنيسة وجلست علي المقعد الأخير فى الغرفة.

كانت هذه هى الليلة التى وعظت أنت فيها. وفيها أتيت إلي هنا إلي هذا المكتب وركعت هنا أصرخ وأطلب الله.

توقفت حينئذ ماريا عن الحديث. كان رأسها محنياً للأمام وعيناها تحملقان فى الكتاب المقدس الذى كان علي المكتب.

فهمست لها برفق: «ماريا، ألم يسمع الله هذه الصرخة؟»

فنظرت إلى و قالت: «آه يا «نيكى» فأنا لم أشك ولو للحظة فى هذا الأمر. ولكن عندما يمزقنى احتياجى إلي المخدر استسلم له.» ثم نزلت الدموع علي وجهها وهى تقول: «فقط استمر فى الصلاة لأجلى. فبمساعدة الله سأتغلب علي المخدرات.»

الفصل السادس عشر
مع المسيح فى «هارلم»

كان «دافيد» يقضى فى الشارع معظم وقته، لتطويع عاملين جدد للعمل أثناء فصل الصيف وليجمع المال للمركز. وبمرور الوقت تناقصت أوقات احتكاكه مع المدمنين فى المركز، فوجد نفسه يعمل كمدير إدارة فلم يكن يريد أن يلعب هذا الدور، لكنه كان قد فرض عليه من واقع الاحتياج.

وكانت أكثرية خدماتنا تنجز فى اجتماعات الشوارع والمقابلات الشخصية فى زوايا الطرقات . فتقريبا كل مساء كنا نعد الرصيف الذى ستقام عليه الخدمة ، مع مكبرات الصوت فى بعض الأحياء الشعبية فى المدينة.

ذات مساء قمنا أنا و «ماريو» ومجموعة صغيرة مستخدمين أتوبيسنا الصغير لنتوجه إلي «هارلم الأسبانى». كنا نوزع النبذ ونحاول جمع الناس من حولنا من أجل حضور الخدمة، لكن كانت الاجتماعات تلاقى أقل نسبة نجاح.

قال لى ماريو: « لا تقلق سوف آتى بالناس.»

فقلت له: «لا، ليس فى هذا المساء. فأنا لا أري بأن أحداً يهتم. لذلك أعتقد بأنه فمن الأفضل لنا أن نجمع أشيائنا ونعود أدراجنا.»

فقال لى ماريو: «لا، سوف نأتى بمجموعة من الناس. أنت والآخرين استعدوا وضعوا مكبرات الصوت فى أماكنها. فى أقل من ساعة سوف نقيم أكبر اجتماع فى الشارع لم يحدث من قبل.»

«يا رجل كيف سنقيم اجتماعنا دون أن نجد الناس؟ هم غير مهتمين بهذه الأشياء اليوم.»

«لا بأس دعنى أتولي أنا هذا الأمر فقط. وكان يبتسم ببعض الخجل وهو يسرع فى الشارع متوجها إلي زاويته».

بدأنا نضع معداتنا. لقد كانت حقا مغامرة إيمان. كنت أشعر كأن نوح يبنى مركبه فوق جبل جاف. ولكننا وثقنا بأن الله سيغدق علينا من بركته.

وقد حدث بالفعل. فبعد خمسة عشر دقيقة كنا قد انتهينا ثم عدنا ثانية إلي زاوية الشارع نوزع النبذ فوجدنا جمع كبير من الأولاد يركضون نحوى فى الشارع. كانوا يلوحون لى بعصا «البيسبول» ويصيحون بأعلي صوتهم. التفت وتوجهت نحو المسرح عندها رأيت جمع آخر فى الاتجاه المعاكس يتجه نحونا ويصيحون ويلوحون هم أيضاً. فظننت بأنه: «لابد لنا من أن نرحل من هنا. فهؤلاء الأولاد حتماً سيتشاجرون معى. لكن كان قد تأخر الوقت. فكنت محاصراً بالصياح والعصابات المختلفة. انتظرتهم حتي يبدأوا الشجار».

فجأة رأيت ماريو يركض فى الزقاق وسط البناية ويصرخ: «هيا جميعا فإن رئيس «الموموس» المتوحش من بروكلين سوف يتحدث معنا لمدة خمسة عشر دقيقة. تعالوا لتستمعوا إليه. تعالوا استمعوا إلي «نيكى كروز» العظيم والأكثر خطورة فى «بروكلين». تعالوا واستعدوا. فهو قاتل ولا يزال خطيراً.»

كان الجمع يخرجون من الشقق من خلال أماكن هروب الحريق ويركضون نحوى. يأتون إلي ويصيحون: «أين «نيكى»؟ نريد أن أراه. أين هو رئيس عصابة «الموموس»؟»

جاء إلى ماريو مبتسماً حيث قال لى: «أتري لقد قلت لك بأنى سأجلب لك الجمع.»

نظرنا حولنا، نعم.. فقد جاء حقاً بالجمع. كان هناك ما لا يقل عن ثلاثمائة صبى يقفون فى وسط الشارع. هززت رأسى وأنا أقول: «أتمني أن لا تتسبب فى قتلنا جميعاً يا رجل، فهؤلاء الصبية مجانين.»

كان ماريو لا يزال مبتسماً وهو يلهث من الجرى «هيا أيها الواعظ. فإن الشعب ينتظرك.»

بعد أن أخذت نفساً عميقاً ذهب ماريو إلي الميكروفون وأشار بيده ليصمتوا. كان الصبية يصغون إليه وهو يتكلم، وكان المكان أشبه «بكرنفال» حيث يجتمع الناس ليشاهدوا العرض.

«أيها السيدات والسادة. اليوم هو يوم عظيم. فإن رئيس «الموموس» المتوحش والأكثر شهرة ووحشية سوف يتكلم الآن لكم، أخطر رجل فى «نيويورك». الذى يخافه الصغير والكبير. ولكنه لم يعد قائد الآن. فهو القائد السابق. وفى هذا المساء سيحدثنا عن السبب وراء عدم بقائه رئيساً للعصابة، ولماذا

هو يتبع يسوع المسيح. والآن سوف أعطى الميكروفون إلي الوحيد والوحيد فقط «نيكى كروز»الرئيس السابق «للموموس».»

كان يصيح عندما انتهي من تقديمى لهم فذهبت وقفزت فوق المسرح ووقفت وراء الميكروفون. فبدأ الصبية فى الجمع يصيحون ويصفقون. وقفت هناك مبتسماً أحييهم بيدى وهم يرحبون بى. كان قد تعرف علىّ الكثير منهم ومنهم أيضاً كان قد قرأ عنى فى الجرائد. اجتمع تقريباً أكثر من مائتين من البالغين خلف كل هذا الجمع. ثم توقفت أمامنا سيارتان للشرطة كل واحدة علي جانب من الجمع.

رفعت يدى فبدأ الصياح والصفير والترحيب فى التوقف. وفى لحظة صمت الجمع، فشعرت بمسحة الروح القدس عندما بدأت أعظ. كانت الكلمات تخرج منى بسلاسة دون توتر. فقلت: «لقد كنت رئيساً «للموموس» وأعلم بأنكم كنتم قد سمعتم عنى قبلاً.»مرة ثانية بدأ الجمع يحيينى فرفعت يدى حتي يهدءوا ثانية.

«فى هذا المساء أريد أن أشرح لكم لماذا لم أعد رئيساً لعصابة «الموموس». لقد أصبحت الرئيس السابق لأن المسيح غير قلبى، ففى يوم ما وأثناء اجتماع كان يقام فى شارع كهذا استمعت إلي واعظ يقول لى عن شخص يستطيع أن يغير حياتى. قال لى بأن المسيح يحبنى. لم أكن أعرف من هو المسيح هذا. ولم أكن أعرف أحداً قد أحبنى من قبل. لكن «دافيد ويلكرسون» قال لى بأن يسوع يحبك. وأن حياتى الآن قد تغيرت لأنى سلمتها إلي الله فأعطانى هو بالتالى حياته. كنت دائماً مثلكم أجمعين. دائم الجرى فى الشوارع. أنام علي الأسطح. طردت من المدرسة بسبب مشاجراتى. كانت الشرطة تبحث عنى فى كل مكان وقد سجنت لعدة مرات. كنت خائفاً. لكنّ المسيح غير حياتى. أعطانى هدفاً لأعيش من أجله. أعطانى الرجاء. أعطانى سبباً آخراً للحياة. لم أعد أتعاطي المخدرات أو أقتل أو أتشاجر. لم أعد أظل مستيقظاً طوال الليل خائفاً. لم أعد أحلم بالكوابيس. والآن تستطيع الناس أن تتكلم معى عندما أعبر أمامها. والشرطة تحترمنى. وأنا متزوج وعندى طفلة صغيرة. ولكن أعظم ما فى الأمر هو أنى سعيد و لم أعد هارباً.»

كان الجمع صامتاً ومنتبهاً تماماً. أنهيت رسالتى ثم دعوت الناس لتسليم حياتهم عند المذبح. تجاوب مع الدعوة حوالى اثنان وعشرون شخصاً جاءوا وركعوا أمام الجمع عندما كنت أصلى.

عندما أنهيت صلاتى نظرت إليهم. كان ترك رجال الشرطة سياراتهم واقتربوا ليقفوا هناك بجانب وقد خلعوا قبعاتهم و أمسكوها بيدهم و أحنوا رؤوسهم. التفت بوجهى نحو السماء كانت الشمس مشرقة جداً فى «هارلم». حيث أصبحت «هارلم الأسبانية» الآن من أفضل الأماكن التى نحب أن نقيم فيها

الاجتماعات فى الشوارع. فقد رأينا فيها بأن الجمع يزداد من حولنا والاحتياج للكتاب المقدس صار شيئاً ضرورياً عن أى مكان آخر كنا نعظ فيه. كنت دائماً أذكر فريق العمل معى بهذه الكلمات: «أينما كثرت الخطية كثرت النعمة أيضاً.»

كانت «جلوريا» تعانى من ضغط شديد لتستطيع تقبل «هارلم الأسبانية». فهى غير قادرة علي أن تتعود علي الرائحة هناك. حاولت أن لا تتعامل بكبرياء، لكن رائحة المتاجر المفتوحة هناك كانت أكثر مما يمكن لمعدتها أن تحتمله. أيضاً كان الأمر صعباً بالنسبة لى حيث لم أعد أستطع التعود علي الذباب الكثير الذى كان يغطى اللحم والفاكهة والخضراوات.

بالإضافة إلي ذلك رائحة المدمنين .فقد كانت رائحتهم كريهة جداً. خاصة عندما نكون مجتمعين معهم فى زحام فصل الصيف حيث كانت الرائحة لا تحتمل.

تعلمنا الكثير خلال الأربعة أشهر الماضية بسبب الاجتماعات والعظات المقامة بالشارع. تعلمنا بأن الذين نجحوا بشكل كبير هم الذين خرجوا من الشوارع واستطاعوا الشهادة بتلقائية عن التغيير والتحول الذى صنعته فيهم قوة يسوع المسيح المغيرة. لم أكن ناجحاً فى وعظ المدمنين بقدر ما كان المدمنين السابقين ناجحين فى الوعظ. كنت أعلم بأنهم من أفضل وعاظنا. فقد كانت شهادتهم الأمينة والحقيقية ذات وقع قوى فى نفوس المدمنين. بعد مرور فترة من الوقت استطعنا أن نأتى بهم معنا أينما نمضى ليعظوا فى الشوارع. وأيضا كانت قد ازدادت المشاكل بسبب هذا الأمر.

ففى كثير من الأحيان وأثناء قيامنا بالوعظ كان المدمنون فى الشارع يحاولون أن يجربوا ويغيظوا رجالنا ونساءنا. فقد كانوا يشعلون النار فى الخشب أمامهم وينفخون الدخان فى وجوههم. كنت أحياناً أيضاً أري رجلاً يخرج حقنة وكيس من «الهروين»من جيبه و يلوح بها أمام أحد مدمنينا السابقين قائلاً: «يا حبيبى ما رأيك فى هذا ألا تفتقده؟ يا رجل فإن هذه هى الحياة. يجب أن تحاول.»كانت التجربة كبيرة جداً، لكن حياة هؤلاء كانت محاطة دائماً بحماية الله.

وجدت بأن ماريا بشكل خاص كانت لا تخجل من أن تقف هناك وتشهد للجمع عن حياتها السابقة فى الدعارة والإدمان والعلاقات وأيضاً عن نعمة الله ورحمته. كانت دائما شهادتها البسيطة تدفع الناس إلي البكاء وهى تتكلم عن الله كصديق شخصى لها. حيث أنه من خلال ابنه يسوع المسيح يجوب شوارع المدينة الصعبة ويلمس الناس فى أعماق خطاياهم ليعيد إليهم الحياة مرة أخري.

فمعظم هؤلاء لم يكونوا قد تعرضوا لله بهذه الطريقة من قبل. فكل ما كانوا قد سمعوه عن هذا

الإله قبلاً هو بأنه إله القضاء الذى يلعن الخطية ويجلد الناس المتصلفين مثل رجل الشرطة. أو هو ذلك الشخص البارد التقليدى الذى رأوه من خلال الكنائس التقليدية والباردة.

ذات يوم شهد شخص كان فى السابق عضواً فى عصابة وهو زنجى لا يزال ولداً صغيراً، كان قد أدمن «الهروين»منذ طفولته. واضطر لترك منزله وهو فى الثالثة عشر من عمره لأن شقتهم كانت مزدحمة جداً فلم يكن له أى مكان يقيم به. فى شهادته تكلم عن علاقات أمه المختلفة مع الرجال الذين كانوا يعيشون معها. وكيف كان ينام علي الأسطح وفى الأنفاق. أيضاً شهد عن الطعام الذى كان يختلسه والسرقة والشحاذة التى كان يقوم بها. إذ لم يكن لديه منزل يقيم فيه فكان ينام فى الأزقة وعلي أسطح المنازل. فقد كان يعيش كحيوان متوحش يجوب الشوارع.

فى أثناء حديثه بدأت امرأة تبكى فى الخلف. بطريقة هستيرية فذهبت إليها لأتحدث معها قليلاً. بعد أن توقفت عن البكاء قالت لى بأنه من الممكن أن يكون هذا الولد إبنها. فقد كان لديها خمسة أولاد جعلتهم يتركون المنزل ويعيشون بطريقتهم الخاصة فى شوارع المدينة. كان شعورها بالذنب أكبر مما تحتمله. فتجمعنا من حولها وصلينا لها. فألقت برأسها للخلف ونظرت إلي السماء تصرخ لله ليغفر لها ويحمى أبناءها أينما كانوا. و فعلاً لقد نالت فى هذا المساء سلاماً عجيباً من الله، لكن الضرر كان قد وقع بالفعل علي أولادها. كما فى آلاف الحالات الأخري المشابهة لهذه الحالة والتى لا يزال الضرر مستمر الحدوث فيها. شعرنا وكأننا نحاول أن ننقل المحيط بملعقة صغيرة. بالرغم من أننا كنا نعلم بأن الله لا يزال يتوقع منا أن نربح العالم بالشهادة والأمانة فقط. وهذا كان هو هدفنا الأساسى.

أقمنا فى إحدي أمسيات الخميس المتأخرة اجتماعاً فى زاوية حديقة مدرسة فى «هارلم الأسبانية». كانت ليلة صيف حارة، و فيها جمع كبير جاء ليستمع إلي الموسيقي الأسبانية وموسيقي ترنيم الإنجيل السريعة التى كانت تدوى من مكبرات الصوت.

كان الجمع يرقص ويتحرك مع الموسيقي. وعندما بدأت الموسيقى تلعب بنغمة سريعة وقف أولادنا وفتياتنا أمام الميكروفون يترنمون ويصفقون بالأيدى مع نغمات الموسيقي السريعة. لكن وفى إحدي الجوانب لاحظت بعض الضوضاء. كانت هناك مجموعة صغيرة من الناس ترقص علي نغمات الموسيقي. منهم ستة أو سبعة أشخاص يرقصون رقصات بهلوانية فى الشارع وهم يهزون أرجلهم ويرفسون بأقدامهم. فشتتوا انتباه بعض المشاهدين وبدءوا يحثوهم علي الضحك والتصفيق معهم. تركت موقعى وتوجهت نحوهم.

«أنتم يا أولاد. كيف ترقصون هنا؟ فهذه منطقة نفوذ المسيح.»

فقال لى أحدهم: «هذا الرجل هناك دفع لنا المال لنرقص هكذا. أتري لقد أعطانا هذا المال.»وأشاروا إلي رجل صغير فى السن ونحيل عمره حوالى ثمانية عشر عاماً كان يقف فى آخر الجمع. ذهبت إليه وما رآنى متجهاً إليه حتي بدأ يتراقص بشكل بهلوانى علي نغمات الموسيقي».

حاولت التكلم معه. لكنه ظل يرقص ويرفس بقدميه ويهز رجليه قائلاً: «يا رجل، هذه موسيقي تستحق الرقص هكذا، تشا.. تشا ... تشا، ....»

ظل يتراقص فى الشارع واضعاً يديه فى جنبه هازاً رجليه وملقياً برأسه للخلف مثل رجل متوحش يغنى: «بى بووو تشا تشا تشا..دم دم دم.. ارقص يا رجل ارقص.»

أخيراً أوقفته وقلت له: «يا رجل أريد أن أسالك شيئاً.»

لكنه عاد ليتراقص من جديد علي نغمات الموسيقي وهو يقول لى: «نعم يا حبيبى ماذا تريد؟ ما الذى تريده؟ دم دم دم دم ماذا تريد؟»

فقلت له: «هل أعطيت لهؤلاء الأولاد مالاً كى يرقصوا هكذا ويقطعوا اجتماعنا؟»وكان صبرى قد بدأ ينفذ. فقال لى وهو يلف متراقصاً: «نعم هذا حقيقى. فأنا الرجل الذى تريده. دا دا دا...»عاد ليهز جنبه وليرفس بقدميه متراقصاً ويلف ويدور.

ظننت بأنه مجنوناً. فقلت له: «لماذا ؟» وأنا أصيح به. «يا رجل ماذا بك؟»

«لأننا لا نحبكم. لا نحب المسيحيين. لا . لا. لا. لا نحب المسيحيين. دا دادا...»

كنت قد غضبت جداً، «حسناً يا رجل إما أن تتوقف الآن لنكمل اجتماعنا أو أن أطيح بك فى هذا المبنى كى لا أستمع إليك مرة ثانية.»

كان يري كم كنت جاداً بما أقوله ولكنه لم يستطع أن التوقف فى البداية لكنه بعد ذلك وضع يده على فمه كأنه خائف جداً ، حيث بدأ يسخر مما أقول. لكنه فى النهاية توقف عن الرقص.

ذهبت عائداً إلي الميكروفون، وعظت عن خبرتى التى نَمت فى «نيويورك» .ثم شهدت عن الفقر والقذارة والخجل والخطية التى كانت فى حياتى. ثم وعظت بعد ذلك عن خطية الآباء الذين يتركون أولادهم لينموا فى الخطية. ورجوتهم بأن يكونوا مثالاً جيداً لهم.

بدأ الناس يخلعون قبعاتهم فى أثناء حديثى. وكانت هذه هى إحدي علامات الاحترام والتقدير. ثم

رأيت الدموع فى أعينهم ومناظر المناديل المبعثرة. كنت أشعر بقوة المسيح تتحرك فى الوسط بطريقة خاصة ولكنى لم أدرك أبداً مدي التأثير الذى حدث إلا فيما بعد.

وأنا أتكلم لاحظت رجلاً عجوزاً كان يقف وسط الجمع الباكى. ثم وضعت فتاة صغيرة رأسها بين يديها وركعت فى الشارع وركبتاها العاريتين تتلامس مع الرصيف الصلب والقذر فتركت إحدي فتياتنا المجموعة وذهبت إليها وركعت بجانبها لتصلى من أجلها. وأكملت أنا عظتى.

كان من الواضح تماماً بأن قوة روح الله كانت فى هذا الاجتماع. وما أن انتهيت من العظة حتي دعوت الناس لتسليم حياتهم للمسيح فوجدت مدمناً علي طرف الجمع يبكى وينوح بالروح. فقد تواصلت روح الله مع روحه ونفسه،فأخرج ما بها من قمامة وألقاها بالشارع عند قدميه. بدأ يصرخ وهو راكع علي ظرفه الأبيض الذى يحتوى علي «الهروين». ويقول: «أنا ألعنك أيتها البودرة القذرة. لقد دمرت حياتى. بسببك تركتنى زوجتى وأولادى. لقد حكمت علي نفسى بالهلاك. ألعنك.. ألعنك..

ثم انهار علي الرصيف بعد ذلك راكعاً علي ركبتيه يبكى ويهتز بظهره ذهاباً و إياباً ووجهه بين يديه. فذهب إلي جانبه أحد العاملين معنا وأحاطه اثنين من المدمنين السابقين واحد وضع يده علي رأسه والآخر كان راكعاً جانبه وكلهم كانوا يصلون بصوت مرتفع وهو يصرخ ويبكى طالباً الغفران.

بعدها جاء إلي الأمام من ثمانية إلي تسعة مدمنين، ركعوا أمام الميكروفون. ذهبت من واحد إلي الآخر واضعا يدى عليهم لأصلى كنت اسمع صوت الزحام من حولى بالطبع كان يوجد الكثير من المتطفلين الذين كانوا يريدون معرفة ما يجرى.

بعد الخدمة أخذنا كل من سلم حياته للمشورة وأخبرناهم عن المركز. دعوناهم أن يأتوا ليعيشوا معنا حتي يستطيعوا الإقلاع تماماً عن المخدرات. بعض وافق علي المجىء معنا علي الفور. آخرين كانوا مترددين ورفضوا. بعضهم وعد بأن يأتى بعد أسبوع أو فيما بعد وسألونا أن نقبلهم.

عندما بدأ الجمع يتفرق تجمعنا لنقل معداتنا إلي الأتوبيس. لكن واحداً من هؤلاء الأولاد الذين كانوا يرقصون فى الشارع كان يشد سترتى. فسألته: ماذا تريد؟ قال لى: «بأن الرجل الراقص يريد أن يتكلم معى. فسألته أين هو فأشار عليه عبر الشارع فى الزقاق المظلم».

كان الوقت ليلاً ولم تكن لدى الرغبة فى السير عبر الزقاق المظلم حيث كان الرجل المجنون يختبأ. فقلت للولد أخبره بأنى سأكون سعيداً جداً بأن أتكلم معه هنا فى الشارع المضىء.

فذهب إليه الولد وعاد بعد بضعة دقائق. كنا قد انتهينا من جمع كل معداتنا. فهز رأسه وقال إنّ هذا الرجل يريد أن يرانى ولكنه محرج جداً من أن يأتى إلي النور.

فقلت للولد: «لا مقامرة». ولكنى فجأة تذكرت «دافيد ويلكرسون»وهو يأتى إلي قبو منزلى حيث كنت اختبأ بعد العظة الأولي التى كانت بالشارع. تذكرت عندما سار إلىّ وهو غير خائف وقال لى: «نيكى يسوع يحبك.» كانت هذه الشجاعة والمحبة هى التى لم تدعنى أهرب من محبة المسيح مخلصى.

لذلك وأنا أنظر إلي السماء السوداء طلبت من الله بأنه إن كان يريد منى الذهاب إلي هذا الرجل المجنون الراقص فلسوف أذهب. لكنى سأذهب بروحه وليس بقوتى أو بقدرتى وبأنى أتوقع منه أن يسبقنى إلي هناك ، خاصة فى هذا الزقاق المظلم.

عبرت الشارع ذاهباً إليه ثم توقفت أمام مدخل الزقاق. كان يبدو وكأنه مدخلاً لمقبرة. فصليت إلي الرب: «يا رب أنا متأكد من أنك ستتقدمنى.»ثم ذهبت. سرت وسط الحوائط القديمة فى الظلام.

ثم سمعت شخصاً يبكى بحرارة. تقدمت إليه وفى الضوء الخافت استطعت أن أراه متمدداً علي جانبه وسط علب وصناديق القمامة. كان رأسه بين رجليه وجسمه ينتفض بسبب نواحه. تقدمت نحوه وركعت بجانبه، كانت الرائحة الكريهة تملئ المكان. ولكن كان هناك احتياج بشرى ورغبة شديدة منى فى تقديم المساعدة أقوي حتي من رائحة الزقاق الكريهة.

كان الولد يبكى بحرقة قائلاً: «ساعدنى يا الله ساعدنى. لقد قرأت عنك فى الجرائد. وسمعت أن حياتك قد تغيرت تماماً وأنك ذهبت إلي مدرسة للكتاب المقدس. من فضلك ساعدنى.»

لم أكن أصدق بأن هذا هو نفس الرجل الذى كان قبل دقائق قصيرة يرقص ويغنى فى الشارع ويحاول أن يوقف الاجتماع بما كان يفعله.

«هل سيغفر لى الله؟ قل لى, هل تماديت كثيراً فيما أنا فيه؟ هل سيغفر لى؟ ساعدنى من فضلك.»

قلت له بأن الله يريد أن يغفر لك. أنا أعلم بأنه قد غفر لى. لقد سألته هذا الأمر قبلك. فبدأ يحكى لى قصته ونحن جالسين هناك فى الزقاق وسط القمامة.

كان فى إحدي الخدمات يشعر بأن الله يدعوه للخدمة. فترك عمله وذهب إلي مدرسة للكتاب المقدس للدراسة من أجل الخدمة. ثم عاد إلي «نيويورك»فتقابل مع امرأة خطفته من زوجته. فتوسلت

إليه زوجته وولديه بأن لا يتركهم. وقد كانوا دائماً يذكرونه بوعوده التى أخذها نحو الله ونحو زوجته. ولكنه كان رجلاً مقيداً من الشيطان، فترك زوجته وانتقل للعيش مع هذه المرأة. لكنها بعد شهرين تركته قائلة له بأنها لم تعد تحبه لأنه لا يشعرها بالسعادة. فانهار وأصبح يدخن المخدرات ويأخذ أقراصاً مخدرة. ثم سألته أى نوع من الأقراص كنت تأخذ فبدأ يذكر لى أسماءها، ثم قال لى بأنه قد شعر بعدها بأنه بدأ يفقد عقله.

كان ينوح ويقول: «حاولت أن أدفعك بعيداً عنى. لهذا كنت أفعل ما فعلته الليلة فى حديقة المدرسة. كنت خائفاً. كنت خائفاً من أن أواجه الله مرة ثانية. أريد العودة إليه وإلي زوجتى وأولادى ولكنى لا أعلم كيف. هل تصلى معى؟ ثم رفع رأسه ورأيت عيناه وهى مليئة بالذنب والبكاء والندم وطلب المساعدة.

ساعدته كى يقف علي قدميه، وخرجنا من الزقاق عبر الشارع إلي الأتوبيس. ركب ستة أفراد منا الأتوبيس. أما هو فقد جلس علي أحد المقاعد فى الوسط ورأسه مستند علي مسند المقعد. بدأنا نصلى من أجله. فجأة أدركت بأنه كان يستشهد بآيات كتابية. من خلال ذاكرته ودراسته فى مدرسة الكتاب المقدس وكانت كلمات الآيات هى من مزمور٥١ للملك «داود»الذى كتبه كصلاة بعد ما ارتكب خطية الزني مع «بتشبع» حين أرسل زوجها إلي الحرب ليقتل. لم أشعر بقوة الله قريبة منى كهذه من قبل عندما رأيت هذا الخادم القديم لله وقد أصبح خادماً لإبليس ينال روح المسيح من صرخته وصلاته للتوبة والاعتراف وطلب لغفران الله بكلمات من الكتاب المقدس.

«ارحمنى يا الله حسب رحمتك. حسب كثرة رأفتك امح معاصىَّ.

اغسلنى كثيراً من إثمى ومن خطيتى طهرنى. لأنى عارف بمعاصىَّ

وخطيتى أمامى دائماً. إليك وحدك أخطأت وشر قدام عينيك

صنعت. لكى تتبرر فىّ أقوالك وتزكو فى قضائك. هأنذا بالآثم

صورت. وبالخطية حبلت بى أمى. ها قد سررت بالحق فى الباطن

ففى السريرة تعرفنى حكمة. طهرنى بالزوفا فأطهر. اغسلنى فأبيض

أكثر من الثلج. اسمعنى سروراً وفرحاً. فتبتهج عظام سحقتها. استر

وجهك عن خطاياىّ وامحُ كل آثامى. قلباً نقياً اخلق فىّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد فى داخلى لا تطرحنى من قدام وجهك

وروحك القدوس لا تنزعه منى. رد لى بهجة خلاصك وبروح

منتدبة اعضدنى فأعلّم الآثمة طرقك والخطاة إليك يرجعون.

نجنى من الدماء يا الله إله خلاصى. فيسبح لسانى برك. يا رب افتح

شفتى فيخبر فمى بتسبيحك. لأنك لا تسر بذبيحة وإلا فكنت أقدمها. بمحرقة لا ترضى ذبائح الله هى روح

منكسرة. القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره.

احسن برضاك إلي صهيون. ابن أسوار أورشليم. حينئذ تسر بذبائح البر

محرقة وتقدمة تامة. حينئذ يصعدون علي مذبحك عجولاً.»

وهكذا عندما أنهي صلاته كان الأتوبيس فى صمت طويل. ثم بدأت «جلوريا» تتكلم بصوت رقيق وجميل تنهى بها كلمات المزمور. «ذبائح الله هى روح منكسرة. القلب المنكسر والمتواضع لا ترذله يا الله.»

وقفنا جميعا ثانية من علي ركبنا. كان يجفف وجهه بمنديل. وكان الجميع أيضا يجففون أنوفهم ووجوههم.

ثم التفت إلى وقال: «لقد أعطيت آخر دولار معى لهؤلاء الأولاد فى الشارع ليرقصوا. فهل من الممكن لك أن تعطينى عملة أستطيع بها أن أكلم زوجتى وألحق بالمترو. لأنى أريد أن أعود إلي المنزل ثانية.»

قد كنت معتادا أن لا أعطي أياً من المدمنين أموالاً. وعلمت أن هذا الأمر سينطبق علي الجميع بدون استثناء. ولكن كان هذا استثناءً. فأخرجت من جيبى آخر دولار كان معى. فأخذه و احتضنى وكان وجهه مبلل بالدموع. ثم ذهب إلي الآخرين و احتضنهم أيضاً.

قال لى: «سوف تسمع أخبارى لأنى سأعود.» ولقد عاد . بعد يومين عاد و معه زوجته و أولاده إلي المركز و عرفهم علينا. كانت هناك إشراقة ما فى وجهه لم تكن بسبب الأقراص المخدرة آو المخدرات. و لكنه كان نور من الله يشع منه.

الفصل السابع عشر
فى وادى ظل الموت

كانت من أصعب الأمور لدينا هو وجود أربعين مدمناً تحت سقف واحد دون حدوث مشاكل وخاصة إذا كان من يقوم بالإشراف عليهم أشخاص غير مدربين. والشيء الوحيد الذى أبقي علي هيئة تحديات المراهقة من الانهيار هو الروح القدس وحده. كنا جالسين علي فوهة بركان منتظرين أياً من هؤلاء المضطربين عقلياً ليعصف بنا فى طى النسيان. كان رجاءنا الوحيد هو البقاء ملتصقين بالله علي قدر استطاعتنا.

كان من الصعب جداً على التمييز بين من كان يريد التغيير الحقيقى ومن كان يمثل لأن معظم هؤلاء الرجال والنساء كانوا من أبرع الممثلين. حيث عاشوا حياتهم علي أساس الكذب والتظاهر المتواصل. ولكننا قررنا أن نثق بهم علي قدر ما نستطيع.

كنت متمسكاً جداً بالحفاظ علي النظام وقد تعلمت فيما بعد بأن معظم هؤلاء لم يكن يرفض أو يتمرد علي النظام مادام كان عادلاً ومتزناً. بل فى الواقع كانوا يحافظون عليه لأنه كان وضع لهم أساساً راسخاً لعملية تعافيهم وشعور مادى وحقيقى بالانتماء. بالرغم من أنى كنت أعلم بأن هذا لم يكن هو شعور جميعهم.

وافق «دافيد» معى علي هذه الفلسفة. لكن هذه المسئولية الصعبة والثقيلة مع تأنيب ضمير المزعجين كانت تشكل دائماً على ضغطاً مستمراً. ففى بعض الأحيان كنت أستيقظ فى نصف الليل لأفض اشتباكا حدث أو لطرد شخص قام بخرق القوانين.

كانت معظم القرارات المهمة تترك لى لاتخاذها فكان على إضافة عدد أكبر من العاملين معى فى الهيئة و كان معظمهم من خريجى الجامعات. فبدأت أري قلة مهاراتى ولذلك شعرت بعدم الأمان. كنت لا أعرف شيئا أو ربما القليل جداً عن العمل الإدارى وأيضاً عن الجوانب

النفسية للعلاقات الشخصية التى تتضمن قدر عالى من التواصل بين أعضاء مسئولى الهيئة والعاملين بها. وكنت أشعر أحياناً بالغيرة من بعض العاملين تحت سلطتى وأدركت بأن هذا هو بداية انهيار العلاقات التدريجى.

عندما كان «دافيد» يأتى لزيارة المركز كنت أشرح له المشاكل التى أواجهها و لكنه كان يعود و يقول لى: «أنت تستطيع السيطرة علي الأمور جيداً يا «نيكى». فأنا أثق بقدراتك ثقة كبيرة جداً.»

لكن ظلت المشاكل تتفاقم كتزايد السحب الممطرة فى الأفق قبل هبوب العاصفة. فى ذلك الخريف سافرت مع «دافيد» إلي «بيتسبرج» لأعظ فى الحملة الكرازية لـ «كاثرين كولمان» .فالآنسة «كولمان» كانت لديها أكثر الخدمات العالمية الممتلئة بالروح القدس فى العالم.

و كانت خدمتها تقوم عن طريق هيئة «كولمان» الممتدة إلي كل أنحاء العالم. أما هى فقد كانت قد جاءت لزيارة هيئة «تحديات المراهقة» حيث كانت مهتمة جداً بالعمل المقام هناك. ثم أخذتها فى جولة حول المدينة والأحياء الشعبية. فقالت لى : «أشكر الله الذى أخرجك من هذه الأحياء الفقيرة. من فضلك إذا قابلتك أية مشكلة مهما كانت اتصل بى.»

وأنا فى «بيتسبرج» شعرت بأنه على أن أحاول الاتصال بها طالما أنا موجود هناك وذلك لأن الجمل كان قد ازداد ثقلاً علي قلبى وعلى التخلص منه. فقد بدت منشغلاً طوال فى هذه المشكلة الكبري.

وهكذا وفى هذه الليلة كنت أتكلم مع صديقى «جيف مورالس» الذى كان آنذاك يترجم يعمل مترجماً للخدمات التى شاركت فيها شهادتى مع آلاف من الناس فى هذا الإستاد الكبير.شاركته يومها ما بى، كان ذلك بعد الخدمة أثناء تناولنا العشاء مع بعضنا البعض فى مطعم صغير. ولكن كنت حزيناً جداً لأنه لم تتح لى الفرصة أبدا للتكلم مع الآنسة «كولمان» لوحدنا. لذلك تركت «بيتسبرج» وأنا أشعر بالإحباط فأنا كنت أتمني السيطرة علي مشاكلى الشخصية لكن لم أستطع.

فى يناير١٩٦٤ كان العدد قد تزايد جداً لدرجة أننا لم نعد نستطع إبقاء النساء فى الطابق الثالث بـ «٤١٦ شارع كلينتون». فقمنا بترتيب الانتقال إلي منزل أكبر عبر الشارع ليكون خاصا بالنساء فقط. كنت أعلم بأنه قد حدثت مؤامرات من خلف ظهرى مع بعض المدمنين الذين كنت أضغط عليهم للحفاظ علي النظام.

كذلك كانت قد انضمت إلينا نساء يعانون من الجنس المثلى، كانت قد سببت لنا العديد من المشاكل لم تكن سهلة وليست بقليلة .لقد كنت أخشي دائماً أن تقوم واحدة منهن باغتصاب إحدي الفتيات الجامعيات اللواتى لا تملكن الخبرة الكافية واللواتى كن قد تقدمن للعمل معنا كمشيرات.

لقد كانت السيطرة علي المدمنين تشبه إلي حد كبير إطفاءك للحرائق فى غابة كبيرة بمنشفة صغيرة مبللة. ففى كل مرة كنت أتعرض لموقف قد يبدو ضئيلاً لكنه سرعان ما يتطور ليتبعه موقف آخر وهكذا. فى النهاية كنت أجد نفسى أنا الآخر متورطاً فى هذه المواقف فأبدأ أشعر بمسئولية كبيرة ستقع علي كاهلى، خاصة عندما سيعود هؤلاء المدمنين إلي العالم ثانية.

كانت «جلوريا» تحذرنى دائماً من أن أحمل كل هذا الحمل لوحدى ولكن للأسف كانت قد وقعت المسئولية بقوة علي عاتقى وحدى.

فقد جاءت إلي المركز فتاة اسمها «كويتا». كانت شاذة جنسياً ، و متزوجة قبلاً من فتاة أخري. كانت قد اعتادت أن ترتدى ملابس خاصة بالرجال من سراويل و سترات وأحذية حتي ملابسهم الداخلية. كانت فى بداية الثلاثين من عمرها ذات لون فاتح و شعر أسود مقصوصاً كالرجال. نحيلة و جذابة جداً و ذات شخصية اجتماعية.

كانت «كويتا» من أكبر تاجر المخدرات فى المدينة. فلسنوات عديدة كانت تدير متجراً لتعاطى المخدرات فى شقتها. ولم يأتى إليها الرجال والنساء فقط لتعاطى المخدرات، و لكن لممارسة الرذيلة أيضاً. كانت تمد كل من يحتاج إلي أى شيء سواء حقن مخدرة أو «هيروين» أو أقراص مخدرة أو من كانت لديهم الرغبات الغير طبيعية رجالاً كانوا أم نساء. كان الأمر كله غير منطقى.

عندما هاجمت الشرطة منزل «كويتا» قبضوا علي اثنى عشر عاهرة من المحترفات كذلك صادروا الكثير من معدات تعاطى المخدرات مثل (الملاعق و الحقن و القطارات) . فقد خربوا الشقة حيث كسروا الحوائط و نزعوا الأرضية ليكتشفوا مخبأً للمخدرات يساوى آلاف الدولارات.

جاءت حينئذ «كويتا» إلي المركز فى أثناء تعليق عقوبتها. فشرحت لها القوانين وطلبت منها أن ترتدى الملابس الخاصة بالنساء وتدع شعرها يطول قليلاً. إضافة إلي أنها لم يكن مسموحاً لها بالمكوث وحدها أبداً مع أى من الفتيات الأخريات إلا إذا كان أحد المسئولين موجوداً فى المكان. كانت تشعر بإعياء كبير لدرجة أنها لم تستطع رفض أو التمرد علي أى من القوانين و

كانت تبدو شاكرة جداً لنا لأنها لم تكن فى السجن و فى أقل من أسبوع أعلنت إيمانها وبدأ عليها كل ما يمكن أن يثبت بأنها تغيرت.

فجأة أدركت بأنه ربما ليس صحيحاً بأنها قد تغيرت وقد يكون تغيرها زائفاً. مع إننا كنا نصطحب معنا «كويتا» لتشهد فى الاجتماعات المقامة بالشارع لكنى شعرت بأن هناك شيئاً ما غير مريح فيها.

بعد حوالى أسبوعين جاءت إلى إحدي الفتيات التى كانت تقوم بالمشورة ذات صباح. كانت شاحبة اللون ترتجف مثل ورقة شجر. فقلت لها: «ماذا حدث يا ديانا؟ تعالى و اجلسى هنا.»

كانت ديانا عضواً جديداً فى هيئتنا جاءت إلينا من الريف من «نيبسكا» حيث كانت قد تخرجت حديثاً من مدرسة للكتاب المقدس. قالت لى: «لا أعرف كيف أبدأ الحديث معك يا «نيكى». أنهما «كويتا» و «ليلى».»

كانت «ليلى» فتاة مدمنة من الشارع قد لجأت إلي المركز منذ حوالى أسبوع. وهى تحضر الخدمات لكنها لم تسلم حياتها إلي الرب. شعرت بأن فمى يجف وأنا أقول: «و ماذا عنهما؟»

خجلت «ديانا» بعض الشيء و قالت لى: «و نحن نعمل معاً فى المطبخ البارحة فى منتصف الليل تقريباً. دخلت عليهم و «نيكى».... كانتا.. لقد كانتا....» و صار صوتها ينخفض من شدة الخجل والإحراج.» وأنا لم أستطع أن أنام طوال الليل. ما الذى يمكننا أن نفعل؟»

وقفت من علي مقعدى و ظللت أسير للأمام والخلف حول مكتبى.«اذهبى ثانية إلي المبنى و قولى لهما بأنى أريد رؤيتهما فى أمر عاجل الآن فى مكتبى.«قلت هذا بغضب : «إن هذا المكان مكرس لله. لن أقبل أياً من هذه الأشياء تحدث هنا.»

تركتنى «ديانا» فجلست علي مكتبى واضعاً رأسى بين يدى أصلى بلجاجة شديدة طالباً من الله أن يعطينى الحكمة. فهل فشلت و كيف؟ لقد تركنا كويتا تلقى شهادتها عن المركز. وقد كتبت قصتها الصحف إضافة إلي أنها قد تكلمت فى الكنائس عن التغيير الذى حدث فى حياتها.

انتظرت لمدة ساعة ثم خرجت من الباب لأعرف ما الذى كان يؤخر حضورهما هكذا. قابلتنى «ديانا» علي السلم و قالت لى : «لقد هربتا.فقد خافتا لقد قالتا، سنرحل. ولم نستطع أن نمنعهم.»

ثم استدرت و سرت ببطء عائداً إلي المركز ثانية. شعرت بفشل شخصى كبير. قضت «جلوريا» مدة ثلاثة أيام تصلى معى وتتكلم معى وأنا عابس بسبب عدم قدرتى علي الوصول لهؤلاء المدمنين برسالة الحق.

فقالت لى: «نيكى حتي المسيح كان حوله خائنون كثر. لكن يمكنك أيضاً تذكر كل من كان أميناً وناجحاً هل تتذكر «سونى» الذى كان معنا، كيف ذهب إلي مدرسة الكتاب المقدس يدرس من أجل الخدمة. تذكر ماريا و التغيير الكبير الذى حدث فى حياتها. تذكر ما قد صنعه الله معك. هل نسيت اختبار خلاصك؟ فكيف إذاً تشك فى قدرة الله و تصبح محبطاً هكذا بسبب هذا الفشل البسيط الذى حدث؟»

كانت «جلوريا» علي حق، لكنى لم أستطع أن أخرج من مشاعر الإحباط التى كانت تملئنى. عند انتهاء فصل الصيف ازداد شعورى بالذنب. شعرت بالفشل الكامل. فقد انقطع التواصل بينى و بين معظم أعضاء الهيئة. كان« دافيد» لا يزال يؤمن بى، لكنى كنت مدركاً بأسي الأحداث الفاشلة التى كانت تجرى فى المركز. فقد ازداد التوتر. كانت «جلوريا» تحاول دائما أن تشجعنى علي الخروج من إحباطى هذا، لكنى كنت أشعر بفشل ذريع فى داخلى لم استطع أن أتخطاه.

كانت النقطة المضيئة الوحيدة فى حياتى فى ذلك الوقت هى مجىء «جيمى بايز». كان جيمى مدمناً للمخدرات لمدة ثمانية سنوات. جاء إلي المركز ليسأل عن دواء ظناً منه بأنها بمثابة مستشفي.

فقلت له: «ليس عندنا هنا أى دواء سوي المسيح.»

اعتقد وقتها بأنى مجنوناً. «يا رجل كنت أظن بأن هذه عيادة طبية. أنتم مجموعة من المجانين.» ثم ظل ينظر حوله بهياج شديد محاولاً أن يجد مخرجاً من مكتبى.

فقلت له : «اجلس يا جيمى أريد أن أتحدث معك. فالمسيح يستطيع أن يغير حياتك.»

فأجابنى جيمى : «لا.. لا أحد يستطيع أن يغير حياتى. لقد حاولت وفشلت.»

فقمت من علي مكتبى وتوجهت نحوه. وضعت يدى علي رأسه وبدأت أصلى . ثم شعرت به وهو يرتجف، بعدها ركع علي ركبتيه طالباً الله. ومن تلك الليلة لم يعد ثانية إلي «الهروين».

فقالت لى« جلو ريا»: «أتري، فالرب يظهر لك بأنه لا يزال يستخدمك حتي الآن. فكيف

تستمر فى الشك به؟ لماذا لا تصبح إيجابيا مرة ثانية كما كنت؟ لقد مضي عليك شهوراً عديدةً لم تخرج فيها لإقامة اجتماعات فى الشارع أثناء الليل. اعمل ثانياً لله، وستشعر بقيادة الروح القدس لك كما كان من قبل.»

وافقت علي كل ما كانت تقوله و قدت حملة خدمات فى الشارع فى آخر أسبوع فى شهر أغسطس. وفى الليلة الأولي جهزنا المسرح فى «بروكلين» ثم بدأت أعظ. كان يوماً حاراً ورطباً جداً، لكن كان قد ازداد جداً عدد الجمع و كانوا منتبهين تماماً لما كنت أقوله. وعظت بقوة وشعرت بالرضا علي وعظتى. وعندما قربت من نهاية العظة دعوت كل من يريد أن يسلم حياته بأن يأتى إلي المذبح.

فجأة رفعت عينى و هناك فى آخر الصفوف رأيته. لم أخطأ بشأنه أبداً. كان هو «إسرائيل». كل هذه السنوات، كنت أصلى وأبحث عنه وأطلب..... و فجأة ها هو وجهه واضح من بين الجمع.

قفز قلبى بداخلى فربما كان قد أرسله الله لى ثانية. شعرت بقوة النار القديمة تشتعل بداخلى وأنا أدعو الجمع لتسليم حياتهم إلي الله. من الواضح بأنه كان يستمع إلى بانتباه حيث كان يشب برأسه ليسمع كل ما كنت أقوله. كان البيانو المتنقل يلعب والفتيات ترنم.لكن فجأة رأيت «إسرائيل» يستدير ويمشى.

فقفزت من علي المسرح وشقيت طريقى بسرعة وسط الجمع محاولاً الوصول إليه قبل أن يختفى وسط هذا الجمع الكبير.

فصرخت من خلفه، «إسرائيل.. إسرائيل، انتظر.. انتظر.»

فتوقف للحظة والتفت إلي. لقد مضت ست سنوات منذ أن رأيته آخر مرة . كان قد نضج كثيراً وازداد وزنه بعض الشيء. لكن وجهه الوسيم كان كما هو وعَينِاه يملاهما الحزن. احتضنته بقوة ، حاولت أن أجذبه للوراء عائداً به إلي وسط الجمع. لكنه كان يقاومنى ووقف بدون حراك. فصحت فيه بفرح: «إسرائيل .إنه أنت بالفعل؟ فقفزت للخلف و جذبته من كتفه وأنا أنظر إليه.» أين كنت؟ أين تقيم؟ ماذا تفعل؟ قل لى كل شيء. لماذا لم تتصل بى؟ لقد بحثت عنك فى «نيويورك» كلها. فهذا أعظم يوم فى حياتى.»

كانت عيناه باردتين و تفصلنا مسافات كبيرة و كان سلوكه غريب ومقاوم معى.

«لابد أن أذهب يا «نيكى». كان أمراً عظيماً أن أراك ثانية.»

« هل ستذهب؟ لا . لا .. فأنا لم أرك منذ ستة سنوات. لقد كنت أصلى من أجلك يومياً. سوف تعود إلي المنزل معى .» و بدأت أضغط علي ذراعه ، لكنه هز رأسه بالرفض ثم أخذ يجذب يده بعيداً عنى. كنت أشعر بعضلاته القوية وهى تقاومى تحت يدى.

فقال لى وهو ينسحب و يسير بعيداً: «فى يوم آخر يا «نيكى» فى يوم آخر ليس الآن.»

«أنت انتظر هنا دقيقة. ماذا بك؟ أنت أعز صديق لى. لن أدعك تذهب هكذا.»

فعاد ينظر إلى نظرة باردة بعينيه الرماديتين، «قلت لك مرة أخري يا «نيكى» .» ثم استدار عنى وتركنى وسار بعيداً فى شارع جانبى إلي أن اختفي فى الظلام.

فوقفت هناك وظللت أنادى عليه بيأس. لكنه لم يلتفت إلى أبداً. ظل يسير فى طريقه وسط الظلام من حيث قد أتى.

عدت إلي المركز كإنسان محطم. و بالكاد استطعت أن أصعد السلم الضيق إلي الطابق الثالث و أغلق الباب من خلفى فى إحدي الغرف. بدأت أصلى وأصرخ بأسيً : «يا رب ماذا فعلت ؟ لقد ضاع منى «إسرائيل» ثانية وهى غلطتى. أرجوك سامحنى.» ووقعت علي الأرض وظللت أبكى بدون توقف. كنت أضرب يدى بالحائط من شدة اليأس والإحباط. لكنى لم أحصل علي أية إجابة. ظللت ساعتين فى هذه الغرفة وكنت قد بدأت أشعر بالتعب الجسدى ثم الوجدانى ثم الروحى.

كنت أعلم بأنى سوف أترك المركز. شعرت بأن خدمتى قد انتهت. لقد صرت فاشلاً فى كل شىء كنت أحاول فعله. فكل ما كانت تمتد إليه يدى يفشل. «كويتا» ثم «ليلى» و الآن «إسرائيل» . كان أمراً ميئوساً منه أن أبقي واستمر فى المحاربة فى كل هذه المصاعب التى لم أستطع التغلب عليها. كان أمراً ميئوسا منه أيضاً أن أستمر فى الخدمة. لقد انتهيت. جُلدت وضُربت. حاولت الوقوف ثانية علي قدمى، ثم أخذت انظر من النافذة الصغيرة التى بالغرفة إلي الظلام الذى فى الخارج . «يا رب لقد فشلت. لقد كنت مخطئاً. لقد كنت أثق بنفسى أكثر منك. فإذا كان هذا هو السبب لما حدث فأنا مستعد أن أتوب عن خطيئتى الكبيرة. اجعلنى متواضعاً. اقتلنى إذا كان لابد من هذا. ولكن يا ربى العزيز لا تلقينى فى هذه الهوة المفزعة.»

وبدأت أنوح بشدة وجسمى كله يرتجف. وقفت عند الباب انظر للخلف. كانت الغرفة هادئة

جداً. لم أكن أعلم إن كان قد سمعنى أم لا. لكنى شعرت ببعض الاختلاف الآن. فقد فعلت كل ما أعرف بأنى يجب أن أفعله.

نزلت السلم عائداً إلي شقتى. كانت «جلوريا» قد وضعت الصغيرة لتنام و كانت تنظف المكان والمنضدة من الطعام التى قد تناولته. أغلقت الباب من خلفى و سرت إلي المقعد. و قبل أن أجلس كانت هى تقف أمامى. احتضنتنى. لم تكن تعرف شيئاً مما حدث فى الشارع أو فى الغرفة العلوية ولكن لأننا كنا جسد واحد كانت تشعر بأنى مجروح. فكانت تقف بجانبى لتشجع روحى اليائسة وتعطينى القوة فى وقت الحاجة إليها.

فجذبتها نحوى بقوة وخبأت وجهى فى كتفها و بدأت أبكى. وقفنا هناك لمدة طويلة نحتضن بعضنا البعض بقوة ونبكى. وفى النهاية توقف البكاء وجذبت وجهها نحوى بيدى ونظرت بعمق فى عينيها. كانتا ممتلئتين من الدموع مثل ينابيع المياه النقية التى كانت تتدفق من داخل الأرض. ولكنها لم تكن تبكى. كانت مبتسمة برقتها المعتادة. والحب الذى كان يتدفق من قلبها يغمر عينيها حيث كانت الدموع تتساقط منها وتسير فى شكل جداول صغيرة علي جانبى وجهها ذا اللون البرونزى.

أمسكت بوجهها بقوة بين يدى. كانت جميلة جداً. كانت تزداد جمالاً أكثر من ذى قبل. ابتسمت ثم تقدمت إلى وقبلتنى. كنت أتذوق طعم الملح الذى كان بدموعى بفمها الدافئ الذى ينحنى علي فمى.

قلت لها: «لقد انتهي الأمر يا «جلوريا». أنا مضطر لأن أذهب. من المحتمل بأنى قد شعرت ببعض الكبرياء. من المحتمل أن أكون قد أخطأت. لا أعلم، لكنى أدرك بأن الروح القدس كان قد تركنى. فأنا صرت كشمشون الذى خرج لمحاربة الفلسطينيين بدون قوة من الله. أنا فاشل. لقد دمرت كل شيء امتدت إليه يدى.»

«نيكى ما هذا؟» كان صوتها هادئاً جداً. «ماذا حدث؟»

«اليوم رأيت «إسرائيل». لأول مرة منذ ستة سنوات رأيت أعز صديق لدى. لقد تركنى. كان هذا خطأى أنا لهذا هو كما هو. ألم أتركه فى المدينة منذ ست سنوات ماضية، ألم يكن من الأفضل له ولى لو كان عاملاً بجانبى الآن. لكن بدلاً من هذا قضي خمس سنوات فى السجن والليلة أشعر بأنى ضائع. وكأن الله لم يعد يهتم.»

فقالت لى «جلوريا» بصوتها الهادئ: «نيكى هذه خيانة لله. فأنت لا تستطيع أن تلوم نفسك من أجل ما حدث «لإسرائيل». لقد كنت حينئذ صبى صغير و خائف تريد الهرب والنجاة من المدينة. لم يكن هذا خطأك لأنك تركت «إسرائيل». لكن الخطأ الآن هو أن تلوم نفسك. وأيضاً كيف لك أن تقول بأن الله لم يعد يهتم ؟ انه يهتم حقاً. فقد اهتم كثيراً ألا يكفى أنه قد خلص حياتك.»

فقلت لها وأنا أهز رأسي: « أنت لا تفهمين ما أعنيه. فمنذ أن قال لى «دافيد» بأن «إسرائيل» قد عاد إلي العصابة ثانية، وأنا ألوم نفسى كل يوم. لقد حملت هذا الثقل علي قلبى لسنوات طويلة. والليلة رأيته، لكنه التفت عنى وتركنى. لم يرد حتي التكلم معى. آه.. لو كنت قد رأيت فقط هذه النظرة الباردة التى كانت علي وجهه.»

«ولكن يا «نيكى»، أنت لا تستطيع أن تترك كل شىء الآن فى حين أن الله قد بدأ يعمل حقاً....»

«غدا سوف أستقيل. فأنا لا أنتمى إلي هذا المكان. أنا لا أنتمى إلي هذه الخدمة. أنا لست كفاً بما فيه الكفاية. وإذا مكثت فهيئة «تحديات المراهقين» ستنهار. فأنا مثل يونان. من المحتمل بأنى لا أظل أهرب و أجرى من الله وأنا لا أعلم. وهو يحتاجون أن يلقونى من فوق هذا المركب لتبتلعنى سمكة ما. وإن لم يتخلصوا منى فستغرق المركب كلها.»

فقالت لى «جلوريا» والدموع تملأ عينيها: «نيكى هذا حديث غير منطقى. وإبليس هو الذى يجعلك تقول هذه الكلمات.»

فابتعدت عنها و قلت: «نعم ربما إبليس فى أعماقي. لكنى عند كلمتى سأستقيل.»

«نيكى» أقل ما يمكن أن تفعله هو التكلم مع «دافيد».»

«حاولت مراراً كثيرة. ولكنه كان منشغلاً جداً. وهو يظن بأنى أستطيع تدبر الأمور وحدى. حسنا أنا لم أعد أحتمل. فأنا غير مؤهل وقد حان الوقت للاعتراف بهذه الحقيقة لنفسى. فأنا فاشل. فاشل.»

بعد أن ذهبنا إلي السرير معاً وضعت «جلوريا» يدها حول رأسى وبدأت تدعك رقبتى. « نيكى قبل أن تستقيل هل تعدنى شيئاً واحداً فقط ؟ هل يمكنك التحدث مع «كاثرين كولمان» ؟»

فأومأت برأسى موافقاً . كانت وسادتى مبللة بالدموع وأنا أسمع «جلوريا» تهمس لى: ««نيكى» الله سيعتنى بنا.»

خبأت رأسى فى الوسادة أصلى لله أن لا يدع الشمس تشرق بيوم جديد فى حياتى.

لكن وفى هذه الأيام المظلمة وعدم قدرتى علي اتخاذ أى قرار، كانت هناك نجمة لامعة تتلألأ فى شكل سيدة طويلة محترمة، كانت تشع بحضور الروح القدس.

وأنا أتكلم مع مدام «كولمان» علي الهاتف فى الصباح الباكر شعرت بأنها تريد مساعدتى. فصممت أن أذهب إليها فى «بيتسبرج» لكن علي نفقتها قبل أن آخذ أى قرار نهائى.

فى المساء التالى سافرت إلي «بيتسبرج». كنت مندهشاً جداً لأنها لم تحاول أن تتحدث إلي عن الظروف التى أعانى منها فى المركز. ولكن بدلاً من ذلك قالت: «من المحتمل بأن الله يقودك الآن لخدمة مختلفة يا «نيكى» . ربما هو يقودك فى وادى ظل الموت حتي يخرجك إلي مراع خضر ومشرقة فى الجانب الأخر. فقط ثبت نظرك علي يسوع. لا تصبح مر النفس أو محبط. فقد وضع الله يده عليك, وهو لن يتركك أبداً. فقط تذكر يا «نيكى» بأننا عندما نسير فى الوادى هو يسير معنا دائماً.»

صلينا معاً ثم صلت هى طالبة من الله بأنه إن كان يريد منا ترك هيئة «تحديات المراهقة» أن يعلن لنا هذا عن طريق إبقاء سحابة الإحباط هذه من حولنا. وإذا أراد منا أن نبقي فليرفع عنا هذه السحابة حتي نشعر بالحرية لأن نبقى فى «نيويورك».

سافرت إلي المدينة فى الصباح التالى وأنا أشعر بالامتنان والتقدير للصداقة والثقة لنعمة وتفاعل العلاقات المسيحية.

وفى تلك الليلة بعد أن وضعت صغيرتى فى سريرها جلست علي منضدة المطبخ أتكلم ثانية مع «جلوريا». فقد كنت أريد فقط أن أترك كل شيء. لأننا سوف نبدأ مرة ثانية ومن جديد لكن ربما هذه المرة فى «كاليفورنيا». قالت لى «جلوريا» بأنها ستتبعنى أينما أمضى. فكان حبها وثقتها الدائمين بى هم الذين يمنحانى الثقة والقوة المتجددة. وهكذا قبل أن أخلد إلي النوم أخذت ورقة وقلم وبدأت أكتب استقالتى.

كانت إجازة نهاية الأسبوع بائسة جداً. عندما جاء «دافيد» إلي المركز فى صباح يوم الاثنين، أعطيته استقالتى وانتظرت حتي يقرأها.

أحني رأسه وسألنى بهدوء: «هل أنا من سبب لك كل هذا الإحباط يا «نيكى» ؟»

«هل لأنى كنت فى عجلة دائماً من أمرى؟ حتي أنى لم أكن معك لأساعدك عندما كنت تحتاج للمساعدة؟ تعال معى إلي مكتبى لنتكلم معاً.»

تبعته بهدوء إلي مكتبه عبر الممر الطويل. أغلق الباب من خلفنا ونظر إلى بعمق و أسي. قال: ««نيكى»، أنا لا أعلم ما الذى يدفعك وراء هذه الاستقالة. ولكنى أعلم بأنى الملوم الأول فى الجزء الأكبر منها. لقد كنت انتقد نفسى دائماً من لأنى لم أكن قادراً علي قضاء وقت كاف معك. ولكنى كنت دائماً منشغلاً وطوال الوقت لجمع التبرعات للمركز. ولم يكن لدى الوقت حتي لأمضيه مع عائلتى. فقد ازداد الحمل كثيراً علي كاهلى. لذا قبل أن نتحدث أريد أن أطلب منك أن تغفر لى لأنى خذلتك. هل ستغفر لى يا «نيكى» ؟»

أحنيت رأسى وأومأت موافقاً بهدوء. تنهد «دافيد» بعمق ثم جلس علي كرسيه.«تكلم معى يا «نيكى».»

«لقد فات الآن وقت الحديث يا «دافيد». لقد حاولت مراراً وتكراراً التكلم معك. وأنا أشعر الآن بأن ما أفعله هو الصحيح.»

«لكن لماذا يا «نيكى» لماذا؟ ما الذى جعلك تتخذ هذا القرار المفاجئ؟»

«إنه ليس مفاجئاً يا «دافيد». لقد كان يتبلور فى داخلى منذ زمن طويل.»

بعد ذلك فتحت قلبى وتكلمت معه بصراحة. فقال لى: ««نيكى»، كل شخص منا قد يمر فى وقت ما بمراحل اكتئاب هذه. فأنا مثلاً قد خذلت كثيرين و خذلنى أيضاً الكثيرون. و قد كنت علي وشك أن ألقى بكل شىء وأذهب.

كثيراً ما وجدت نفسى قابعاً تحت التينة مع أليشع أبكى وأصرخ, يكفى هذا, يكفى هذا.. يا رب خذ منى حياتى. ولكن يا «نيكى» أنت قد سرت إلي أماكن تخاف الملائكة أن تطأها . فلا يمكننى أن أصدق بأنك تريد أن تهرب من بعض الاحباطات القليلة.»

«ليست بقليلة يا «دافيد» بالنسبة لى. لقد اتخذت فعلا قرارى. أنا آسف.»

فى اليوم التالى وضعت «جلوريا» والطفلة عني الطائرة الذاهبة إلي «أوكلاند». وبعد يومين سافرت أنا إلي «هيوستن» لأقوم بآخر عظة لى كنت قد ارتبطت بها سابقاً هناك بسبب جدولى.

كان هذا فى شهر أغسطس سنة ١٩٦٤ . حيث كنت قد قضيت فى «هيئة تحدى المراهقة» مدة سنتين وتسعة أشهر.

كنت أشعر بالخجل جداً أثناء وجودى «بهيوستن» فى أن اخبرهم بشأن استقالتى من الهيئة. كانت عظتى باردة و بدون تأثير. كنت متحمساً جداً للعودة إلي كاليفورنيا لأكون مع «جلوريا».

أثناء سفرى عبر البلاد أدركت بأنى لم أعد أسافر علي نفقة الهيئة فيما بعد. كنا قد وفرنا قليلا من المال لكن كانت نفقات السفر وتذاكر الطائرة قد كلفتنا كل ما قد ادخرناه. كنت خائفاً و أشعر بعدم الأمان و الرعب.

تذكرت الأيام التى كان الناس فيها يحاولون وضع المال فى يدى عندما كنت أعظ فى الشوارع والأزقة. كنت أشكرهم وأطلب منهم أن يكتبوا لى شيكاً خاصاً بالهيئة . لم أكن أريد أى شيء لنفسى. فقد كانت حياتى مغلقة تماماً داخل المركز. ومن المثير للسخرية أنى حتي عندما كنت فى هيوستن طلبت من الناس أن يحرروا شيكاً للتبرع للهيئة و أنا أعلم جيداً بأنى لا أملك المال الذى أستطيع أن أعيش به فى الأيام القليلة القادمة.

قابلتنى «جلوريا» فى المطار. كانت قد استأجرت شقة صغيرة. وكنا مفلسين ومحبطين جداً. فقد أعطيت الله تقريباً ست سنوات من عمرى والآن أشعر بأنه أدار ظهره لى. فقلت بأنى سأترك كل شيء والخدمة وسأبدأ من جديد فى مجال آخر. غربت الشمس فى المحيط (الهادى) وغرقت حياتى كلها فى ظلام دامس.

لم تكن لدى أدني فكرة أين سأذهب. لقد وجدت نفسى أهرب من كل شيء. لم أكن أريد حتي الذهاب إلي الكنيسة مع «جلوريا» مفضلاً البقاء فى المنزل محدقاً فى السقف. حاولت «جلوريا» أن تصلى معى ولكنى كنت أشعر باليأس فكنت أبتعد عنها قائلاً: «بأنها تستطيع أن تصلى وحدها لأنى أشعر بالخواء من داخلى».

بعد مرور عدة أسابيع انتشر خبر مجيئى إلي «كاليفورنيا». فجاءتنى دعوات عديدة للتحدث فى كنائس مختلفة. وكنت قد تعبت من ردى الدائم بالرفض ومحاولتى فى البحث عن أى عذر أقوله لهم. وأخيراً اتفقت مع «جلوريا» أن لا تجيب عن أية مكالمات خارجية أو حتي أن لا ترد علي خطاباتنا اليومية.

ولكن وضعنا المالى كان يزداد سوءاً . فقد كنا قد أنفقنا كل ما ادخرناه، ولم تستطع «جلوريا»

الحصول علي أى عمل. لكنى أخيراً قبلت الدعوة للعظة فى إحدي الحملات التبشيرية للشباب. كنت بارداً روحياً. ولأول مرة فى حياتى صعدت إلي المنبر غير مصلياً. وأنا جالس علي المنبر دهشت من شدة البرودة والصلابة التى كانت بى. كنت مصدوما جداً من اتجاه الجشع واللامبالاة التى أصابتنى. لقد كنت يائساً حقاً. فإذا كان الله قد خذلنى هكذا كما شعرت فى «نيويورك» إذاً غير مضطر الآن لطلب نعمته ومسحته فى الوعظ. ربما لو كانوا قد دفعوا لى كنت سأفعل هذا. كان الأمر بهذه البساطة بالنسبة لى.

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة مع الله. فلقد كانت لديه خطط عظيمة لأجلى أكثر من مجرد أن يكتب لى أحدهم شيكاً فى مقابل عظتى. فوعظى عنه كان مهمة مقدسة وهو قد وعد،

«كلمتى لن ترجع إلى فارغة.»

عندما قمت بتقديم الدعوة شيء ما حدث. أولاً تقدم ولد فى سن المراهقة نحو المنبر وركع علي ركبتيه. ثم تقدم آخر من نهاية الصف فى القاعة. ثم تدافع كثيرون للأمام حتي امتلأت الممرات من الشباب الصغير الذين ركعوا أمام المذبح ليسلموا حياتهم إلي المسيح. كان الجمع كبيراً جداً أمام الكنيسة حتي اضطر الناس لأن يقفوا وراء الشباب الراكع فى الممرات المزدحمة. و فى نهاية الكنيسة كنت أري شاباً يقع علي ركبتيه يصرخ طالباً الله. كانوا مايزالوا يتقدمون للأمام ويتقدمون. وأنا لم يحدث لى أن حضرت خدمة مثل هذه اكتسح فيها الروح القدس الشعب بهذه القوة من قبل.

كان الله يحاول أن يقول لى شيئاً ليس من خلال همسات ضعيفة لكن بصوت مرعد مرتفع. كان يقول لى بأنه لا يزال جالساً علي عرشه. كان يذكرنى بأنه بالرغم من إنى خذلته فهو لن يخذلنى أبداً. لقد كان يقول لى وبوضوح بأنه لم ينته بعد من خطته فى حياتى... فهو لا تزال لديه خطط لى حتي وإن كنت غير مستعد للاستخدام.

شعرت بركبتى ترتجف من تحتى حيث حاولت التماسك واستندت علي المنبر.

و فجأة امتلأت عيناى بالدموع ، مع أنى كنت أنا الواعظ فى هذه الليلة إلا أنى سرت وأنا مرتجف إلي الأمام ثم ركعت فى آخر صف أمام المذبح. كنت أبكى هناك وقلبى ملىء بالتوبة بعدها سكبت نفسى أمام الله ليكرسنى مرة ثانية.

عند انتهاء الخدمة جلسنا أنا و«جلوريا» فى السيارة فى أماكن انتظار السيارات بالكنيسة. كنا

نخطط لأن نخرج معاً بعد الخدمة لتناول العشاء ثم لنتنزه قليلاً بالسيارة. لكن بدلاً من هذه الخطط قررنا معاً أن نعود إلي المنزل.

عندما دخلت من الباب ركعت على ركبتى. وكانت «جلوريا» بجانبى حيث بكينا معاً للرب. وكنت أعلم . كنت أعلم بأن هناك المزيد لى لدي الله. كنت أعلم أيضاً بأن كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله. نظرت من خلال دموعى وفجأة أدركت بأنه هناك يقف بجانبى. كنت أشعر بحضوره. وكنت أكاد أسمعه وهو يقول لى: «نعم».

«وإن سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لأنك أنت معى . عصاك وعكازك هما يعزيانني...»

لقد كنا نمر بوادى ظل الموت. ولكن نعمته ورحمته أخرجتنا والآن قد أشرقت علينا شمس الغد من وراء جبل بعيد مرتفع لنعيش إشراقه يوم جديد.

الفصل الثامن عشر
التقدم فى منطقة نفوذ الله

جاء الاختراق الكبير قبل الميلاد بقليل عندما تلقيت دعوة من مجموعة «لايمنس» المعروفة باسم «الشركة التامة للكتاب المقدس لرجال الأعمال العالمية». وقد تلقيتها عن طريق واحد من رجال الأعمال المكرسين للرب، إضافة إلي الكثير من الدعوات لزيارة المدارس الثانوية والكليات الجامعية. وقد كان عام ١٩٦٥ عاماً غنياً حيث سافرت فيه إلي الكثير من المدن عبر بلاد متعددة .

آنذاك كانت قد قامت هيئات كنسية متعددة ومختلفة برعاية حملاتى الكرازية، وكانت هذه الحملات تحظي بنجاح قوى ودائم. إذ كنت أبشر فيها الكثيرين، ما لا يقل عن عشرات الآلاف.

وكنت أشكر الله يومياً وأحمده من أجل صلاحه. لكنى كنت لا أزال قلقاً إذ أن شعوراً بأنين داخلى كان يعتصر قلبى. لم أكن أعرف ما هى مشكلتى، ومع مرور الأيام كان قلقى يتزايد.

لكن، ذات يوم قابلت رجل أعمال مهم، ذا مركز اجتماعى كبير. طويل القامة، يدعي«دان مالاكوك» من «نيو جيرسى». حيث أوضح لى ما هى مشكلتى الأساسية، بكل بساطة.

يومها كان يتحدث معى بطريقة طبيعية واضح فيها بأنه يتفهم رغبتى الحقيقية الأصلية وهى العمل مع «السن الصغير».

ثم سألنى إن كنت أحب العمل معه، لكنى لم أجبه علي سؤاله هذا. و فى الوقت نفسه لم أستطع إهمال التفكير فى هذا السؤال.

تذكرت طفولتى . فلو كان هناك أحد ما قد اهتم بما فيه الكفاية ليقودنى إلي المسيح كطفل فربما.....

تكلمت مع «جلوريا» فى هذا الأمر. لقد كان الله يستخدم شهادتى كل يوم فى الحملات الكبيرة التبشيرية، ولكن فى كل مرة كنت أقرأ فيها الجرائد عن أخبار الأطفال الذين اعتقلوا بسبب استنشاقهم «للكولا» أو لتدخين «الماريجوانا» كان قلبى يوجعنى. وهكذا بقينا نصلى و لوقت طويل أن يمنحنا الله

طريقا للوصول إلي هؤلاء الأطفال.

وهكذا و بعد حوالى عدة أسابيع ساعدنى «دان» فى تنظيم حملة كرازية لمدة أربعة أيام فى «سياتل». كنت على أن أتكلم أنا وأعظ فى هذه الحملة وكان علي «جيف مورالس» أن يترجم لى. فقد كان جيف قد انتقل هو الآخر إلي كاليفورنيا ليخدم معى فى الحملات الكرازية الكبيرة حيث لم يكن يفهم الكثير من المستمعين لهجتى. لكن قبل نصف ساعة من ميعاد الطائرة حدثنى جيف بالهاتف قائلاً: «نيكى»، أنا فى السرير مريض جداً أعانى من التهاب رئوى. وقد رفض الأطباء قيامى من السرير. أظن بأنه يجب عليك أن تذهب وحدك هذه المرة.»

وقفت علي المسرح أمام عدسات الكاميرات و المصورين و الميكروفونات ورأيت هذا العدد الهائل من الحضور. هل سيفهموننى الآن بلهجتى «البرتوريكانية» ؟

وبعصبية شديدة تنحنحت ثم فتحت فمى لأتكلم . لكن لم تخرج أى كلمة منى ـ فقط بعض الكلمات غير المفهومة. فتنحنحت ثانية، فخرجت منى أصواتاً ك«جل، سس، يب،ين،مه،خا.»

تململ الجمع و لكن بأدب. كان الأمر كله محبطاً. فقد كنت معتاداً علي وجود جيف بجانبى. فأحنيت رأسى وطلبت معونة الله قائلاً: «يارب أعطينى لساناً مفهوماً حتي أستطيع أن أحدث هؤلاء الأولاد عنك.»

رفعت رأسى وبدأت أتكلم. كانت الكلمات التى أقولها رائعة وتخرج من فمى بتلقائية وبقوة غير طبيعية . لقد استبدل الله «جيف» اليوم بيسوع فى هذا اليوم ومنذ هذه اللحظة علمت بأنه كلما تكلمت من أجل اسمه فلن أحتاج أبداً إلي مترجم معى.

بعد الخدمة النهائية توقف «دان» بالفندق الذى كنت أقيم به، قال لى: « «نيكى» الرب يباركنا بطريقة رائعة. فقد حصلنا علي عطية محبة قدرها ثلاثة آلاف دولاراً لأجلك ولأجل خدمتك.»

«لكن «دان» أنا لا أستطيع أن آخذ هذا المال.»

فقال لى «دان» «نيكى» لا يمكنك أن لا تأخذ، فالمال ليس لك. هو لأجل عمل الله الذى من خلالك.»

فسألته: «هل أستطيع أن استخدمه بأى طريقة أشعر بأن الله يقودنى لها؟»

فقال لى : «نعم هذا صحيح.»

«إذا سأستخدمه من أجل الفتيان السن. أريد أن أنشئ مركزا خاصاً لخدمتهم.»

فأجابنى «دان» بفرح وهو يقف من علي الأريكة : «رائع، أطلق عليه اسم مركز الكرازة للشباب.»

نعم فقد كانت فعلا عملاً كرازياً للشباب. عدت إلي كاليفورنيا بالثلاثة آلاف جنيه دولار لافتتح به مركزاً حيث أستطيع أن أستقبل فيه أطفال الشوارع لأربحهم للمسيح.

جهزنا المركز فى شارع «فرانسوا ٢٢١ ن» بـ «برودواى» . قدمت لأخذ رخصة رسمية من قسم الشرطة فى «كاليفورنيا» ثم علقت لافتة علي الرصيف الأمامى مكتوباً عليها«الكرازة للشباب، المدير: «نيكى كروز».»

بعدها بدأت أجول الشوارع. وهكذا فى اليوم الأول وجدت ولداً فى الحادية عشر من عمره جالساً علي عتبة الباب. فجلست بجانبه وسألته عن اسمه.

نظر إلي من جانب عينيه وأخيرا قال: ««روبن»، لماذا تريد أن تعرف اسمى؟»

«لا أعرف لماذا لقد رأيتك فقط من بعيد وشعرت بأنك وحيد لذلك أردت التحدث معك.»

فبدأ يحدثنى بشغف، قال لى: بأن أبيه كان مدمناً. وبأنه كان لقد كان يستنشق «الكولا» قبل يوم الأمس فى المدرسة، فهو فى الصف السادس لكنه طرد الآن من المدرسة. استمعت إليه ثم قلت له بأنى قد افتتحت مركزاً لأطفال مثله وسألته إن كان يحب أن يأتى ليعيش معى.

«هل تعنى بأنك تريد منى أن آتى معك؟»

فقلت له:«بالطبع، ولكن يجب أن نتحدث أولاً مع والدك .»

فأجابنى الولد: «عليه اللعنة. سيفرح جداً بأن يتخلص منى. لكن الشخص الذى يجب أن ترتب معه هذه الأمور هو المسئول القضائى الخاص بى.»

ابتهج جدا المسئول القضائى، فانتقل «روبن» للعيش معى فى هذه الليلة.

بعد عدة أسابيع التقطنا طفلين آخرين. فألحقناهما بالمدرسة، كنا ننظم لهما دروساً فى الكتاب المقدس يومين فى المركز. فى البداية سبب لنا «روبن» الكثير من المشاكل، لكنه فى نهاية الأسبوع الثانى سلم حياته إلي المسيح أثناء درس الكتاب. وفى مساء اليوم التالى عاد من المدرسة ثم ذهب إلي غرفته ليستذكر دروسه. فغمزتنى «جلوريا» قائلة:«ما البرهان الذى تريده أكثر من ذلك لتتأكد أن ما حدث فى حياته كان حقيقياً فعلاً؟» لم أكن أحتاج لأى برهان آخر. لقد شعرت بالراحة فى أعماقى.

وكان القلق يتلاشي.

بعد مرور عدة أيام بدأنا نتلقي مكالمات عديدة من أمهات هائجة تطلب منا أن نأتى ونأخذ منها أولادها لأنهم كانوا يسببون لهن الكثير من المشاكل. وفى خلال أسابيع كان المركز قد امتلأ وكنا لا نزال نتلقي الكثير من المكالمات. وهكذا كنا نمضى أنا و«جلوريا» الكثير من الوقت فى الصلاة إلي الله ليقودنا.

ذات صباح بعد أن نمنا لمدة ساعتين فقط دق جرس الهاتف. فذهبت إلي السماعة . كان «دان سميث» وهو عضو نشط فى هيئة الكتاب المقدس التام لرجال الأعمال «بفرنزو» يتحدث معى: « «نيكى»، لقد كان الله يقودنى بطريقة غريبة. عندما كان الكثيرون منا يصلون لأجل خدمتك. فقد وضع على قلبى أن أساعدك على تكوين هيئة من مجلس إدارة. فمن فضلك تحدثت مع «ايرل درابر» المحاسب، ومع القس «بول ايفانس» ومع السيد «هـ.ج. كينر» مدير المحطة المحلية للتلفزيون. نحن نرغب فى العمل معك إن كنت أنت تريد ذلك.»

لقد كانت هذه استجابة لصلاتى حيث سيقف الآن رجال الأعمال المحترفين هؤلاء وراء هذه الخدمة ليساعدونى فى توجيهها إلي الطريق الصحيح.

فى نهاية الشهر نفسه انضم إلينا «دايف كارتر» ليعمل مع فريقنا فى خدمة الأولاد. كنت أعرف «دايف» فهو رجل طويل وزنجى، كان رئيس عصابة فى «نيويورك». و قد ذهب إلي مدرسة الكتاب المقدس بعد مناقشة طويلة معى. ولأنه لم يكن مرتبطاً بأية ارتباطات عائلية استطاع أن يمضى معنا ساعات طويلة فى المشورة الفردية مع الأولاد الجائعين للحب. كان معنا أيضاً فتاتين مكسيكيتين تدعيان «فرانسيس راميريز» و«انجى سيديلوس» كانتا قد انضمتا إلي مجموعة السيدات للمساعدة فى أعمال السكرتارية.

أما عضو فى الفريق فقد كان شخص عزيز علي قلبى جداً. وهو«جيمى الباز». الذى تخرج من مدرسة الكتاب المقدس وتزوج من امرأة رقيقة وهادئة الطباع. عمل معنا كمشرف، لكن بالنسبة لى كان أكثر من ذلك. كانت سيرته وحياته برهاناً كبيراً علي تغيره وعلي القوة المغيرة للمسيح.

كان من الصعب التخيل بأن هذا الشاب الجذاب المتعلم المرتدى لنظارات داكنة اللون هو هو نفس الشخص الذى جاء إلي مركز تحدى المراهقين يرتجف ويعانى من أعراض سحب «الهيروين» يتوسل لنا كى يحصل علي المخدرات.

ومع قلوبنا الممتلئة من الإيمان بالله وأيدينا المنشغلة بالعمل مع هؤلاء الصغار كنا نتقدم إلي

الأمام. كان الله يباركنا ولم أكن أعتقد بأنى أستطيع تحمل المزيد من مفاجأته. ولكن بالنسبة لمن يحب الله فليس هناك حدود لمفاجآت الغد معه.

فى ذلك الخريف نظم لى «دان ماكوك» رحلة العودة إلي «نيويورك» للتحدث فى عدة لقاءات كان قد ارتبط بها جدول أعمالى. وبعد أن تقابلنا بالمطار أخذنى عائداً بى إلي داخل المدينة حيث المساكن الشعبية التى يمكنك أن تراها ميلاً بعد ميل . جلست صامتاً فى مقعدى أشاهد منظر هذه المساكن. فكان هناك شىء ما يخزنى فى قلبى. إذ لم أعد جزءاً من هذا المستوي الاجتماعى لكنه لا يزال جزءاً لا يتجزأ منى. كنت دائماً أفكر و أتسائل كيف هى أحوال أصدقائى القدامي وأعضاء العصابات، و خاصة «إسرائيل»؟

«يا يسوع» لقد صليت فقط: «أعطنى فرصة أخيرة لأشهد له.»

بعد انتهاء الخدمة فى هذه الليلة تبعنى «دان» إلي غرفتى بالفندق. كان جرس الهاتف يدق عندما دخلنا. فأجبته وكانت هناك فترة صمت طويلة علي الجانب الآخر من السماعة قبل أن أسمع صوته كنت أعرفه جيداً يقول لى: ««نيكى» إنه أنا إسرائيل.»

فصحت: «إسرائيل. مجدا لله. لقد استجيبت صلاتى. أين أنت؟»

«أنا بمنزلى يا «نيكى» فى «برونكس». لقد قرأت لتوى فى الصحف بأنك عدت إلي المدينة فاتصلت بأخيك «فرانك». فقال لى بأنى أستطيع أن أجدك هنا فى الفندق.»

كنت أريد أن أقول له شيئاً آخر، لكنه قاطعنى قائلاً: ««نيكى» كنت أتساءل ما إذا كنت أستطيع أن أراك خلال فترة وجودك هنا فى المدينة، لنتكلم فقط عن أيامنا السابقة.»

لم أكن أصدق ما أسمعه. فالتفت إلي دان وقلت: «إنه إسرائيل . يريد أن يرانى.»

قال لى دان: «اسأله أن يأتى لمقابلتنا غداً ليلاً فى الفندق، ليتناول معنا العشاء. كان التلاقى الثانى بيننا سيبدأ الساعة السادسة مساء الغد.

صليت لأجله طوال الليل طالباً من الله أن يعطينى الكلمات المناسبة التى تلمس قلبه بالمسيح.

ثم نزلنا أنا و«دان» إلي بهو الفندق من الساعة الخامسة والنصف حتي السابعة.

وأخيرا ها قد جاء. كان قلبى يخفق من شدة الفرح، عندها تذكرت الصباح الباكر منذ تسعة سنوات عندما تركته لأول مرة.

فجأة .. ها قد رأيته. بملامحه الجذابة وعيناه الجميلتان وشعره المتعرج. لم يتغير فيه شىء . لم

أستطع أن أتكلم فقد كانت الدموع تنهمر من عينى. قال لى وهو يجذب يدى: ««نيكى» أنا لا أصدق ما أراه.» فجأة بدأنا نضحك ونتحدث فى نفس الوقت فنسينا أنفسنا والناس من حولنا.

بعد عدة دقائق جذبنى نحوه قائلاً: ««نيكى» أريدك أن تقابل زوجتى، «روزا» .»

بجانبه كانت تقف فتاة صغيرة جميلة من «برتوريكان» لها غمازات تملأ وجهها الجميل . نزلت إليها أمسكت بيدها ولكنها جذبتنى من رقبتى وقبلتنى علي وجنتى.

ابتسمت وقالت لى فى لهجة إنجليزية مكسرة :«أظن بأنى أعرفك. لقد كنت تعيش معنا طوال الوقت. لقد حدثنى «إسرائيل» عنك كثيراً خلال الثلاث السنوات الماضية.»

نزلنا إلي أسفل فى غرفة «هاى ماركت» لتناول العشاء. كان «إسرائيل» و «روزا» يتبعوننا، كنت أشعر بأن هناك شيئاً ما يؤرقهم.فقلت لإسرائيل: «يا إسرائيل ما خطبك يا عزيزى؟ إن دان يصلى من أجل لقاءنا هذا. هيا بنا.»

نظر إلى «إسرائيل» نظرة بها شىء من الخجل وأخيرا جذبنى إليه وقال لى: ««نيكى» هذا ليس مكانى. أنا لم أشعر بالحرج أبداً فى حياتى مثل هذه المرة. لا أعرف ماذا أفعل.»

وضعت يدى حول كتفه وقلت له: «أنا لا أعرف ماذا سأفعل أنا الآخر. كل ما عليك أن تفعله فى هذا العشاء هو أن تطلب طعاماً غالى الثمن ولندع «جولى جرين جيانت» يدفع لنا الحساب. ابتسمت وأشرت إلي دان.

بعد العشاء ركبنا المصعد إلي غرفتى فى الطابق الرابع عشر. كان «إسرائيل» مرتاحاً، حينئذ شعرت بأنه عاد إلي سجيته عندما بدأ يحدثنا عن منزله فى المساكن الشعبية.

قال لى: «هذا المكان هو ليس أفضل مكان لنعيش به. فنحن مضطرين لأن نبقى الأطباق فى الثلاجة طوال الوقت حتي لا تسير عليها الصراصير. ولكن من الممكن أن يسوء الأمر أكثر من ذلك. ففى الأسفل تستطيع أن تري الفئران وهى تخرج وتدخل من الزقاق وتعض الأطفال وهم نيام.»

صمت «إسرائيل» بعض الوقت ثم قال: «الأمر يبدو وكأنك محبوس هناك فى الأسفل. ولست قادراً علي الهرب أبداً. فهو أسوء مكان يمكن أن تربى فيه أولادك. فى الأسبوع الماضى تعرضت ثلاث فتيات ممن كانوا يسكنون معنا فى المبني إلي الاغتصاب داخل الزقاق المظلم وكانت تبلغن من العمر حوالى تسع سنوات. نحن لا نجرأ أن نسمح للأولاد بالخروج إلي الشارع وقد تعبت جداً من هذا الوضع. أريد الخروج من هذا المكان . ولكن.....»

انخفض صوته ثم وقف من علي كرسيه وسار إلي النافذة ينظر إلي البرج المتلألئ فى الخارج عند مبني «امباير ستيت». «يجب أن اذهب إلي أى مكان، لكن أى مكان آخر إيجاره مرتفع جداً. ربما فى السنة القادمة ....من المحتمل السنة القادمة قد نستطيع أن الانتقال إلي مكان أفضل. فأنا لم أفعل شيئاً سيئاً لهذه الدرجة. لقد عملت كغاسل للصحون حتي تدرجت فى العمل إلي بائع فى شارع «وال ستريت.»

فقاطعته قائلاً: «لكن بعد أن تحقق هذا الأمر، ماذا ستفعل ثانية؟»

التفت إلى «إسرائيل» ونظر لى فى حيرة وقال:«ماذا قلت؟»

أدركت بأنه قد حان الوقت لأتكلم معه بعمق فى الماضى. فقلت له: «قل لى يا إسرائيل ما الخطأ الذى حدث.»

سار إلي الأريكة نحو روزا وجلس بجانبها بعصبية وقال:«أنا لا أمانع فى أن أتكلم بشأن هذا الأمر. فعلاً أنا محتاج لأن أفتح هذا الموضوع ثانية. أنا حتي لم أقول لـ «روزا» أى شىء عن هذا الموضوع من قبل. هل تتذكر ذلك الصباح عندما خرجت من المستشفي حيث كنت قد واعدتنى أنت وذلك الرجل؟»

قلت له نعم ، لكن هذه الذكري هى ذكري مؤلمة جداً بالنسبة لى مؤلمة جداً.

«لقد انتظرت هناك ثلاث ساعات. وشعرت وقتها بأنى أبله. فقلت لنفسى، لقد سئمت من المسيحيين، فى تلك الليلة عدت ثانية إلي العصابة.»

فقاطعته قائلاً: «إسرائيل أنا آسف. لقد بحثنا عنك....»

فهز رأسه وقال: «من هو الذى يهتم بهذا الأمر؟ لقد مر وقت طويل على ما حدث. ربما كانت ظروفى مختلفة الآن لو أنى قد ذهبت معكم فى ذلك اليوم. من يعرف؟»

صمت قليلاً ثم قال: «بعد ذلك حدثت مشكلة بيننا وبين عصابة «ملائكة الشوارع»، فقد جاء ولد منهم إلي منطقة نفوذنا، فقلنا له بأننا لا نريد أى حثالة هنا. لكنه كان يحاول مراوغتنا فضربناه. فركض هرباً منا ، لكن خمسة من العصابة لحقوا به فى منطقة نفوذ «ملائكة الشوارع» وأمسكوا به فى «بينى اركاد». ثم جذبوه إلي الخارج ، وأخذنا نتشاجر معه. آخر شىء أعرفه عن ما حدث هو أن واحداً من أعضاء العصابة كان لديه مسدساً و كان يطلق النار.

بدأ «باكو» وهذا هو اسم الولد يمسك ببطنه ويقول ساخراً: «آه لقد أطلق على النار. لقد أطلق على

النار. وكان جميعنا يضحك.»

«ثم سقط هذا الأبله علي الأرض. فلقد أُطلق عليه النار فعلاً. كان قد مات. لقد رأيت الثقب فى رأسه.»

ثم صمت «إسرائيل» قليلاً وقال: «ثم سمعت فجأة أصوات سيارات كثيرة فى آخر الشارع،

حاولنا الهرب كلنا لكننا لم نستطع فقد ألقى القبض علي أربعة منا، وفر الخامس. وقد أدين الولد الذى أطلق النار وحكم عليه بعشرين سنة سجن، أما نحن فكانت أحكامنا تتراوح بين الخمس سنوات والعشرين سنة.»

توقف بعدها عن الحديث ثم أحني رأسه قائلاً: «كانت خمس سنوات من الجحيم.»

بعدها استعاد تركيزه ثم قال: «كان على أن أحصل علي تنظيم.»

فقاطعه دان قائلاً: «ما معني تنظيم؟»

«لقد قال لى المسئول القضائى الخاص بى بأنى إن استطعت الحصول علي وظيفة فسيطلقون سراحى. وقالوا لى بأنه على أن أعود إلي منزلى القديم. لكنى لم أكن أريد العودة إلي«بروكلين». كنت أريد أن أبدأ حياتى من جديد، ولكنهم قالوا لى بأن على أن أعود ثانية إلي البيت. وهكذا استطعت الحصول علي وظيفة من خلال تاجر مخدرات كان معى بالسجن. كان علي صلة برجل يملك مصنعاً للملابس فى «بروكلين» وقد قال هذا الرجل لأمى بأنها إن دفعت له خمسين دولاراً فسوف يضمن لى الوظيفة. فأعطته المال فكتب لها رسالة يعدها فيها بأنى سأحصل علي الوظيفة عند خروجى من السجن. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة التى استطعت بها الحصول علي وظيفة. لأنه من يرغب فى أن يوظف شخصاً كان مسجوناً من قبل؟»

فسأله دان، «لكن هل عملت فعلاً فى هذه الوظيفة؟»

فقال إسرائيل: «لا، لقد قلت لك بأنها تنظيم فقط. لم تكن هناك أية وظيفه. كانت هذه هى الطريقة الوحيدة للخروج من السجن.»

«لذا عندما خرجت ذهبت إلي هيئة العمل وكذبت عليهم بصدد ماضى، هل تظن بأنهم كانوا سيوظفوننى، فيما لو كنت قد قلت لهم بأنى كنت مسجوناً من قبل؟ لقد حصلت علي عمل كغاسل للصحون ثم تدرجت فى عدة وظائف بعد ذلك. وأنا أكذب منذ ذلك اليوم حتي الآن. هنا يجب عليك أن تكذب حتي تستطيع الحصول علي وظيفة ما. لكن إذ علم رئيسى فى العمل بأنى كنت مسجوناً من

قبل فسيطردنى من الوظيفة حتي إذا كان قد مضي علي خروجى من السجن أكثر من أربعة سنوات وإن كنت فعلاً أعمل بكد واجتهاد. لذلك كنت أكذب. فالكثيرين يكذبون الآن.»

سأله دان: «هل ساعدك مسئولك القضائى فى أى شىء؟»

«نعم بالطبع كان هو الرجل الوحيد الذى كان يمكنه أن يساعدنى جدياً. لكن ما الذى كان عليه أن يفعل؟ فقد كان لديه مئات الأشخاص الآخرين الذين عليه أن يساعدهم أيضاً. فى الحقيقة هذا الأمر كان متروكاً فى يدى وقد صنعت كل هذا بمجهودى أنا فقط.»

ساد الصمت بالغرفة. كانت «روزا» تجلس بهدوء إلي جانب «إسرائيل» كل هذا الوقت. فهى لم يسبق لها أن استمعت إليه من قبل وهو يتحدث عن هذا الجزء فى حياته من قبل.

فقلت له: «إسرائيل هل تتذكر الوقت الذى كنا نبحث فيه عن عصابة «الرؤساء الأشباح» وجرينا بأرجلنا إلي كمين كان قد نصب لنا؟»

فهز إسرائيل رأسه: «أتذكر.»

«لقد أنقذت حياتى فى تلك الليلة يا «إسرائيل». وأنا فى هذه الليلة أريد أن أرد لك هذا الجميل.

الليلة سأقول لك شيئا سينقذ حياتك.»

رفعت روزا يدها ووضعتها فى يده. والتفتا إلى الاثنين معاً ثم نظرا إلى بتوقع.

«إسرائيل أنت أعز أصدقائى. وأعتقد بأنه بإمكانك الآن أن تري وتقول بأن هناك تغيير ما فى حياتى. فـ «نيكى» القديم قد مات. والشخص الذى تراه الليلة ليس «نيكى» البتة. هو يسوع المسيح الذى يحيا فى. هل تتذكر تلك الليلة فى منطقة «سانت نيكولاس» عندما سلمنا قلوبنا إلي المسيح؟»

فهز إسرائيل رأسه وهو ينظر إلي الأرض.«لقد دخل الله فى حياتك أنت أيضاً فى تلك الليلة يا «إسرائيل» أنا واثق ومتيقن تماماً من هذا الأمر. لقد صنع الله معك صفقة. وهو لا يزال يحتفظ بنهاية هذه الصفقة. فهو لم ييأس منك أبداً. لقد كنت تجرى وتلهث طوال هذه السنوات لكنه مازال يقف بجانبك.»

تقدمت وأخذت كتابى المقدس: «ففى العهد القديم كانت هناك قصة عن يعقوب. هو أيضا كان يهرب من الله دائماً. ذات ليلة كهذه الليلة تماماً كانت يخوض معركة كبيرة مع ملاك قوى. ثم انتصر الملاك واستسلم يعقوب إلي الله. وفى نهاية هذه الليلة غير الله اسمه، فلم يعد يدعي يعقوب بل «إسرائيل»، و «إسرائيل «معناه» الرجل الذى يسير مع الله.»

أغلقت كتابى وصمت للحظة، و قبل أن أكمل حديثى. كانت عينا «إسرائيل» ممتلئتين بالدموع و «روزا» تتشبث بيديه. «لقد مكثت سنوات طوال أصلى من أجلك فى كل ليلة. وكنت أفكر كم كان رائعاً أن تعمل بجانبى ليس كما اعتدنا أن نعمل معاً ولكن نعمل فى عمل الله. إسرائيل هذه الليلة أريدك أن تعود لتعيش مع الله. أريدك أن تتقدم لتدخل منطقة نفوذ الله.»

نظر إلي «إسرائيل» وعيناه مليئتان بالدموع. ثم التفت ونظر إلي «روزا». كانت محتارة وتكلمت معه بالأسبانية. أما أنا فقد كنت أتكلم بالإنجليزية وحينئذ أدركت بأن «روزا» لم تكن تفهم أى كلمة مما قلتها. لذلك سألته ما الذى أريده منه. فقال لها «إسرائيل» بأنى كنت أريده أن يعودا هو وهى ليكرسا حياتهما للمسيح ثانية. كان يتكلم الأسبانية بسرعة مفصحاً لها عن رغبته فى العودة إلي الله مرة أخري مثل يعقوب الذى عاد إلي الله . وسألها إن كانت تريد العودة معه.

فابتسمت وكانت عيناها تضيئان وهى تهز رأسها بالموافقة.

فصحت، «مجدا لله، هيا لنركع معا بجانب الأريكة أثناء وأنا اصلى.»

ركع «إسرائيل» و«روزا» بجانب الأريكة. وانزلق «دان» من كرسيه وركع أيضاً.

وضعت يدى علي رأسيهما وبدأت أصلى أولاً بالإنجليزية ثم بالأسبانية وأنا أتدرج فى الصلاة بين اللغتين. شعرت بروح الله يكتسح قلبى ثم ذراعى ثم أصابعى ثم إلي حياتهم. فصليت سائلاً الله إن يغفر لهما و يباركهما وأن يمتلئوا من ملكوته ومحبته.

كانت صلاة طويلة. وعندما انتهيت سمعت «إسرائيل» يصلى. ببطء فى البداية ثم بقوة و عمق فيما بعد وهو يصرخ و يقول: «يا رب اغفر لى. اغفر لى.» ثم تغيرت صلاته بعد ذلك وشعرت بالقوة الجديدة وهى تسرى فى جسده فقد بدأ يقول: «يا رب أشكرك.»

وانضمت إليه روزا أيضاً قائلة: «يا رب أشكرك. أشكرك.»

وضع «دان» «روزا» و«إسرائيل» فى سيارة أجرة بعد أن دفع للسائق الحساب كى يوصلهما إلي منزليهما فى «برونكس». ثم قال لى دان وهو يمسح دموعه ويسير بعيداً: «كانت هذه هى أعظم ليلة فى حياتى، وأشعر بأن الله سوف يرسل لك «إسرائيل» إلي «كاليفورنيا» ليعمل معك.»

فهززت رأسى . ربما، فالله لديه دائماً طرقه الخاصة للاعتناء بالأمور المختلفة.

خاتمة الكتاب

كان كل من «جلوريا» و«نيكى» جالسين علي درجات سلم المركز فى «٢٢١ ن» فى آخر فصل الخريف وفى نهاية يوم طويل. وكان «برودواى» يراقب «رافايل» و«كارل» وهما يقصان الحشائش فى غروب الشمس. كان الوقت قد اقترب لبدء اجتماع الشارع فى الأحياء الشعبية.

فى الحديقة الخلفية تستطيع أن تسمع صوت «داف كارتر» السعيد «وجيمى الباز» وهما يضحكان علي «ألن» و«جوى» و«كيرك» وهم يلعبون الكروكيت. كان العشاء قد انتهي

و«فرانسى» بالداخل مع «آجى» يراقبان بقية الأولاد لتنظيف المكان ليلاً. كانت «أليشيا» و«لورا» الصغيرة التى أصبح سنها الآن ستة عشر شهراً تلعبان بفرح علي الحشائش الناضرة.

كانت «جلوريا» تجلس علي عتبة الباب تنظر بحب إلي زوجها النحيل الأسمروهو يستند علي سارية البريد حيث كان مغمضاً عينيه بعض الشيء وكأنه كان يحلم. فمدت يدها ووضعتها علي ركبته.

«يا حبيبى ماذا بك؟ بماذا تفكر؟»

فسألها وهو ما يزال حالماً ، لكنه يحاول الانتباه «ماذا تعنين؟»

«أعنى ما الذى تحلم به الآن؟ هل لازلت تجرى؟ لدينا الآن مركزاً لصغار السن.

و«إسرائيل» و «روزا» يعيشان الآن فى «فرنزو» و يخدمان الله. و«سونى» صار قساً فى كنيسة كبيرة فى «لوس انجيلوس». و«جيمى» يعمل معك الآن. و «ماريا» تخدم الرب فى «نيويورك». وفى الأسبوع القادم ستسافر إلي «الدانمرك» و«السويد» لتعظ هناك. لماذا تحلم حتي الآن؟ ما الذى تستطيع أن تطلبه من الله أكثر من هذا؟»

رفع «نيكى» رأسهً ونظر بعمق إلي عيون زملائه. كان صوته منخفضاً وهو يقول: «ليس هذا ما كنت قد طلبته من الله يا حبيبتى، لكن ما كان قد طلبه هو منى. فنحن لا نزال نعمل علي السطح فى الخدمة.»

سادت فترة صمت طويلة. كانت أصوات النشاطات المبهجة هى التى تسمع فقط من حولنا. قالت له: «جلوريا» لكن يا «نيكى» هذه ليست مسئوليتك وحدك. هى مسئولية كل مسيحى فى كل مكان.»

فأجابها قائلاً: «أنا أعلم هذا ولكنى سأظل أفكر فى كل هذه الكنائس الكبيرة فى المدينة الفارغة أثناء أيام الأسبوع. ألم يكن من الرائع لو كانت كل هذه الفصول الفارغة هناك مستخدمة كمساكن داخلية مليئة بمئات الأطفال المرفوضين والمراهقين الذين يعيشون الآن فى الأحياء الفقيرة؟ فكل كنيسة من الممكن أن تصير هى بحد ذاتها مركزاً يديره متطوعين...»

فقاطعته «جلوريا» وهى تضغط على ركبته: «أنت شخص حالم يا نيكى. هل تعتقد بأن شعب هذه الكنائس سيقبلون تحويل مبانيهم وفصولهم الجميلة إلي مساكن داخلية للأطفال اللاجئين؟ فهؤلاء الناس يرغبون فى المساعدة، لكنهم يريدون أن يفعلها شخص آخر عنهم. ألا تراهم وهم ينزعجون إلي درجة كبيرة فيما لو دخل رجل مخمور إلي الخدمة. فكر فيما سيقولونه فيما جاءوا مرة إلي الكنيسة يوم الأحد صباحاً ليروا مذابحهم المقدسة تملئها الأسرة والبطاطين وحفنة من المدمنين ومستنشقى» الكولا» فى الممرات والقاعات. لا يا «نيكى» أنت حالم. فهؤلاء الناس لا يريدون أن تتسخ أيدهم. هم يثورون إذا اتسخت سجادتهم بأى قذارة من شخص عارى القدمين.»

فهز «نيكى» رأسه وقال: «أنت علي حق. أنا دائماً أتساءل ما الذى كان سيفعله المسيح. هل كان سيدع يداه تتسخان؟»

ثم صمت فترة ونظر عبر الجبال البعيدة وهو يقول: «هل تتذكرين اليوم الذى قدنا فيه السيارة إلي «بوينت لوما» عند خليج «سان دييجو» ؟ هل تتذكرين ذلك المنزل الكبير؟ لسنوات طوال كان هذا المنزل علامة للسفن تخبرها بأنها قد وصلت إلي المرفأ. لكن الآن تغيرت الأمور. فلقد قرأت فى الأسبوع الماضى بأن هناك ضباباً كثيفاً كان قد غطي المكان لذلك كان عليهم أن يبنوا فناراً كبيرا بجانب المياه ليضئ بالنور للسائرين عبر كل هذا الضباب.»

كانت «جلوريا» تستمع بانتباه.

«هذا هو ما يحدث اليوم. لا تزال الكنيسة تقف بأنوارها متقدة إلي فوق. لكن هناك القليلين فقط الذين يستطيعون رؤية هذا الضوء لأن الزمن قد تغير وهناك ضباب كثيف الآن. نحن نحتاج إلي ضوء جديد يضئ لنا الأرض حيث يقف الناس. أنا لا يكفنى أن أبقي محافظاً علي الفنار فقط لكنى على أن أكون حاملاً للنور أيضاً. لا أنا لم أعد أجرى بعد الآن. لكنى أريد أن

أكون حيثما يوجد الاحتياج.»

فقالت له «جلوريا» وصوتها العميق يعكس احتراماً و فهماً عميقاً: «أنا أعلم، وهذا ما أتمناه لك. ولكنى أظن بأنك يجب أن تذهب هذه المرة لوحدك. هل تعلم هذا أليس كذلك؟»

فقال «نيكى» وهو يجلس بجانبها و يضع يده علي يديها: «لا لن أكون وحدى، وأنا أسير فى منطقة نفوذ المسيح.»

كان صوت الأولاد وهم يضحكون فى الحديقة الخلفية، يعلو والذين كانوا قد انتهوا من لعبتهم يدخلون للداخل. حمل «كارل» و«رافاييل» كتابيهما المقدسين، ثم جلسا علي الرصيف أمام المنزل.

أما «نيكى» فقد أحني رأسه ونظر إلي جلوريا من فوق عينيه قائلاً: «لقد تلقيت مكالمة اليوم من أم فى «باسادينا» «ثم صمت قليلا وهو يتوقع رد فعلها. انتظرت «جلوريا» حتي يكمل حديثه.» لقد قبض علي ابنها وهو فى الثانية عشر من عمره لأنه كان يدخن «المارجوانا». وزوجها يريد أن يزج به فى السجن.«توقف «نيكى» عن الحديث وبدأ صوته ينخفض.» لكن ليست لدينا أماكن فارغة وقد أفلسنا.»

جلسا فى صمت. و«نيكى» يراقب هدهداً صغير يقفز علي الحشائش. كانت عيناه مليئتان بالدموع وهو يفكر بهذا الولد الذى لا يعرفه....لكن مثله مثل كل الأولاد الآخرين أيضاً.....جائع للحب.... ربما يتوق للدخول إلي السجن حتي يجذب بعض الانتباه.... فهو يبحث عن شيء حقيقى... يبحث عن يسوع المسيح وهو لا يعلم هذا.

فقاطعة «جلوريا» تفكيره قائلة: ««نيكى» كانت أصابعها تتشابك بأصابعه. ماذا ستفعل؟ »

فابتسم «نيكى» ونظر إلي وجهها وقال: «سوف أفعل ما يريدنى يسوع أن أفعله. سوف أتورط.»

فقالت «جلوريا» وهى تحيط بيدها قدمه: «آه يا «نيكى»، «نيكى». أنا أحبك. فهناك دائماً غرفة إضافية لشخص آخر. والرب سيباركنا.»

قاد «جيمى» الأتوبيس إلي مكان الانتظار الخاص به. والأولاد يجتمعون للاستعداد لحضور اجتماع الأحياء الفقيرة. فجذب «نيكى» يد «جلوريا» و وقفا» وصرخا: «فامانوس.. هيا لنركض. لقد حان الوقت للعمل للمسيح.»

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

كنت علي وشك أن أذيع النشرة فى محطة الراديو من مكتبى عبر الممر عندما دخل على «نيكى كروز». كان ينظر حوله ليتأكد بأنه لا يوجد أى شخص آخر، أغلق الباب ووقف صامتاً أمامى وظهره منحنى قليلاً ويداه فى جيبه. كان وجهه لا يحمل أى تعبيرات لكن بالرغم من إنى كنت أعرفه جيداً كانت هناك قصة واضحة علي وجهه حيث كان يتماسك بقدر استطاعته مسيطراً علي غضبه.

فقال لى وهو يخرج يده من جيبه: «ها هى.» وللحظة لم أكن أعلم هل آخذ حذرى أم أسترخى.

ثم وضع علي المنضدة أمامى أغرب أدوات رأيتها فى حياتى. تعرفت عليها وهو يضعها: مسدس و زوجان من مفاصل أصابع حديدية غريبة الشكل, مطواة من العاج, وزوجان من الأثقال الحديدية مربوطتان فى نهايتهما برباط من الجلد ، حقنة للمخدرات مع قطارة وغطاء برطمان. وكلها أدوات لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة لأى مدمن.

فقال «نيكى» وعينيه تتلألآن بإجابة: «كانت هذه هى أدوات التجارة. ثم نظر إلي الأسفل إلي المنضدة يلمس هذه الأدوات بخفة و كأنه يودعها.» لقد عشت معها طوال حياتى. وكانت حياتى تعتمد عليها تماماً. لكن الآن أنا لا أحتاجها البتة. سأعطيها لك.»

وقد سمرها بالفعل علي صليب يسوع المسيح المقدس، ولأنه كان يريد أن يفعل هذا، فقد فعل. أعطانى هذه الأدوات فقط كنوع من الثقة المتبادلة. والآن قد جاء دورى أنا حتي أسجل هذه المشاعر.

ما تزال لدى هذه المجموعة الغريبة من الأدوات ومن آن لآخر أخرجها لأذكر نفسى بـ «نيكى كروز» الذى .... و من خلال رحمة الله ونعمته التى تملأ المسكونة قد خلق من جديد كما هو الآن.

كاثرين كولمان
بيتسبرج، بنسلفانيا

الغفران ... الفداء ...

العنف ... الجنس ... المخدرات

" **الهروب من الهاوية** " هو واحد من أقوى الكتب في القرن العشرين المبنية على قصة حقيقية، فهو يحكي قصة رجل كان بمثابة أسطورة بين عصابات شوارع نيويورك ، ولكن الرب تقابل معه وغير حياته بالكامل.

إن قصة " **نيكي كروز**" هي مزيج من حروب العصابات والخيانة والمخدرات والقتل .. من ناحية ، ومن ناحية أخرى هي قصة تغوص في أعماق ذلك الرجل الذي كان في يوماً من الأيام من أكبر قادة العصابات في المدينة ، لتكشف عما وراء كبرياؤه وقوته من قلب وحيد وخائف ومشوش. ذلك الرجل - نيكي كروز - الذي فتح قلبه للمسيح بسبب مقابلته مع شخصية فريدة ومتميزة هي شخصية الواعظ "**دافيد ويلكرسون** " ، ومنذ ذلك الحين تغيرت حياة نيكي كروز لدرجة أدهشت جميع من عرفوه.

واليوم يجول حول العالم حاملاً رسالة الخلاص والرجاء للشباب ذوى القلوب المحطمة - ويلمس قلوب الآلاف من أفراد العصابات من واقع خبرته الشخصية.

إن هذا الكتاب ظل الكتاب الأكثر مبيعاً منذ ثلاثين عاماً عندما تم نشره لأول مرة ، فقد كان لهذا الكتاب تأثيراً بالغاً في حياة الملايين من الناس.

دار النشر الأسقفية